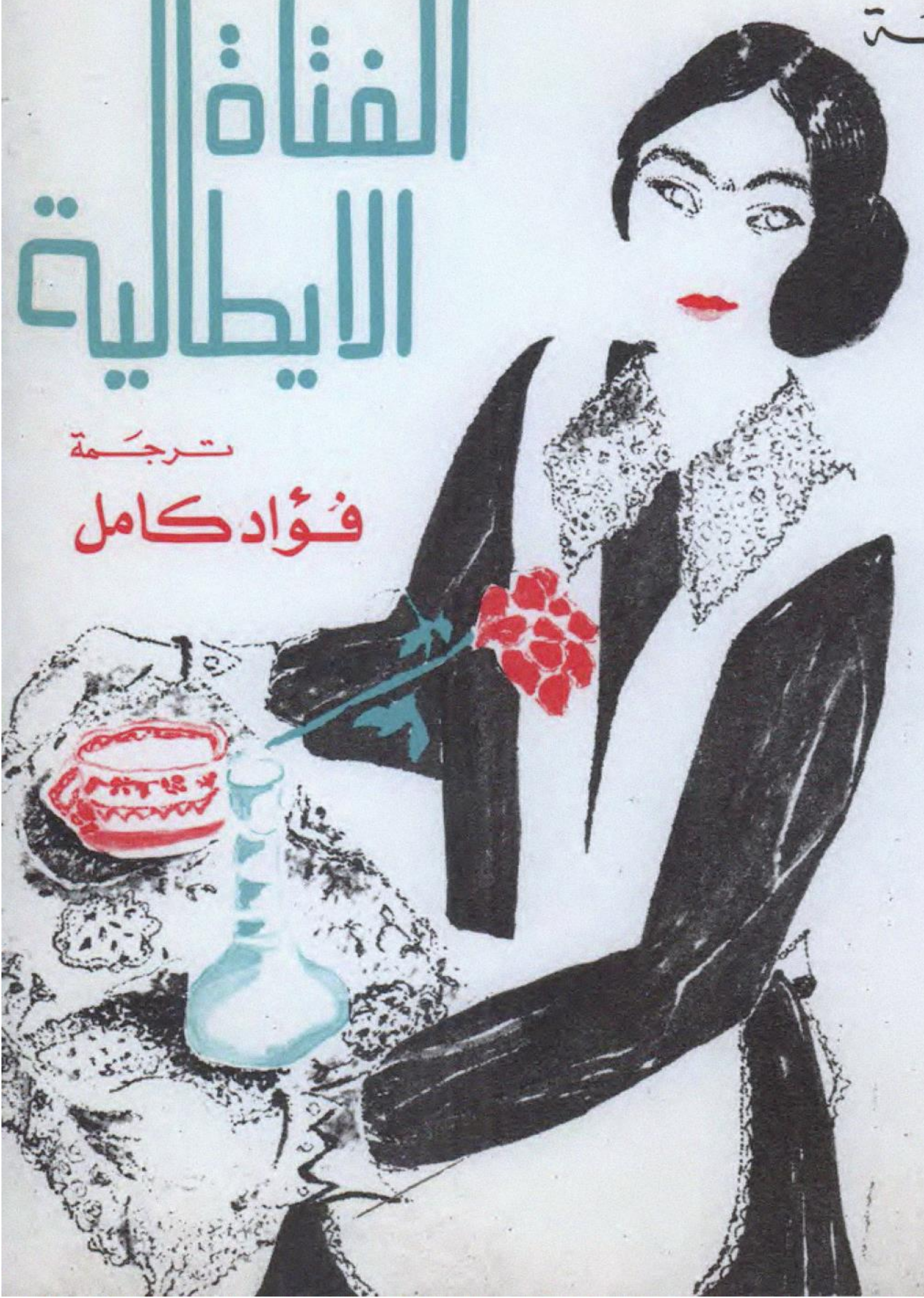
ايريس مردوخ

رواية

الفتاة الايطالية



ترجمة

فؤاد كامل

الفتاة الايطالية

رواية

تأليف

ايريس مردوخ

ترجمة وتقديم

فؤاد كامل

دار الآداب - بيروت

الطبعة الأولى
١٩٨٩

مقدمة
بقلم المترجم

آيريس مُردوخ روائية وفيلسوفة انجليزية تعد الآن في طليعة الكتاب الانجليز من جيلها، ومن أغزر الكاتبات الانجليزيات إنتاجاً.

وُلدت جان آيريس مردوخ في دبلن عام ١٩١٩ من والدين انجليزيين - ايرلنديين. وقضت فترة طفولتها في لندن، والتحقت بمدرسة «بادمنتون» بمدينة بريستول، ودرست الآداب الكلاسيكية بكلية سومرفيل التابعة لجامعة أكسفورد. ثم تخرجت من جامعة كمبردج بعد أن نالت منحة دراسية في الفلسفة من كلية نيونهام التابعة لجامعة كمبردج. وفي الحرب العالمية الثانية كانت مساعدة رئيسية في وزارة الخزانة البريطانية فيما بين عامي ١٩٤٢ و ١٩٤٤، ثم التحقت بعد ذلك بوكالة الإغاثة والبحث التابعة لهيئة الأمم المتحدة في الفترة من ١٩٤٤ إلى ١٩٤٦. وكان عملها كضابطة إدارية في هذه الوكالة يتيح لها السفر إلى كثير من البلدان، فزارت بلجيكا والنمسا واستراليا. وفي عام ١٩٤٨ عادت إلى جامعة أكسفورد حيث انتخبت زميلة ومحاضرة في كلية القديسة آن. وتزوجت عام ١٩٥٦ من الأديب والناقد الانجليزي المعروف جون بيلي. وفي عام ١٩٧٥ اختيرت عضواً شرفياً في الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب. ومنحت جائزة C.B.E - وهي من أرفع الجوائز الأدبية الأمريكية - عام ١٩٧٦.

وقبل أن تنشر شيئاً من رواياتها نشرت أول كتاب لها وكان في الفلسفة ـ وهو كتاب: «سارتر العقلاني الرومانسي» (كمبردج ١٩٥٣)، ويتضمن دراسة وتحليلاً لأفكار الفيلسوف الوجودي الفرنسي المعاصر، ومنه نتبين أنها تشارك سارتر الاحساس الوجودي بالحياة من حيث أنها موقف لا معقول بالإمكان. فالحياة عندها ـ كما هي عند سارتر «حكاية» أو «قصة»، فالإنسان يعتقد أنه يمارس على حياته تحكماً عقلانياً، على حين أنه في الواقع دمية بين يدي اللاشعور، وغيره من القوى اللاإنسانية.

وفي روايتها الأولى «تحت الشبكة» التي نشرت عام ١٩٥٤ نجد أصداء فلسفة سارتر الوجودية واضحة كل الوضوح. ويمتد هذا التأثير إلى ثلاث من رواياتها التالية: «الهرب من الساحر» The Flight from the Enchanter (١٩٥٥)، «قلعة من الرمال» The Sandcastle (١٩٥٧)، و «الجرس» The Bell (١٩٥٨).

وفي هذه الروايات الثلاث تتناول آيريس مردوخ موضوعاً واحداً هو الشهوة المدمِّرة التي تدفع الإنسان إلى السيطرة، والشهوة التي لا تقل عنها تدميراً وهي الخضوع للسيطرة. وفي «قلعة من الرمال» تدرس المراحل اليسيرة التي تصبح بها السيطرة بديلاً عن الحب. أما رواية «الجرس» فتتميز بأنها تصور الحواجز والحوائل الكثيرة التي يمكن أن تحول بين الإنسان وبين الحب الحقيقي الصادق.

وتوالت بعد ذلك روايات آيريس مردوخ بغزارة: ففي نحو ٢٥ عاماً نشرت عشرين رواية، وبعض المسرحيات ودواوين الشعر والدراسات الفلسفية. وتتلاقى رواياتها مع اهتماماتها الفلسفية، بل تفسح لها مجالاً أوسع للانتشار والتأثير. وفي كتاب من كتبها الفلسفية تتحدث عن علاقة الابداع الروائي عندها بالدراسة الفلسفية ـ هو كتاب «سيادة الخير» The Sovereignty of good (لندن، ١٩٧٠)، كما تتحدث فيه

أيضاً عن علاقة الفن بالأخلاق وبطبيعة كلٍ من الواقع، والحقيقة، والحرية والخير. وفي مُضاد بعض الاتجاهات الوجودية المتمركزة على الذات تصوِّر آيريس مردوخ الواقع في رواياتها بأنه شيء يستطيع الفرد أن يدركه ويفهمه شريطة أن يقبل وجود الآخرين ويعترف بصحة تجاربهم. والأفراد عندها يكتسبون الحرية - أساساً - عن طريق الحب. فالحب هو القوة التي تمكِّن الفرد من فهم انفصال الآخرين عنه، ومن ثمّ للسعي إلى التواصل معهم.

ويتمثل المجتمع في روايات آيريس مردوخ بوصفه وسطاً ثرياً، خصباً، شديد التعقيد والالتباس، يسعى فيه الفرد - سواء كان رجلاً أو امرأة - إلى تشكيل هويته الأخلاقية بالتجاوب أو الاستجابة للحوادث والشخصيات التي تَعْرض له في حياته دون تدبير أو تخطيط، وهذا هو ما يضفي على الحياة طابع العشوائية والجزافية والعرضية، ويجعلها مجموعة من «الامكانات» التي علينا أن نختار بينها لنتمكن من تشكيل هويتنا. والتفاعل بين العلاقات الشخصية يمثل في روايات آيريس مردوخ معيناً لا ينضب للفكاهة والسخرية، كما يتجلى ذلك تجلياً لا مزيد عليه في رواية: «رأس مقطوع» A Severed Head (لندن، ١٩٦١).

وقد كانت هذه الرواية - «رأس مقطوع» العمل التي نالت به «آيريس مردوخ» شهرة عالمية، وبخاصة بعد أن قامت بالاشتراك مع الكاتب الانجليزي الشهير ج. ب. بريستلي بمَسْرحتها في عام ١٩٦٤، فلقيت الرواية والمسرحية معاً نجاحاً منقطع النظير. وتتناول الرواية عدداً من شخصيات الطبقة الوسطى الانجليزية الذين يمثلون مهناً مختلفة فمنهم التاجر والطبيب والفنان... إلخ، وكلهم يعيشون حياةً مزدوجة تتألف من الزوج والعشيقة أو الزوج والعشيق، ولأنهم عاجزون عن الحب، تراهم ينغمسون في الجنس والمتع الحسية، وما

يترتب على ذلك من خداع وأكاذيب. وفي هذه الشبكة من العلاقات المعقدة تجد آيريس مردوخ مرتعاً خصباً لروح الفكاهة والسخرية عندها.

ومن الروايات التي أحالتها آيريس مردوخ إلى مسرح أيضاً، رواية «الفتاة الايطالية» The Italian Girl التي نقدم للقارىء ترجمتها في هذا الكتاب. واشترك معها في هذا الاعداد المسرحي جيمس سوندرز في عام ١٩٦٧.

ولآيريس مردوخ مسرحيتان كتبتهما للمسرح مباشرة هما: مسرحية «الخدم والجليد» The Servants and Ice (١٩٧٠)، ومسرحية: «السهام الثلاثة» The Three Arrows (١٩٧٢)، وتتعرض فيهما لمشكلة الحرية.

والحبكة الروائية مشيَّدة عند آيريس مردوخ برهافة شديدة، وتعقيد بالغ التشابك والقابلية للنمو والتطور، وتضم رواياتها عادة مجموعة كبيرة من الشخصيات، بحيث يتمخض التفاعل بينها إلى ما يمكن أن يسمى بالتطور الكاليدوسكوبي Kaleidoscopie (أي تغير المنظر المستمر أشكالاً وألواناً)، ويحتاج هذا كله بالطبع إلى مقدرة فائقة من التحكم سواء في الأحداث أو في الشخصيات. وقد أوتيت آيريس مردوخ هذه المقدرة على التحكم بصورة فذة، تدعو إلى الاعجاب الشديد. هذا فضلاً عن بصيرتها السيكلوجية الثاقبة، ورؤيتها الفلسفية العميقة، وتوظيفها الجيد للأساطير القديمة، وروح الفكاهة والملهاة عندها، واهتمامها الحاد بالقضايا الأخلاقية، وإيحاءاتها الشعرية البارعة، واعترافها بأهمية التجربة الروحية، ومحاولتها معالجة الحركات العميقة في الشعور الإنساني، مما يضعها ـ بحق ـ من مصاف كتاب الرواية العالميين، ويرفعها إلى قمة الكتاب الانجليز المعاصرين.

فؤاد كامل

١ ـ حفر على الخشب في ضوء القمر

دفعتُ الباب برفق . . وكان يُتْرك دائماً في الأيام الخوالي مفتوحاً أثناء الليل. وعندما أيقنت تماماً أنه موصد، تراجعت في ضوء القمر، وتأملت المنزل. ومع أن الليل لم يكن قد انتصف بعد، إلا أن شيئاً من النور لم ينبعث منه. كان الجميع نياماً بعد أن آووْا إلى مضاجعهم. فانتابني نحوهم شيء من الامتعاض. إذ كنت أتوقّع ساهراً، من أجلها، ومن أجلي.

ودلفت خلال أريج ناعم من أزهار الشيخ والأشواك القصيرة، في محاولة للدخول من إحدى النافذتين الأماميتين، غير أن كلاً منهما كانت مغلقة بإحكام؛ وتنفّستْ في وجهه من الداخل ظلماءُ أشد سواداً. وكان ارتفاع الصوت بالنداء في مثل هذا السكون أو إلقاء الحجارة على النوافذ أمرينْ في غاية البشاعة. بيد أن الانتظار بلا حراك في ضوء القمر، والشعور بأنني شخص وحيد، منبوذ، دخيل. . كان هذا أيضاً لا يقلّ بشاعة. . فمشيت قليلاً بخطوات نديّة، يتبعني ظلّي النحيل القاتم الزرقة متسللاً، وقد انفصل عن كتلة المنزل الضخمة الجاثمة. وكان الظلام مخيِّماً على هذا الجانب أيضاً الذي يحميه دغل كثيف من شجيرات الدردار، وأشجار أخرى أقدم منها، بحيث كان من المحال الوصول إلى أية نافذة، حتى ولو كانت غير

موصدة. وأخذت أقدِّر - بالنظر إلى مدى نمو هذه النباتات المُهْمَلة - الزمن الذي مضى منذ أن عشت في الشمال آخر مرة: فلا بدّ أن يكون ذلك الزمن ستة أعوام.

كان من الحماقة، بل غاية في الحماقة، أن أعود. فقد كان من واجبي أن أعود مبكراً عندما كانت مريضة، مبكراً حينما كانت في حاجة إليّ، وعندما كتبتُ رسائل لم أكن أتحمّل قراءتها من الغيظ والشعور بالذنب.. رسائل لا تردّد إلا هذه الكلمة: تعالَ، تعالَ، تعالَ. كانت العودة حينذاك ذات معنى في ضوء التقدير المنزَّه الأخير الذي أحمله لها: فهي أمي أولاً وقبل كل شيء. أما أن أعود الآن بعد أن طواها الموت، أعود لمجرّد دفنها، والمثول أمام حضورها الراحل مع أنصاف الغرباء هؤلاء، أخي، وزوجته.. فقد كان هذا أمراً يخلو من كل معنى، وضرباً من معاقبة الذات.

عدت أدراجي عِبْر المَرْجة المخضرّة، مقتفياً آثار خطوي التي انطبعت على الندى. وكان القمر الذي غشيه السحاب ينشر عبر السماء طرفاً مضيئاً شفّافاً من أطرافه، أراني أطياف الأشجار الشاهقة التي تحيط بالمنزل. وكانت هذه الرقعة من السماء ماتزال أفضل ما أعرفه من العالم حق المعرفة. وداهمني إحساس - لم يستغرق سوى لحظة - بأن أرحل، بأن أحاول فتح الباب مرة أخرى، ثم أرحل، كالمسافر الغامض في القصيدة التي تقول: «أَنْبئهم بأنني أتيتُ، ولم يُجِبْني أحد». ونظرت مرة أخرى إلى أشكال الأشجار المألوفة، فارتعشت من هذا الاقتراب المباغت من طفولتي. كانت هذه هي روائح يونيه القديمة، روائح ليالي منتصف الصيف الرطيبة، وخرير النهر، وهدير الشلال البعيد. وأطلقت بومة نعيبها، وئيداً، متعمداً، فتداخلت حلقات الصوت إحداها في الأخرى وهي تنتشر عبر الفضاء. هذا أيضاً تذكّرته.

وجعلتني فكرة أن أرحل وأتركهم جميعاً نائمين هناك ـ جعلتني هذه الفكرة أتوقف منتشياً. ثمة شيء من الانتقام في هذه الفعلة. وهذا معناه أن أفارقهم إلى الأبد، إذ كنت على يقين أنني لو رحلت الآن، فلن أعود أبداً. وبكل تأكيد، ومهما حدث، فلن أعود بعد هذه المرة إطلاقاً. كان وجود أمي هنا هو سبب عدم مجيئي. والآن، يمكن أن يكون عدم وجودها سبباً أقوى.

ولا بد أنني توقّفت طويلاً في مكاني مستغرقاً في خواطري الحزينة، عندما لمحت ما بدا للحظة منحوسة أشبه بانعكاس لي. وأدركت الآن، أنني قد صوّرتُ نفسي في صورة معتمة على تلك الرقعة الفضية بحيث أنني عندما رأيت تلك الصورة الأخرى، تنبثق أمامي في الضوء الخافت ـ حسبت أنها لا يمكن أن تكون شخصاً آخر سواي. واعترتني رعدة أولاً بتأثير هذا الحدس المنحوس، ثم في اللحظة التالية بسبب إثارة عصبية أكثر اعتياداً لوجود هذا الدخيل الليلي الثاني. وأدركت على الفور من الشكل الإجمالي لهذا الشخص أنه ليس شقيقي أوتو. ذلك أن أوتو وأنا، كلانا ضخم الجثة، وإن يكن أوتو أضخم. أما الشخص الذي كان يتقدم نحوي الآن متباطئاً، فكان ضئيلاً نحيلاً.

ومع أنني لم أكن جباناً بوجه خاص، فإنني كنت أخاف دائماً من الظلمة، ومن الأشياء التي تحدث في الظلام: وكانت الإضاءة في هذه الليلة أسوأ من الظلام. وكان شعوري بأنني أخيف أيضاً الشخص الآخر، يجعلني أشد انزعاجاً. وفي صمت رهيب، تحركت متمهلاً نحوه حتى تقاربنا بحيث يلتقط كل منا وميضاً في عينيْ الآخر.

قال صوت ناعم، «آه ـ لا بد أنك الأخ».

ـ «أجل. من أنت؟».

ـ «أنا الصبيّ الذي يساعد أخاك، واسمي ديفيد ليفكين.. لقد

أخفتني لحظة. أتُراهم أغلقوا الباب دونك؟».

ـ «أجل». وكرهت أن أقول له هذا، وفجأة، ملأني عشقي القديم للمكان، وانتمائي القديم إليه ـ ملأني بالألم. أُغْلق المكان دوني.. وكان هذا شيئاً بشعاً!

ـ «لا تقلق. سأدخلك إلى المنزل، فقد أخلد الجميع إلى النوم».

واجتاز المرجة الخضراء حتى بلغ ظل البيت، وتبعتُه. كان ضوء القمر يسّاقط في خطوط من خلال شبكة الأغصان النامية على الشرفة، تشدّها إلى أسفل الأزهار العامرة بالرحيق، وتكشف عن اليد التي تتلمّس طريقها، وعن المفتاح. ولم يلبث الباب أن انفتح في رفق ليُبْدي السواد الكثيف المنتظر الذي يقبع في المنزل. وسرت في أثر الصبي مبتعداً عن أريج الأزهار، وداخلا في عتمة القاعة العتيقة، الفاسدة الهواء، الثعلبية اللون. وأَغْلق الباب، وأدار زر الكهرباء، فأخذ كل منا ينظر إلى الآخر.

وتذكرت الآن أن إيزابيل زوجة أخي، وكانت هي التي تزودني بأنباء الأسرة ـ قد كتبت إليّ منذ فترة مضت عن صبيٍّ مساعد جديد. وكان صبيان أوتو يتمخّضون دائماً عن حكايات حزينة، وسبباً لفضائح تعانيها أمي دائماً. إذ كان «أوتو» يجتذب إليه، في عناية لا تخطىء، سلسلةً مرموقة من الأحداث المنحرفين، كل واحد فيها أسوأ من سابقه. وتفحّصتُ الصبي، ولكنني لم أستطع أن أتذكر في هذه اللحظة شيئاً مما قالته إيزابيل عنه. كان يبدو في العشرين من عمره. ولم تكن سمنته سمنة شخص إنجليزي. وكان نحيفاً طويل العنق، وله شفتان بارزتان مكتنزتان، وأما شعره فكان كثيفاً مسترسلاً ضارباً إلى اللون البني. وكان أنفه عريضاً ذا منخرين واسعين مستريبين، وكان يحدّق إليّ الآن بعينين ضيّقتين في شك شديد، وقد انفرجت شفتاه. ولم يلبث

أن ابتسم، فلما كادت عيناه تختفيان تقريباً، انبسطت وجنتاه كأنهما إكليلان عظيمان للترحيب. «إذن فقد أتيت».

كان من الممكن أن تكون النبرة غير مرتبطة بما يقول أو غريبة عنه: فما كنت أستطيع أن أتبيّن وجهه كما ينبغي. ذلك أن أمي ـ التي كانت شحيحة إلى أبعد حد فيما يتعلق بالنقود ـ قد ألحّت دائماً على استخدام أضعف ما يمكن من اللمبات الكهربائية، ومن ثمّ لم يكن من الممكن أن يبصر المرء في الداخل أكثر مما يتيحه ضوء القمر. وكانت العتمة واهنة، متسخة، سقيمة. وأردت أن أتخلص منه، فقلت: «أشكرك. ولعلي أستطيع الآن العناية بأمري».

ـ «أنا لا أنام في المنزل»، قال هذه العبارة في رزانة، وفي نبرة أجنبية واضحة هذه المرة. «وهل ستعرف أين تذهب؟».

ـ «أجل، شكراً لك. وأنا أستطيع دائماً إيقاظ أخي».

ـ «إنه لا ينام هو أيضاً في المنزل الآن».

وأحسست بأنني لا أستطيع أن أناقش هذه المسألة، وفجأة هبط عليّ الشعور بأنني مرهق تماماً، وبأنني قد أسيء استخدامي. «فليكن.. نعمت مساءً، وشكراً على أنك أدخلتني».

ـ «نعمت مساء». وغادر المكان، وسرعان ما تلاشى في الضوء الأصفر الشاحب المبهم، وأُغلق الباب. فاستدرت وشرعت في صعود درجات السلم متباطئاً حاملاً حقيبتي.

وعند قمة السلم توقفت عندما بدا لي أن نظام المنزل المألوف ينفذ إلى جسمي على نحو مغناطيسي: هذه حجرة أوتو، وهذه حجرتي، وتلك حجرة أبي، وحجرة أمي. والتفتّ صوب حجرتي، مفترضاً أن سريراً قد هيىء من أجلي؛ ثم توقّفت. لم أكن قد تصوّرت بعدُ تصوراً

حقيقياً أنها ماتت. وتواردت على خاطري الرحلات والأزمنة، وإحراق الجثة الذي سيتم غداً، وطبيعة الاحتفال، وفكّرت في أوتو، وحتى في أملاكنا، ولكنني لم أفكر فيها. كانت أفكاري ومشاعري عنها تنتمي إلى بُعْد آخر من أبعاد الزمان، تنتمي إلى قبل ما يمكن أن يكون قد حدث لها في الساعات الأربع والعشرين أو الست والثلاثين الماضية. وغمرني الآن الإحساس بفنائها، فأصبح من المحتم أن أدخل غرفتها.

وكشف الضوء الكهربائي المعتم عن منبسط الدرج الكبير، وعن الخزانة المصنوعة من البلوط، وعن نبات السرخس الذي لم يكن ينمو أبداً، ولكنه لم يكن يموت قط، والسجادة الشيرازية الأنيقة التي تهرأت خيوطها تماماً، واللوحة التي يمكن أن تكون من أعمال «كونستيبل»(*) Constable، ولكنها لم تكن، والتي ابتاعها أبي في مزاد بثمن لم تغفره له أمي أبداً: والأبواب الصامتة المغلقة على الحجرات. وقبل أن يصيبني إغماء حقيقي من جراء هذا الشعور العليل، توجّهت صوب باب حجرة أمي، وفتحته مسرعاً، وأضأت النور من الداخل.

لم أكن أتوقع أن أرى وجهها دون غطاء. فأغلقت الباب خلفي، واستندت بظهري إليه، وقلبي يخفق خفقاناً عنيفاً. كانت ترقد، مرفوعة عالياً إلى حدّ ما على الوسائد. وكانت عيناها مغمضتين، وشعرها مُرْسَلاً. لم يكن من الممكن أن يحسبها المرء نائمة، وإن يكن من العسير أن يقول كيف كان ذلك بيّناً. كان محياها أبيض ضارباً إلى الاصفرار، وقد ضاق وانقبض عن الحياة، فتضاءل حجمه. غير أن شعرها الطويل الذي كان برونزياً ذات يوم، أصبح الآن بنّياً قاتمًا وَخَطَه

(*) جون كونستيبل (١٧٧٦ - ١٨٣٧) يعد هو وترنرTurner من أعظم رسامي المناظر الطبيعية الإنجليز في القرن التاسع عشر (المترجم).

الشيب، وإن لم تفارقه الحيوية، وكأنما لم تكن الأنباء الرهيبة قد بلغته بعد. بل بدا أنه تحرّك قليلاً عند دخولي، وربما كان ذلك من تيار خفيف تسلّل من الباب. وكان يغشى وجهها الميت تعبير أعرفه على هذا الوجه أثناء حياته: نوع من التعبير الذي يشوبه جنون رقيق، كالتعبير المرتسم على وجه القديس أنطوني كما رسمه جرونڤالد(*) Grüneuvald، نظرة يمتزج فيها الجنون المبتهج والعذاب.

كانت أمي تسمى ليديا، وكانت تصرّ دائماً على تسميتها بهذا الاسم. ولم يكن أبي راضياً عن هذا، ولكنه آثر ألا يغضبها في هذه المسألة، أو في غيرها من المسائل، بكل تأكيد. وكانت عواطف أمي قد انصرفت في وقت مبكر عن زوجها، وتركزت في عنف وحشي على أبنائها بحيث اشتبكت معهم في سلسلة من الغراميات، أخذت تنقل مركز عواطفها بيننا جيئة وذهاباً: ومن ثم أمضينا طفولتنا في نوبات متعاقبة تتأرجح بين الغيرة والاختناق. وفي ذكرياتي الأولى أنها كانت تحب أوتو الذي يكبرني بعامين. وعندما بلغت السادسة شُغفت بي حباً، ومرة ثانية عندما أصبحت في العاشرة، ومرة ثالثة في أعوامي المدرسية الأخيرة؛ ولعلها أحبتني فيما بعد أيضاً، وكان حبها أعنف ما يكون حينما أحسَّت بأنني أَفْلَتُّ من قبضتها. ولم تتحول عني إلا بعد أن أصبح من الواضح لها أخيراً أنني نجحت في الافلات، وأنني لُذت بالفرار ولن أرجع أبداً - عندئذ صرفت عواطفها عني إلى حبِّها الأخير، إلى حفيدتها فلورا، الابنة الوحيدة لأوتو وإيزابيل. وكانت تردّد في كثير من الأحيان أن أحداً سواها لا يستطيع أن يتحكم في الفتاة الصغيرة. وكان ذلك حقاً؛ وحرصت ليديا على أن يكون ذلك حقًّا.

(*) مصور ألماني (١٤٨٠ - ١٥٢٨) معاصر لدورر Durer ومن أشهر أعماله محراب كنيسة وايزنهايم الذي انتهى من تشييده عام ١٥١٥. (المترجم).

كانت امرأة ضئيلة الحجم. وكانت وهي في مدرسة الفن تزهو بابنيها العملاقين الموهوبيْن. وأستطيع أن أتذكّر كيف كانت تسير بيننا، ناظرة إلى كل منا بدوره نظرةً فخوراً متملكة، على حين كنا ننظر أمامنا متظاهريْن بأننا لا نلحظ شيئاً. وكانت، على نحو ما ـ روحاً عظيمة؛ هذه القوة كلها كان من الممكن ـ بشيء من التوجّه السليم ـ أن تقوم بتنظيم امبراطورية ذات شأن. ولم يكن فيها من الفنان شيء. ومع هذا كله كانت امرأة خجولاً، مقتنعة بعداوة العالم، عاجزة عن عبور قاعة الاستقبال في فندق دون الاعتقاد بأن كل من فيها يتفرسون فيها ويتهامسون بخبث عنها.

ولم تصمد إيزابيل طويلاً في المعركة. ففقدت أوتو على الفور تقريباً، وانطوت على نفسها في نوع من الترفّع الساخر الحزين. وربما كان آخر حديث جادّ دار بيني وبين أخي ـ ومضت عليه الآن سنوات طوال ـ قد وقع حين توسّلت إليه، بمناسبة زواجه ـ أن يبتعد عن ليديا. وإني لأتذكر النظرة المشلولة التي ردّ بها عليّ قائلاً: إن هذا محال. ولم يمض على ذلك وقت طويل، حتى رحلتُ أنا نفسي. ولعل ما شاهدته من قسوة ليديا تجاه إيزابيل هو ما أسقمني في نهاية الأمر وجعلني أشعر أخيراً نحو أمي بذلك البغض الايجابي الذي كان ضرورة لهربي. ومع ذلك فإن ليديا لم تحطم إيزابيل أبداً: فقد كانت إيزابيل قوية أيضاً بطريقتها الخاصة؛ إنسانة محطَّمة أخرى، ولكنها قوية.

وكان من أبعد الأمور عن التصديق أن تزول كل هذه القوة، وأن تتوقّف هذه الآلة عن العمل. وكان أبي قد رحل عنا دون أن يتأثر برحيله أحدٌ تقريباً، إذ كنا نعتقد في موته قبل أن يحين أجله بوقت طويل. ومع ذلك لم يكن أبي نكرة مغموراً. وعندما كان الشاب الشهير جون ناراواي، ناراواي الاشتراكي، والمفكر الحر، والفنان،

وصاحب الصنعة، والقديس، وداعية الحياة البسيطة، والمخلِّص من الكدح، عندما كان هذا كله، فلا بد أنه أثّر على أمي، ولا بد أنه كان بكل تأكيد شخصاً مؤثراً، شخصاً موهوباً، وربما كان شخصاً رائعاً. ومع ذلك، فإن ذكرياتي المبكرة لم تكن عن والدي، بل عن أمي التي قالت لنا ذات يوم: إن أباكما ليس رجلاً صالحاً، إنه مجرد رجل خجول، ذي أذواق لا دنيوية. فأحسسنا نحوه بازدراء خفيف انقلب فيما بعد إلى نوع من الشفقة. ولا أظن أنه ضربنا مطلقاً. وكانت ليديا هي التي فعلت ذلك. والواقع أننا لم نرث منه سوى مواهبه، بقَدْر معين، فقد كان نحاتاً ورساماً، وحفاراً على الخشب، وبنّاء بالحجر. وخَلَف من بعده رجلان أقل منه: أوتو بنّاء الحجارة، وأنا، إدموند، حفّار الخشب.

ونظرتُ إلى ما رقد أمامي في فزع لم يكن حباً أو شفقة أو حزناً، وإنما كان أشبه بالخوف. وبالطبع لم أكن قد أفْلَتُّ حقاً من قبضة ليديا. ذلك أن ليديا كانت في داخلي، في أعماق وجودي، ولم تكن ثمة هوة أو ظلمة تخلو منها. كانت هي ازدرائي لنفسي. فإذا قلت إنني كرهتها لهذا السبب كان قولي ذاك رقيقاً إلى أبعد حد: ولن يفهمني إلا أولئك الذين عانوا ذلك النوع من الامتلاك بواسطة شخص آخر. والآن، فإن الفكرة المشؤومة بأنني أعيش بعدها لا تزيد من وجودي شيئاً، وإنما شعرت في حضرتها بأنني مبتور الأوصال، فانٍ، وكأن قوتها ـ التي يمكن أن تمارسها «من هناك» ـ يمكن أن تحطمني حتى الآن. وتأملت مفتوناً شعرها الحي الذي مازال مصقولاً، ومحياها الأبيض، الذي تقلص فعلاً. وعندما هممت بمغادرة الحجرة، أطفأت النور، فبدا لي من أغرب الأمور أن أتركها هناك في الظلام.

وتحركتُ برفق عبر البسطة متجهاً إلى باب حجرتي. وكان صرير المنزل حولي أشبه بنوع من التعرف عليّ، وكأنه تحية خرساء يقدّمها منزل شبحي أشبه بكلب بدائي. واستبعدت الآن فكرة إيقاظ أوتو.

وكانت الأبواب الموصدة تتنفّس خدر الرقاد؛ وكنت أتلهف على النوم أنا نفسي وكأنما لأخفف بالسبات الذي يشبه الموت روحي الحانقة المنهزمة. ولما بلغت باب حجرتي، فتحته على مصراعيه، ثم تسمّرت في خطاي. إذ سطع القمر بوضوح على سريري، فكشف عن شكل فتاة ذات شعر طويل لامع.

ومرّت لحظة خيّل إليّ فيها أن ما أراه نوع من الهلوسة، شيء أجوف، يفتقر إلى الادراك الواضح، ضرب من الاستحضار يقوم به ذهن مكدود خائف. غير أن الشكل أخذ يتحرّك حركة خفيفة، ثم تقلّب في الفراش، بحيث انسدل الشعر اللامع على كتف شبه عارية. فرجعت على عقبيّ وأغلقت الباب في صدمة الفزع المُذْنب. كان هذا سحراً للاستبعاد أقوى مما تتحمّله نفسي. وفي اللحظة التالية، كنت أتخبط هابطاً على درجات السلم، أشبه بروح شريرة تلوذ بالفرار.

ونطق باسمي صوت نسوي ناعم. فتوقّفت الآن ونظرت إلى أعلى الدرج. وهناك كان وجه ينظر إليّ من فوق أعمدة الدرابزين، وجه تعرّفت عليه جزئياً في غير وضوح. ثم أدركت أنه لم يكن سوى وجه مربّيتي القديمة، الفتاة الإيطالية. فقد كانت لدينا في البيت منذ أن كنا أطفالاً صغاراً، مجموعة من الخادمات ـ من المربّيات الايطاليات؛ وسواء أكانت إحداهن تقود إلى الأخرى، أم كانت هذه إحدى مواطن الضعف في أمي، فإنني لا أتذكر أنني اكتشفت السبب. وبمرور الزمن، أصبحت هذه الوظيفة تقليدية على نحو ما، بحيث كان لي دائماً والدتان: أمي الأصلية، والفتاة الإيطالية. وحين نظرت الآن إلى الوجه الذي تذكّرته، أحسست بنوع من الدوار الوقتي، ولم أستطع أن أحدّد أيهنّ كانت هذه، على حين عبرت في ذهني واختلطت ـ كأنما كنتُ في حلم ـ الكارلوتات والجِبلياتات والجماتات،

والفيتورياتات . . وفجأة نطقت باسمها «ماجي» .

كان اسمها ماريا ماچيسترتي ، ولكننا كنا ندعوها دائماً «ماجي» . وارتقيت درجات السلم مرة أخرى .

ـ «أشكرك يا ماجي . أجل ، عرفت . بالطبع ، تنام فلورا في حجرتي . فهل وضعتني في حجرة أبي القديمة؟ أجل ، هذا أحسن» .

وبينا كنت أهمس ، فتحت باب حجرة أبي ، فمضيت في إثرها إلى داخل الغرفة ذات الضوء الخافت .

لم أكن أعرف أبداً أنها ترتدي شيئاً آخر سوى السواد . وقد وَقَفَتْ هناك الآن ، امرأة ضئيلة الجسم قاتمة ، تشير صوب السرير الضيّق ، وكعكة شعرها الأسود الطويل تتجرجر أسفل ظهرها كضفيرة مصنوعة من الشمع . وكانت تبدو بوجهها الشاحب المحدد كالإطار ، وفي هذا الجو الكئيب ، أشبه براهبة مصاحبة : فلا يسع المرء إلا أن يتوقع سماع صليل حبات المسبحة وترتيل «وداعاً يا ماريا» . وكانت تبدو بلا عُمْر ، منهوكة القوى : آخر الفتيات الايطاليات ، وقد أصبحت الآن مقطوعة من شجرة بعد أن كبرت مهمتاها (أنا وإدموند) . فلا بد أنها كانت ، حين دخلت في خدمتنا ـ أكبر قليلاً من الولدين اللذين كان عليها أن ترعاهما ؛ وبلعبة من ألاعيب القدر لم تبرح ذلك البيت الشمالي منذ أن حلّت فيه . وكان أوتو يزعم أنه يتذكر «ماجي» وهي تدفعه أمامها في عربة الأطفال ، غير أن هذه كانت بالتأكيد من ذكرياته الزائفة : فلا بد أن كارلوتا أو ڤيتوريا سابقة قد اختلطت بصورتها ؛ ذلك أن أولئك الفتيات الايطاليات جميعاً قد اختلطن واندمجن في أذهاننا حتى بدا لنا وكأنما لم يكن هناك دائماً سوى فتاة إيطالية واحدة .

ـ «زجاجة ماء دافيء في الفراش؟ ما أشد عطفك يا ماجي! كلا ،

لست في حاجة إلى وجبة، فقد تناولت طعامي، أشكرك. يكفيني السرير. موعدنا في الساعة الحادية عشرة غداً، أليس كذلك؟ شكراً، وطابت ليلتك». ومع هذه العبارات، أقبلت إليّ نسمة مطمئنة قديمة من نسمات الطفولة: السرير الدافىء، والوجبات الفورية، والملاءات النظيفة: بهذه الأشياء زوّدتني الفتاة الايطالية.

وقفت وحدي في الغرفة الجميلة الذابلة. وكان غطاء السرير ذو الألوان المتعددة مقلوباً من أجلي. ونظرت حولي فرأيت مجموعة من صور أبي معلقة في الحجرة، وكانت ليديا قد وضعتها هنا، بعد أن جمعتها ـ عقب وفاته ـ من أماكن أخرى في المنزل، لتجعل من هذا المكان نوعاً من المتحف، أو الضريح.. وكأنما حصرته في نهاية المطاف في حيِّز ضيق. وتأملت لوحات الألوان المائية الباهتة التي كانت تبدو فيما مضى مساوية للوحات كوتمان(*)، وتطلعت إلى اللوحات المحفورة على الخشب التي كانت تبدو معادلة للوحات بوويك(**)؛ ومن هذه اللوحات جميعاً صدر إحساس خاص محدود بالماضي. وبدت في نظري ـ لأول مرة ـ عتيقة، بالية، ماسخة. وهنا، أحسست بغيابه في تعاطف سريع، وبحضوره كشبح حزين عاتب: وخيِّل إليّ فجأة وكأنما هو الذي مات توًّا.

(*) John Sell Cotman (١٧٨٢ ـ ١٨٤٢) مصور إنجليزي له لوحات بالألوان المائية والزيت، وكان واحداً من أعظم رسامي المناظر الطبيعية في أوائل القرن التاسع عشر (المترجم).

(**) Tomas Beurick (١٧٥٣ ـ ١٨٢٨) يعد أبا الحفر الحديث على الخشب في انجلترا (المترجم).

٢ ـ أوتو يضحك

انبعثت الموسيقى من الأجهزة الستريوفونية، ناعمة، عذبة، آلية، خالية من الإحساس. وكنا ننتظر مجيء التابوت، إذ لم يكن من المتّفق عليه أداء الطقوس الدينية؛ وإنما لحظات قلائل من الخشوع في حضرة الراحلة، وهذا ما استنتجته، فقد كانت ليديا ملحدة، مقتنعة بإلحادها، ولعل هذا هو التأثير الوحيد الذي تركه أبي عليها.

ولم أكن قد رأيت الأسرة تقريباً خلال الصباح، إذ حملت إليّ «ماجي» طعام الإفطار، ثم تبادلت مع أوتو وإيزابيل ونحن نستقل السيارات ـ تحيات يشوبها الارتباك.

أخذتُ الآن أتأمل ابنة أخي، وكانت تجلس أمامي قليلاً على الجانب الآخر، وبدهشة كان لتجربة الليلة الماضية نصيب فيها ـ كنت أتلذذ بتأملها. لم أكن قد رأيت «فلورا» منذ ثمانية أعوام، إذ لم تكن موجودة في البيت عند زيارتي الأخيرة. فإذا تذكرتها، تذكرت جنّية صغيرة مثيرة، وقحة، وإن عاملتني دائماً بلطف لامتناه، وبرشاقة تلقائية حارّة كان مجرّد ما فيها من المُبَاشرة أشبه بالمعجزة. فلم تكن تأبه بالحواجز المعقدة التي أحطت بها نفسي، ومن ثمّ، كانت تحبني حباً طبيعياً، لامبالياً، لمجرد أنني عمها، وتتقبّلني قبولاً تاماً. ولعلّها

كانت الشخص الوحيد في العالم الذي يفعل ذلك. فهي كطفلة كانت تمتلك بصورة رائعة تلك الصفة المنفتحة البسيطة التي تجعل الكبار يخجلون على نحو غريب أمام الأطفال، خجلاً هو أيضاً نوع من المتعة. وكان أوتو يقول إنني أجعل من فلورا «شيئاً مثالياً»؛ بيد أنه كان من الحق أنني ربما أتيت إلى المنزل في كثير من الأحيان من أجلها، وإن لم يكن ذلك بسبب ليديا.

ولكنها الآن، وإن لم تنضج تماماً، فإنها لم تعد بالتأكيد فتاة صغيرة. وحدّثت نفسي بأنها لا بد أن تكون في السادسة عشرة، وربما في السابعة عشرة. وأياً كان الأمر، فقد تجاوزت الأربعين أنا نفسي. وهي الآن جميلة. وكان لها، وهي طفلة، تعبير جذّاب مشرق، وعذوبة الحيوان الصغير. وها هي الآن أمامي فتاة حسناء مؤثرة، ذات شعر طويل ضارب إلى الحمرة، مصفوف بعناية، ووجه شاحب حالم يشعّ منه ذلك الإشراق البريء الذي كنت أتذكّره وكأنه غشاوة رقيقة تكسو ملامح أكثر ثباتاً لشخص ناضج. وكان محياها يتسم بتلك النظرة الشفافة النقيّة التي نلحظها فجأة على وجوه الفتيات الصغيرات بعد أن يجتزن مرحلة الطفولة. وكانت ترتدي قميصاً فضفاضاً طويلاً مخططاً، وسترة سوداء مُحْكمة، وقبعة كبيرة أرجوانية قاتمة عريضة الحافة تميل إلى الوراء بحيث تغطي شطراً من رأسها. ولم تكن تشبه أمها، ولكنها كانت تتميز بشيء من تلك الرشاقة الغجرية التي اتصفت بها ليديا في شبابها.

وكانت إيزابيل تبدو إلى جوارها ـ كئيبة مهمومة. لقد تغيرت هي أيضاً، وظهرت آثار العمر على وجهها فأصبح أشد اصفراراً أو أشد رمادية وكأنما ضغطت عليه غلالة رقيقة من التجهم والقلق. غير أن كتلة شعرها البنيّ المتشابك كانت لامعة ثابتة اللون. وكانت أنيقة، هادئة

في ملبسها، بحيث يمكن أن يحسبها المرء امرأة ذكية من صاحبات الأعمال، على حين كان من الممكن أن يكون وجهها وجه ممثلة متقاعدة. فلها وجه من الطراز القديم بمعنى من المعاني، وجه مستدير، حزين نوعاً ما، واسع العينين، صغير الفم أشبه بالوجوه التي يمكن أن تطلّ على المرء بابتسامة متكلفة في أحد صالونات فرنسا في أواخر القرن الماضي. وكان هذا المظهر يمتزج على نحو مثير بصوتها الاسكتلندي الدقيق نوعاً ما: فقد كانت إيزابيل تنحدر من أقصى الشمال، من شمال الحدود. وفي هذه اللحظة فطنت إلى نظرتي إليها، فابتسمت نصف ابتسامة. وكانت لها ابتسامة فاتنة، هذا الشعاع المباشر الذي يصل بين كائن بشري وآخر. وكنتُ أميل إلى إيزابيل، وإن لم أكن أعرفها حق المعرفة، وكثيراً ما كنت أتعجب كيف واصلت الحياة في ذلك المنزل الكئيب الذي اعتقد أنها كانت فيه أبعد ما تكون عن السعادة. كانت هناك فلورا، بالطبع. وهناك ـ على ما افترض ـ أسباب كثيرة قوية تدعو النساء الشقيّات دائماً إلى احتمال الشيطان الذي يعرفنه بدلاً من البحث عن شيطان آخر.

أما أوتو، فلم أكن أستطيع رؤيته، إذ كان يجلس ورائي في مكان ما مع ليفكين. وبذلك اكتملت جماعتنا، باستثناء ماجي، طبعاً. ولم تكن لليديا في الأعوام الأخيرة سوى صديقات قلائل. ولم أكن قد تحدثت تقريباً مع أوتو في السيارة، فعقدت عزمي الآن على أن أتحدّث معه حديثاً عملياً سريعاً قبل موعد الغداء. إذ لم يكن ثمة سبب يدعوني إلى عدم الرحيل فوراً بعد الظهر. لا شيء يمسكني. وأنا لم أستمتع في الماضي بمشاهدة حطام زواج أخي، ولا أظن أنني سأستمتع به الآن. ومع أنني كنت مرتبطاً بأوتو بروابط متينة أفظع من روابط الحب، إلا أننا لم نكن في التقاءاتنا النادرة نجد ما يقوله أحدنا للآخر. وكان أهم ما أريد اكتشافه الآن هو: هل تركت لي ليديا ـ وكانت الوارثة الوحيدة

لأبي ـ شيئاً في وصيتها؟ فلم يكن هذا محتملاً، إذ أصبحت علاقتنا بعد فضيحة رحيلي ـ باردة، متوتّرة، واهنة. واستخلصت من إيزابيل أن اسمي لم يكن يُذْكر إطلاقاً. ومع ذلك، كان من الممكن أن تترك لي شيئاً، وكنت في حاجة إلى ذلك بكل تأكيد.

كنت أحيا حياة غايةً في البساطة والوحدة، ولكنني اكتسبت أيضاً ـ من جهة أخرى ـ قليلاً جداً من المال. وقد يكون فنّ حفّار الخشب عميقاً، ولكنه ضيّق. وكنت أقضي أيامي قانعاً بحروف الأبجدية الرومانية الستة والعشرين التي علمني أبي أن أعشقها، فكنت أمزج أشكالها القوية الثابتة بتخيّلات ضارية من الزخرفة لإنتاج كل شيء من لوحات الكتب إلى العلامات التجارية والأوراق المالية وكوبونات الصابون. وكان أبي يغضب من أية زخرفة تصيب الحرف نفسه الذي كان يقارن أُلْفته الكلاسيكية بالوجه الإنساني، وهكذا كنت أُعَدُّ من حيث التزامي بشكل الحروف، طهوريًا وكنت أقوم من حين إلى آخر بوضع رسوم للكتب، ومن قبيل متعتي الخاصة، كنت أنقل مع أسماء بوويك وكالڤرت التي أردّدها على شفتيّ بكل إجلال ـ كثيراً من المناظر والأشخاص والأشياء التي شاهدتها أو تخيّلتها على السطح الضيق الثمين للكتلة الخشبية. غير أنني لم أصبح قط حفاراً بارزاً أو ذائع الصيت، فأكون بهذا المعنى أو ذلك مُعْتَرَفاً به. لم أكن طموحاً؛ وما من وجه نمطي كان يحمل اسمي. وربما كنت أفتقر ـ ببساطة ـ إلى الموهبة. وكنت قليل الرغبة في استطلاع التقدير الحقيقي لمزاياي، ولا رغبة لي على الاطلاق في معرفة مكانتي اللهم إلا من حيث تأثيرها على مكسبي من المال. ويكفيني من السعادة أن أعد نفسي رجل صنعة، وأن أتسكّع في القسم الخلفي من إحدى المطابع؛ بيد أن عشقي للحرية جعلني أعكف على منضدتي الخاصّة. ولم أكن ممن يتطلعون إلى الكماليات، وهي شيء لم أملكه قط، ولكنني لا أمجّد الفقر لذاته،

وأمقت مهاناته ومتاعبه. لقد عشت حياةً وحيدة. ولم تكن على هذا النحو دائماً؛ غير أن علاقاتي بالنساء كانت تسير دائماً على نموذج فاجع، ومألوف في نهاية المطاف. ولست بحاجة إلى محلّل نفساني ليخبرني عن السبب؛ كما لم يخطر على بالي أن ألجأ إلى معونة أحد من محضِّري الأرواح المحدثين. وإنما آثرت أن أعاني ما أنا عليه.

كان هناك صوت حركة، أشياء تُنْقل من أماكنها، وقع أقدام ثقيلة. وعندما نهضنا جميعاً، التفتُّ نصف التفاتة لأرى التابوت الصغير قادماً، وبغتة بدا الأمر محزناً: أن يكون عدد الرجال المأجورين الذين يحملون النعش بهذا اليسر مساوياً لعدد المعزِّين الحقيقيين. وأصابتني رعدة، فأغمضت عيني عندما مرّوا بي، ونظرت ثانية لأرى النعش مستقراً على شيء يشبه خشبة المسرح أمام ستار من المخمل الأزرق. وتوقّفت الموسيقى، ولكنها استمرّت في رأسي، فجعلت من السكون شيئاً لا معنى له. وشخصت ببصري إلى النعش باحثاً عن المشاعر، ولكنني لم أشعر إلا بشيء من البرودة، البرودة الشديدة. وكان الموقف وكأنما كانت تنتظرنا للمرة الأخيرة، وكأن هذه الروح المتحكمة دائماً اعتلت المنصّة، وكنا جميعاً ماثلين أمامها، فريقاً مرتبكاً، جديراً بالرثاء، قليل الفهم، مذنباً، كما كنا دائماً. وربما كان الدفن وفقاً للطقوس المسيحية بصوره القديمة وعواطفه كفيلاً ـ على الأقل ـ بتغطية هذه اللحظة الغفل الخالية من المعنى، وبأن يضفي على هذه الهشاشة المتشاكية هيبة الوفاة العامة وحزنها. فإلى هذا المصير سننتهي جميعاً. وتمنيت ـ وربما لم يكن ذلك للمرة الأولى، لو أنني نشأت على أن أكون مسيحياً. إذ لم تكن المسيحية داخل نفسي، رغم كل ما حاكيته منها في بعض الأحيان، وكنت أعرف أن خسارتي شنيعة. وهذا شيء آخر لم استطع أن أغتفره لوالديّ. وكبحت جماح غيظي القديم المعتاد بالكابح القديم المعتاد. وحملقت في الستار

المخملي الأزرق. واتصل الصمت برهة إثر برهة.

وفجأة، ارتفع ورائي تماماً، صوت عجيب. فشاهدت إيزابيل تلتفت في حدَة، فالتفتُ أنا أيضاً. كان حاملو النعش يقفون متخشّبين في صفّ إلى الخلف. وأمامهم كان يقف أخي بجسمه الضخم، وحين استدرت رأيته يترنّح منحنياً إلى الأمام، وواضعاً يده على فمه. فخيِّل إليّ لحظة أنه مريض أو أنه لا يستطيع قهر دموعه: ولكنني تبيّنت أنه كان يضحك. قهقهات وحشية تهزّ جِرْمه الهائل من رأسه إلى قدميه، وتحوَّلتْ - في محاولته لكتمانها - إلى قرقرات مدمدمة. ثم قال بصوت مسموع: «أوه.. يا إلهي!» وأصابته غُصَّة. وعندئذ تخلى عن كل محاولة للكتمان، وانطلق في نوبة من نوبات المرح الهائج، فبلّلت دموع الضحك وجنتيه الحمراوين. وانفجر ضاحكاً.. هادراً بالضحك، فرددت جنبات الكنيسة أصداء ضحكاته. وهنا، انتهى تواصلنا الأخير مع ليديا.

وتبعثر صفّ حاملي النعش في غير نظام. ودخلت إيزابيل إلى الجناح الجانبي للكنيسة، وكانت توجِّه كلاماً إليّ. فاستدرت صوب أوتو. غير أن ديفيد ليفْكين كان قد أمسك بذراعه محاولاً دفعه، على حين ظلّ أوتو يلهث ويدمدم - واتجه به نحو الباب. وحين غادرت مكاني لأتبعهما إلى الخارج، أبصرت فلورا - وراء إيزابيل - واقفة في ثبات تام، بل في حالة انتباه، وهي تحملق أمامها في خط مستقيم وكأن شيئاً لم يحدث.

وفي الخارج، كان أوتو يجلس الآن على درجات السلم الحجرية في ضوء الشمس مردداً: «يا إلَهي، يا إلَهي!»، وهو يمسح فمه بمنديل قذر. وكان يبدو أنه عاجز تماماً عن كبت ضحكه.. وربما توقف لحظة، وحلّق أمامه وقد ارتسم على وجهه تعبير مبتهج فَكِه، ولكنه لا

يلبث أن ينفجر مرة أخرى في قهقهة عالية، وكأنه لا يستطيع أن يتحمل الطبيعة الهزلية الرفيعة لأفكاره. «يا إلّهي!» وكانت الدموع تنهمر من عينيه انهماراً، واللعاب يسيل مزبداً فوق ذقنه. وكان ليڤكين قاعداً على درجة السلم التي تعلوه، وركبته قبالة كتف أوتو. وكان يربِّت عليه في حالة من الصبر والشرود. وحين دنوتُ من أخي شممت رائحة قوية من الكحول.

كان الإفراط في الخمر مما تشمئز له نفسي. وتذكرت الآن أن إيزابيل أنبأتني منذ مدة في إحدى رسائلها أن زوجها بدأ يدمن الشراب: وتذكرت كيف خطر لي حينذاك أن أوتو ـ وهو الإنسان الذي وهو في أحسن حالاته لا يتحكم في نفسه، والعنيف في بعض الأحيان، سيصبح سكِّيراً بشعاً. ونظرت إليه متقززاً.

وأخذ ليڤكين يردِّد لأوتو: «يا سيدي، يا سيدي، إهدأ، واثبت في مكانك»، ثم جعل يغنّي ويحتضنه ويهدىء من روعه. فتأملت الصبي في دهشة ونفور مماثل.

قلت: «دعنا نصحبه إلى السيارة»، وكنت أمقت المشاهد والدراما. ولحسن الحظ لم يكن حولنا أحد. وعلى بعد عشر ياردات كانت تقف السيارتان وخلفهما الأشجار الخضر في حديقة الذكرى تفرز صمغها وقد غشيها في الشمس النعاس. ولم تكن النسوة قد غادرن الكنيسة الصغيرة، والمرافقون الآخرون لا أرى منهم أحداً.

قلت لأوتو: «انهض».

وأمسك ليڤكين بإحدى ذراعيه وأمسكت أنا بالأخرى، وقام أوتو بيننا ككتلة خشبية عملاقة لفظها البحر. كان وجهه الآن هادئاً مشرقاً، وجعل يتجشأ ـ وقد أصابه الفواق ـ متأملاً على حين أخذنا نشقّ طريقنا

متعثّرين إلى السيارة. وفتح ليفكين الباب، وهوى أوتـو في السيارة. وكانت رائحته أشبه برائحة حانة عتيقة يفوح منهـا الشـراب الـرخيص والطباق. ولم أكن حريصـاً علـى المضـي في رؤية أخـي علـى هذه الحالة، وبدا من الأرحم بالنسبة إليه أيضاً اختصار التجربة. فقلت: «خذه بعيداً».

وتردّد ليفكين، ثم دخل إلى السيارة وبدأ في تشغيل محركها. وفي هذه اللحظة ظهرت النسوة الثلاث على درجات الكنيسة. وما أن عدت إليهن حتى لمحت وجه إيزابيل منحنياً عليّ بنظرة اعتذار واستعطاف. وكان في عينيهـا أيضـاً شيء يقـول: هذا الأمـر يحـدث في كثير من الأحيان، والأمور تسير على هذا المنوال، فلا تعبأ كثيراً بما جرى. أما فلورا فقد هرولت مسرعة وهي تخلع قبعتها، وقالت فجأة في جفاء دون أن يكون كلامهـا مَوجَّهاً إلى أحد بالذات: «سأذهب سائرة على قدميَّ إلى المنزل». وفي أثناء تراجعها، شاهدتها تنتزع الدبابيس من شعرها الأحمر، لتتركه ينسدل على كتفيها.

قالت إيزابيل متوسّلة: «تعال معنا يا إدموند».

وأحسست في تلك اللحظة أنني أريد التخلص منهـم كمـا يتخلص المرء من حشرات علقت بأكمامه. هذا الضحك الذي أطلقـه أوتـو، ورائحـة الكحـول التـي كانـت تفـوح منـه، تلك الرائحـة الكريهـة المقززة.. كل هذا بدا لي فجأة أنه يمثّل كل ما أمقته. لا كرامة، ولا بساطة في هذه الحياة التي يحيونها. وبعد ساعات قلائل، حمداً لله، أستطيع أن أفارقهم إلى الأبد. «كلا، شكراً. سأمكث هنا الآن. وليس المكان بعيداً بحيث تَشُقُّ عليّ العودة. لا تنتظروا».

وراقبـت رحيل السيارة الثـانية، ورجعـت متمهـلاً إلـى الكنيسـة الباردة. ودخلت. لم يكن المكان مظلماً داخل الكنيسة.. والنوافـذ

عادية مصنوعة من البلوط الفاتح، غير أن عينيَ كانتا مبهورتين بتأثير تغير الضوء، فلم تستطيعا التركيز. ثم رأيت بعد ذلك أن المكان خالٍ. لقد رحلت ليديا. ولا بد أن النعش انسحب من خلال الستائر، أو غاص متئداً في الأرض بعد أداء شعائر الإحراق المعتادة. كانت ليديا تحترق الآن في الفرن.

جلست، وحاولت أن أجمع ما تشتت من عقلي. حاولت أن أفكر فيها، أتذكر طيبتها ورقّتها، أتذكر كيف أحبّتني وتعذبت من أجلي. ولم تكن هذه اللحظة ملائمة للتفكير في ضعفها، أو تقدير ما أحدثته من دمار. أحكامي التافهة أَخْرستْها في حضرة أسرارها. أما الآن، فسأدرس «الإحسان»، كما كان ينبغي أن أفعل من قبل، كما كان ينبغي أن أفعل منذ البداية. وحاولت أن أشعر بشيء من الندم، بشيء من تأنيب الضمير اليقظ لإخفاقي كابنٍ، وكإنسان. ينبغي عليّ ألا أجزع من تقدير مدى هذا الفشل الذريع.

كانت هذه هي الأفكار التي حاولت استعراضها وأنا أنظر إلى الستار الأزرق الذي عبرت وراءه أمي التي أعززتها ذات يوم. غير أنني لم أستطع الصمود لهذه الأفكار. كان كلّ ما توارد على ذهني هو صورة فلورا. يا لها من فتنة طاغية تلك التي صارت إليها! وأخذت أسائل نفسي: يا تُرى كم تبلغ من العمر الآن؟

ايزابيل تزيد النار اشتعالا

قالت إيزابيل: «لم تُحْضر سيارتك؟»

- «بلى. فأنا أكره القيادة متجهاً إلى شمال البلاد».

- «أتريد شراباً؟ شيئاً من الويسكي؟».

وكان «جراموفون» إيزابيل الذي انخفض صوته حتى استحال همساً، تدور عليه مقطوعة لسيبليوس(*).

- «كلا، شكراً.. فأنا لا أشرب كثيراً». والواقع أنني لم أكن أشرب على الإطلاق، كل ما في الأمر أنني أعتقد دائماً أن من قلّة الذوق والعدوانية أن أعترف بذلك.

- «على خلاف أخيك العزيز!».

- «منذ متى كان هذا الإدمان على الشراب؟».

- «منذ مدة طويلة جداً، ولكن بالذات منذ أن اشتدّ المرض على ليديا. وكانت ليديا هي الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يكبح جماح أوتو. أشكرك يا ماجي، هذا يكفي. ضعي الشطائر على المائدة».

(*) جان سيبيليوس (١٨٦٥ - ١٩٥٧) موسيقي فنلندي يعد أعظم موسيقي أنجبته فنلنديا، تضم أعماله سبع سمفونيات، وعدداً من القصائد السمفونية وكونشرتو رائع للكمان (المترجم).

ووضعت ماجي الصينية وانصرفت. وبدت بقدميها الأسودين النظيفين مثل جحش صغير.

كان موعد الغداء قد حان، ولم يظهر أوتو بعد. أما فلورا فقد أرسلت إلينا أنباء صداع تعانيه، ومن ثمّ فقد اقترحت إيزابيل غداءً من الشطائر نتناوله في غرفتها الخاصة، وقالت إنها تريد التحدث معي على انفراد.

كانت إيزابيل تشغل حجرة النوم ذات النافذة الناتئة في واجهة المنزل بحيث تطل على المرجة ناحية زهور الكاميليا. وكان بيتنا ـ الذي اشتراه أبي عند زواجه ـ بيتاً ضخماً قبيحاً أُلْحق به جناح كنسي على الطراز الڤيكتوري، واسودّت قوالبه من الطوب الأحمر بفعل الرياح النكدة التي كانت تهبّ عليه من مناجم الفحم المجاورة، والتي كانت أكوامها من الخبائث (الصناج) ظاهرة من وراء الأشجار. وكان أبي الذي أتى من المناطق المجاورة قد اختار هذه المدينة الشمالية الصغيرة في أيامه الاشتراكية الأولى آملاً أن يقيم علاقات مثمرة مع العمال الكادحين. غير أن عمال المناجم الصامتين المتشككين لم يقيموا لهذه الشخصية اللطيفة وزنا؛ ولمّا بلغت أنا وأوتو الوعي بما يحيط بنا، كان أبونا قد أصبح بالفعل ناسكاً منهزماً. فكان أن نمونا كما ينمو أطفال في المنفى.

كانت الحديقة مترامية الأطراف، وكانت جزءاً من أصول منزل أكبر كثيراً من منزلنا، غير أن النار التهمته. وكان هناك جدول جبلي صغير تنبثق مياهه البنية الصافية فوق الحدود البعيدة على هيئة شلال طويل، يطيع إرادة بستاني للمناظر مات منذ عهد بعيد. وكان الجدول يتلوى حوالى ربع الميل بين سفوح الكاميليا العالية وأدغال البامبو الكثيفة قبل أن يلمس المرجة لمساً رفيقاً، منعطفاً بعد ذلك ليجري تحت جسور

حديدية في المدينة. وكانت آجام الكاميليا التي تحول معظمها الآن بالتأكيد إلى أشجار وحشية لا يعتني بها أحد - قد نمت الآن بحيث أصبحت كتلة متشابكة من النباتات التي لا سبيل إلى النفاذ منها. وكان مجرى الجدول يُحَدِّده خطٌّ أشد اخضراراً من عيدان البامبو، على حين كانت تقود إلى أعلى غيضة من أشجار البتولا تؤدي إلى فضاء الريف. فكانت تشكِّل بالنسبة لنا ونحن أطفال منطقة رحبة تتسع لكل ما هو رومانسي. وتنهدت. إذ لم أستطع أن أتذكر أنني كنت سعيداً في طفولتي، أما الآن، فقد بدا لي وكأن الغابات تذكّرت هذا من أجلي.

- «كلا، شكراً يا ايزابيل، أنا لا أدخن. لست متابعاً لتطورات فلورا. ماذا تفعل الآن؟ لقد دُهشت حين رأيتها كبرت على هذا النحو».

- «إنها الآن في الكلية الفنية، تدرس تصميم المنسوجات. وهي قليلة الاقبال على هذه الدراسة؛ وأتوقع أن تتزوج وهي لم تزل صغيرة. إنها تشتاق للذهاب إلى الجنوب».

وتنهّدت مرة أخرى. فمن خلال هذه القنوات المتباينة، كانت موهبة أبي الضخمة تنضب شيئاً فشيئاً.

- «شكراً يا إيزابيل، فطيرة واحدة فحسب. أليس لديك مشروب خفيف، بيرة مثلاً؟ فليكن، عصير الطماطم. ماذا صنعتِ بيدك؟».

كانت ثمة ندبة طويلة باهتة تمتد عبر أصابع يدها اليمنى.

- «لا شيء.. أحرقتها هنا على قضبان المدفأة».

- «ينبغي أن تحترسي من هذه النار. إنها أشبه بالفرن الذي تُصْهَر فيه المعادن. من المؤكد أنك لا تحتاجين إليه في الصيف؟».

- «إنه صحبة. كالكلب. وأنا أستمتع بتغذيته».

وكانت ليديا تخاف خوفاً مَرَضيًّا من النار، وتحتفظ على الأقل في المنزل بست طفايات للنار. ولكي تضايقها إيزابيل، كانت تحتفظ دائماً بنار مشتعلة في حجرتها، تكدّس فيها الفحم والأخشاب حتى تتعالى ألسنتها. هذه النيران كانت تزأر الآن، صرحاً باهراً من الأحمر والذهبي، مع أن الشمس كانت تسطع بشدّة في الخارج. وانتزعت إيزابيل بعض الزهور المتدلية من آنية، وقذفت بها في اللهب. فأحدثت صوتاً كالأزيز، وامتلأت الحجرة بأريج عذب نفّاذ.

كانت حجرة إيزابيل نوعاً من الاستفزاز الدائم. وكانت هذه هوايتَها، وعزاءها بلا أدنى ريب. فعلى حين كانت بقية المنزل ما برحت من الطراز الخيالي الضيق الذي يحبذه أبي، وهو نوع من الفن الاسبرطي الجديد، كانت إيزابيل قد شيدت لنفسها مخدعاً مترفاً انتقائياً (يجمع بين عدد من الطرز المنتقاة). وبهذا ضاقت الحجرة بالأثاث المتكدس، وزُيِّن هذا الأثاث بالتحف وغيرها؛ فما أن دخلت بخطواتي الثقيلة حتى أطلقتْ صليلاً من آلاف الحليِّ، كأنها أجراس صغيرة. كانت حجرة من طراز إدوارد تراودها أحلام القرن الثامن عشر. وابتعدت عن النيران، واتّكأت على طرف المدفأة، بعد أن نقلت بعض جاموس البحر العاجي بعيداً عن متناول مرفقي.

- «اجلس يا إدموند. وإلا كسرت شيئاً في تبخترك حول الأثاث. أنت أضخم كثيراً بالنسبة لهذه الحجرة على أية حال. الحمد لله أن أوتو لم يعد يأتي هنا أبداً». ثم أردفت بعد هنيهة: «آه، لقد كنت على حق حين ابتعدت عن ليديا».

وصار صوتها المشوب بالانفعال أكثر اسكتلندية. وكانت تجلس الآن على مقعد مخملي للحياكة يدوس على أقدام منضدة چورچيانية للألعاب، وبعض القطع الصينية الغامضة. ولا بد أنها غيّرت ثيابها بعد

فترة من عودتنا بثوب اعتقدت ولأول وهلة أنه ثوب آخر، ولكني رأيت الآن أنه عباءة صيفية مشجَّرة. وكانت قد أولجت قدميها في خُفَّين خفيفين ذواتي زغب مما يلبس في حجرة النوم. وكانت منذ زيارتي الأخيرة قد قصت شعرها الطويل، وإن كان للتصفيفة المجعّدة المتقنة المظهر المجعَّد نفسه الذي كان له من قبل. وتحت شعرها هذا المترف كان وجهها صغيراً، ذا ثغر دقيق متزن وأنف قصير جميل. وكانت طبقة البودرة التي وضعتها على محياها كثيفة، وحاجباها مرسومين في قوس مبالغ فيه، وثمة أصباغ خضراء فاقعة تحيط بعينيها الواسعتين البنّيتين المستديرتين. أما عنقها الذي لم تضع عليه شيئاً من البودرة والمنكشف من خلال العباءة المفتوحة، فكان يبدو نحيلاً كليلاً. وأحسست بالأسف من أجلها.

- «سأقف إن لم يكن في ذلك ما يزعجك. أنا أوثر الوقوف دائماً. كيف تسير الأمور بوجه عام يا إيزابيل؟ كيف حال أوتو، بغضّ النظر عن إدمانه للخمر؟».

- «على ما يرام، كما أظنّ. فهو ينجز عمله. ولم أعد أراه الآن إطلاقاً. فهو ينام في الورشة».

- «أرى أنه قد حصل على صبيٍّ جديد. وأظن أنك قد ذكرته في إحدى رسائلك. ماذا حدث للصبيّ الأخير؟».

- «أوه، لقد رحل ذات يوم بكل النقود السائلة التي استطاع أن تصل إليها يداه، وبالكثير من ثياب أوتو. وبالطبع، لم يحرك أوتو ساكناً. والحمدّ لله أن ليديا كانت حينذاك في غيبوبة تقريباً».

- «وما بال الصبي الجديد؟ هل هو من الطراز القديم نفسه؟ أوتو يستطيع بكل تأكيد أن يلتقطهم! يبدو أنه أجنبي».

ـ «من أبوين أجنبيين، على ما أظن. من اليهود الروس. وهو يقيم في المنزل الصيفي. ولا أكاد أراه تقريباً هو أيضاً».

وكان المنزل الصيفي عبارة عن مبنى حجري مستدير، يرجع أصله إلى ديكور منتشر في القرن الثامن عشر، أحاله المخربون الأواخر بإضافات من الطوب الأحمر، إلى كوخ للبستاني. ومع ذلك، ما زال يبدو جميلاً بما فيه الكفاية وسط الأشجار الأولى في غابة الكاميليا. أما ورشة أوتو، وهي خليط شائه من الطوب الأحمر والخزف فكانت ـ لحسن الحظ ـ مختفية عن العيون، وراء المنزل.

ـ «ومن أين أتى؟».

ـ «من الفضاء الرحب. وصل في اليوم الذي أصيبت فيه ليديا بأزمتها الأخيرة. وله أخت، أو شيء ما معه. ولم يقترف حتى الآن شيئاً شائناً». وضحكت ضحكتها الصغيرة. وكان لإيزابيل ضحكة موسيقية بالغة الصغر تنبعث عن ثغرها الدقيق كأنها قطعة من الحلوى الصغيرة. ونهضت من مقعدها، وخطرت عبر الأثاث متجهة إلى النوافذ. «أنت تجعلني قلقة. أودّ لو جلستَ».

ـ «آسف يا إيزابيل. فأنا أخشى أن أحطّم مقعداً كما فعلتُ آخر مرة. إيزابيل، أرجو أن توقفي هذه الموسيقى، هلا فعلت؟ لا أتحمل الموسيقى في خلفية الحديث».

وانحنت لتسكت الجراموفون. «أنا في حاجة شديدة إلى الموسيقى. ولست أدري كيف أكون بدونها. وأحياناً أتلفّع بها كأنها عباءة من الفراء. أواه يا إدموند... كنت وحيدة وحدة...».

كنت عصبياً إلى حدّ ما من نغمة الاستعطاف في صوتها. ولم أكن أريد أي استعراض لعواطفها، ولا أرغب في الاستماع إلى اعترافاتها

وشكاواها. وعلى أي حال، فأنا أعرف هذا كله، أكثر من اللازم. قاطعتها بشكل مباغث، «لا عليك، لا عليك، فهناك دائماً. . .» وكدت أقول «فلورا»، ولكنني أحسست فجأة أن هذا قد يسبِّب لها شيئاً من الألم، فقلت: «. . . الفتاة الايطالية».

- «ماجي وأنا أشبه بالأشخاص في رواية دوستويفسكي الذين هلكوا من الجوع في الكوخ الذي مكثوا فيه معاً زمناً طويلاً. ولا تستطيع إحدانا أن تفعل شيئاً للأخرى. وعلى أي حال، كانت ليديا تستحوذ على ماجي كما استحوذت على فلورا. كانت تستحوذ على كل شيء».

- «أجل، وأستطيع أن أتخيل أنها ابتلعت ماجي المسكينة الصغيرة في يسر شديد».

- ما زال المتبقّي من ماجي كثيراً».

- «والمتبقّي منك أيضاً شيء كثير. ويدهشني أنك لم تعودي تخرجين كثيراً، وتقومين بأمور كثيرة في المدينة».

- «كما تفعل «هي». ماجي الساعية في الخير. إنها تعرف الجالية الايطالية بأكملها. ولكنني لا أستطيع أن أرى نفسي جليسة أطفال».

- «من المؤكد أن مما يساعدك أن تحاولي التفكير في أناس آخرين غيرك، وفي متاعب الآخرين. . .».

- «أتعتقد أنني أحيا حياة حمقاء متمركزة حول ذاتي؟».

وتردّدت. . كانت هناك لهفة شديدة في سؤالها. ولم أكن أريد حقاً هذا النوع من الحديث مع زوجة أخي. فأي شيء يصدر عني واشياً بالتوبيخ سوف يطلق مزيداً من الدفء في الجو الذي بيننا، وهذا ما كنت أخشاه بغريزتي. فلم أكن على كل حال، سوى عابر سبيل. ومع

ذلك، كان لا بدّ أن أكون صادقاً في إجابتي: «بصراحة، أجل».

وكان سرورها لصراحتي فورياً، بل إن الحمرة كادت تصبغ وجهها اعترافاً بالفضل. «أنت على حق تماماً. إن حياتي مجرد تسلية dirvertissement»(*). وانتقلت من النافذة إلى المدفأة، وشرعت تقذف قطعاً جافة غير مشذبة من الخشب في النار. فتراجعت إلى الوراء، واضعاً قدمي على الأرضية المزدحمة.

قالت إيزابيل: «وأنت.. أجل، أنت تحيا حياة بسيطة طيّبة.. وأنت تساعد الناس. أجل، أعرف ذلك. وأتساءل هل تعتقد من السهل أن يكون المرء على هذا النحو؟».

قلت: «أنا أناني أيضاً.. كلّ ما في الأمر أن هذا الوضع يناسبني. واهتماماتي لادنيوية» وأردفت قائلاً: «وبالطبع كان أمامي المَثَل الذي أحتذيه متجسّداً من أبي». وبدأت أمقت هذه المحادثة.

- «لو أن والدك لم يلتق بليديا! كان ينبغي أن يكون راهباً. ولكنك -على نحو ما- تحيا حياته من أجله».

- «ما من أحد يستطيع أن يحيا من أجل أبي. فقد كان يحيا حياته الخاصة.. وهو شخص أروع كثيراً، كثيراً جداً، عما أستطيع أن أكونه على الإطلاق». وأضفت قائلاً لنفسي: وفضلاً عن ذلك فقد قابلت ليديا أيضاً وفي سن مبكرة نوعاً ما. واختلست النظر إلى ساعتي، وساءلت نفسي: هل صحا أخي من سكره؟

قالت إيزابيل: «أجل، ولكنك رجل حرّ. أما نحن، فسجناء جميعاً في هذا المكان. نحن أشبه بأناس من حَفْر خشبيّ. يا إلهي، كم أمقت

(*) قالتها بالفرنسية في سياق حديثها. (المترجم).

لوحات الحفر الخشبي! آسفة، يا إدموند، ولكن ثمة شيئاً في تلك الأشياء المهوّشة السوداء ـ إنها فن قوطيّ، فنّ شماليّ. ثم لماذا يختار الحفارون دائماً مثل هذه الموضوعات الكئيبة؟ أشخاص مشنوقون، ونسوة منتحبات. ألا تستطيع أن تكون مرحاً في حفر على الخشب. وبدون ألوان. يا إلّهي، كم أبغض الشمال!» وخبطت خاتم زواجها على حافة المدفأة في ثورة غضبها.

وكنت أعلم أنني لست رجلاً حراً، ولكنني لم أكن أريد ـ بكل تأكيد أن أناقش هذه المسألة مع إيزابيل. «كان هناك عدد كبير من الحفّارين الايطاليين على الخشب. ولم يكن دوررْ هو الذي اخترع هذا الفن كله. فمانْتِنْيا(*) على سبيل المثال. . .» قالت إيزابيل: «أوتو قوطي، كما تعلم. إنه الشمال. وهو بدائي، فظّ. أوتو من صنف ذلك الرجل الذي يمكن أن يتبوّل في حوض غسيل الوجه حتى لو كانت هناك مبولة إلى جواره».

وكنت أبغض الأقوال الفاحشة تصدر عن النساء، وأعتقد ـ على أي حال ـ أنه من غير المناسب على الإطلاق أن أتبادل مثل هذه الكلمات عن أخي مع زوجته. فقلت بلهجة توديع مرحة، «على كل حال، أظن أنك تبالغين يا إيزابيل. وحتى لو كنت سجينة، فأنت أكثر تحرّراً الآن، وتستطيعين أن تكوني حرّة في أي وقت إذا اخترت أن تكوني كذلك. والآن، إن لم يكن في ذلك ما يضيرك . . .».

قالت إيزابيل: «لا تكن أحمق يا إدموند». وكانت تصبّ مزيداً من الويسكي في كأسها، وأدركت في شيء من التقزّز أنها كانت مخمورة بصورة خفيفة. «أنت تعلم مثلما أعلم، أن المرء يمكن أن يكون

(*) آندريا مانتنيا (١٤٣١ ـ ١٥٠٦) فنان إيطالي اشتهر بالمشاهد الأربعة التي أضافها إلى سلسلة الفريسكات التي تصور حياة القديس جيمس (المترجم).

سجين عقله. وهنا كنا جميعاً نحطِّم أنفسنا، وكل منا يحطِّم الآخر نكاية في ليديا. لقد أصبحنا رجالاً من القرود ونسوة من العناكب. وأوتو وأنا مدمِّران متخصِّصان في تحطيم أحدنا للآخر. ولن يؤثر رحيل ليديا على شيء من ذلك».

كانت نبرة الحدّة في صوتها تؤثر عليّ وتفزعني في وقت واحد. وكان هذا هو كل ما أودّ الابتعاد عنه. أحسست بالشفقة، ومع ذلك كنت أعلم أن تأثّري الحقيقي بمحنة إيزابيل لا ينفعها ولن ينفعها بحال من الأحوال. «حاولي، واستجمعي قواك يا إيزابيل.. ودعي المرح يقتحم حياتك من حين إلى آخر! إنك تستطيعين أن تعيشي حياة سعيدة، نافعة، مستقلّة...».

فقالت إيزابيل: «أتذكر كيف تصف القدّيسة تريزا رؤية مكان محجوز لها في جهنم؟ إنه أشبه بصوان مظلم. أنا أحيا في هذا الصوان المظلم طيلة الوقت. وأنا منفصلة بكياني كلّه عن الحياة الصالحة التي تتحدّث عنها. والشيء الوحيد الذي يجلب إليّ العزاء هو النوم. وكل ليلة هي محاكاة للموت. وبدون هذا، كان من الممكن أن أقتل نفسي منذ زمن بعيد».

كانت تدقّ خاتم زواجها مرة أخرى في عنف، وقد انفرجت شفتاها الرطبتان، وتغضّنت عيناها في وهج النار المتأجّجة. وبدت الآن شعثاء المنظر، إذ اتسعت فتحة العباءة المشجرة عند العنق من جرّاء إدخال يدها العصبيّة لدعك صدرها وكتفيها.

وفي حالة من الحزن الحادّ، استدرتُ إلى النافذة. وحينئذ، أبصرت فلورا في الحديقة، وهي تجتاز المرجة متمهلة في ضوء الشمس الساطعة. وكانت قد استبدلت بثوبها رداءً صيفياً أبيض، وحملت قبعة شمسية عريضة، كانت تهزّها متكاسلة من شريط أزرق بيد واحدة.

وكان شعرها ما زال مسترسلاً. وعلى هذه الصورة لم تكن تصلح بالتأكيد موضوعاً لحفّار على الخشب، بل تصلح موضوعاً لمصوّر مثل مانيه (*).

صحتُ قائلاً: «ماذا، هذه فلورا. ما أجملها!».

كنت أستطيع أن أسمع إيزابيل تتحرّك خلفي، وفي لحظة كان كُمّها يلامس كُمّي. فأخذنا نراقب الفتاة معاً وهي تتجوّل وقد ألقت برأسها إلى الوراء، وكأنها لا تفطن لشيء سوى الأشجار المتألقة ونسيم الصيف اللامع السابح في الضوء الأزرق.

- ««أليس» في بلاد العجائب(**)! لا بد أنها كانت فرحتك يا إيزابيل».

- «نعم ولا». وأضافت بصوت خفيض، «تمنيت أن يكون لي أطفال آخرون».

واختفت فلورا وسط الأشجار، فتنهّدت.

- «أما زلتَ وحيداً يا إدموند؟»

- «أجل». وابتعدت عنها. وكان حزني الساخط قد تلاشى، وفي شعوري بالأسف على نفسي، أحسست أنني أشدّ أسفاً عليها.

- «إلى متى تنوي البقاء معنا؟».

فأجبتها وأنا أنظر إلى ساعتي: «حسناً، إذا قبلت معذرتي، وإذا استطعت أن ألحق بأوتو الآن، فسوف أستقل قطار الساعة الخامسة».

(*) ادوار مانيه (١٨٣٢ - ١٨٨٣) مصور فرنسي شهير من مؤسسي المدرسة الانطباعية (المترجم).

(**) عنوان قصة غربية معروفة للأطفال (المترجم).

ـ «ماذا؟»

فاستدرت إليها بعد أن قطعت نصف المسافة إلى الباب. كانت يداها البضّتان متقاطعتين فوق رقبتها في وضع الفزع والتضرُّع. قالت: «لا، لا، لا. . .» ثم على نحو يتّسم بالسلطة أكثر مما يتّسم بالتوسّل، مدَّت ذراعها ناحيتي. فبدت في محرابها الذهبي الناري أشبه بعرّافة صغيرة. «إنك لا تستطيع الرحيل، يا إدموند».

ـ «حقاً، أنا. . .».

ـ «يجب أن تبقى. . . شيء ما سيمسكك هنا. ينبغي أن تبقى الآن، وأن تساعدنا. أوتو في حاجة إليك. . كلنا في حاجة إليك. مَنْ سواك كنت أستطيع أن أحدّثه على هذا النحو؟ كنت أنتظر مجيئك بلهفة شديدة. أنت الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يشفينا».

قلت: «لست شافياً» ولم أستطع أن أضيف: «لا أستطيع أن أشفيك. . وربما لم يكن ذلك في استطاعة أحد».

ـ «أجل. . أنت ذلك الشخص. أنت أشياء كثيرة. أنت رجل طيّب. . أنت أشبه بالطبيب. أنت الحَكَم والقاضي، والمفتش، والمحرِّر. سوف تزيل ما في نفوسنا جميعاً، وستقوم بترتيبنا. . وتحرِّرنا».

أفزعني هذا الحديث تماماً. وكانت رغبتي الشديدة هي أن أرجع إلى مكاني البسيط الذي يخلو من كل تعقيد. لم أكن أريد أن أمكث في خضم عالم إيزابيل المضطرب، والأدهى من ذلك أن أُكلَّف بدور فيه. قلت في حزم: «آسف يا إيزابيل. . لم يكن من الضروري أن أرحل بالضبط، ولكنني أعتزم الرحيل. ليس في إمكاني أن أصنع لك أو لأوتو شيئاً. والآن، أرجو أن تغفري لي وأن تقبلي عذري».

وتهاوت العرّافة الصغيرة المتوتّرة، وانسحبت إلى النيران متثاقلة فتعثّرت فوق منضدة صغيرة. وكان واحد من خفيّها المزغبين قد تملّص من قدمها. وصبّت لنفسها مزيداً من الويسكي، ثم قالت دون أن تنظر إليّ، «ربما كنت مصيباً يا إدموند. من الأفضل لك أن تعود إلى حياتك الطيّبة، وما كان لي أن أزعجك على هذا النحو. كل ما في الأمر أنني سجينة، يحاصرني السأم. فأنا أتشوّق إلى الانفعال وطلقات الرصاص».

الانفعال وطلقات الرصاص: هذه الأشياء كانت تريدها ليديا أيضاً، وهي بالذات ما أخشاه وأمقته. وهكذا، فررت من الحجرة.

٤ ـ أوتو والبراءة

قال أوتو: «حلمت في الليلة الماضية أن في المنزل نمراً ضخماً. فأخذت أجوس خلال الدار من حجرة إلى أخرى، وطفقت أحاول الوصول إلى الهاتف لأطلب النجدة. فلما وصلت إلى الهاتف وجدت أنني لا أستطيع أن أدير القرص كما ينبغي، لأن القرص كان مصنوعاً كله من المرزيبان(*). ثم، إن هذا النمر. . .».

قلت: «أرجوك. . أريد أن ألحق بالقطار. وما زالت هناك أمور عديدة في حاجة إلى تسوية».

كنا في الورشة، وكان أوتو يتناول غداءه. وكانت الورشة وقد تناثرت في أرجائها كتل ضخمة من الحجارة المصقولة وغير المصقولة والتي تقترب أو تتباعد عن المكان الرئيسي ـ ذات هيبة وثنية، وكأنها ملتقى كهنة قدماء الانجليز (الدرويد). وكان الحجر يبدو وكأنه يردّ بصوت ذي طابع مرمري عجيب، صوت أجوف قليلاً يشوبه شيء من الكآبة، وينضح بالبرودة. وكان الانتاج الرئيسي لأوتو الآن يتألف من

(*) وهي حلوى تصنع من مسحوق اللوز والسكر وزلال البيض (المترجم).

شواهد القبور والنُصب التذكارية. والسطوح الملساء الرزينة من الأردواز أو المرمر تسجِّل هنا أو هناك في ثقة لا تخطىء أسماء الراحلين الذين لا يمكن أن تعتريهم أية مخاوف عن هويتهم عند وصولهم إلى العالم الآخر كما يعلنها أوتو بحروفه. وكان ثمة ضوء ساطع صاف ينبعث من فوق ليظهر لنا الجدران المغسولة البيضاء غير المنتظمة، وقد غشّاها الآن نسيج عناكب لا حصر لها. وعلى منضدة العمل رقد نصب تذكاري تمّ تنفيذه ببراعة، وكان من الأردواز الأخضر الداكن، وعلى هذه المنضدة نفسها كنت قد لاحظت فعلاً ـ مبدياً تشجيعي ـ مجموعة الأدوات النظيفة المرتّبة. وقد يكون أوتو فوضوياً في كثير من المجالات، ولكنه ما زال صَنَاعاً مدققاً في مجال عمله. وقد أعطانا والدنا في هذا الصدد ـ تدريباً لا سبيل إلى إفساده.

كان أوتو جالساً على معطفه المطويّ فوق قبر طويل منخفض من الرخام، واضعاً صحنه متّزناً على ركبته. وكان غداؤه يتكون من البسكويت والزبدة والجبن بمقادير كبيرة، وفي صندوق خشبي إلى جانبه كوم من الأعشاب التي اقتلعها بيديه من حديقتنا ذات الأعشاب الوفيرة. وتذكرت أذواقه في الأكل. إذ كان إطعام أوتو أشبه بإطعام فيل أو غوريللا، وحجمه الضخم يتطلب يومياً كميات هائلة من الموادّ الخضراء. وفي هذه اللحظة كان يغطي شريحة من البسكويت بقطعة من الزبد في حجم كرة البنج بونج، وذلك بمطواة يقبض عليها بأصابعه الحمراء المنتفخة، وعلى هذا الغلاف الجويّ من الزبد وضع مخروطاً من الجبن مساوياً في كتلته ليتوازن مع كمية الزبد، ومع هذا المخروط أضاف حزماً من فروع النعناع والعتر التي أمسك بها أوتو من كوم العلف الأخضر القائم إلى جانبه.. وما برح فمه اللاهث فاغراً ليكشف عن تلك الفوضى البسكويتية الخضراء في داخله، على حين كان ينقل البناء الدهني إليها.

تمتم قائلاً: «غريب، أليس كذلك...» وهو يقذف بفتات من البسكويت أثناء المضغ ـ «أن يكون كلانا عملياً من النباتيين. أنا رجل نباتي، وأنت رجل فكهاني. يخيل إليّ أنه شيء له صلة بليديا.. معظم أمورنا يرجع إليها!».

كنت ـ في واقع الأمر ـ نباتياً، وإن يكن ذلك بنوع من التفضيل والغريزة، لا على أساس أي مبدأ واضح. وأجلست نفسي على طاولة العمل، كابحاً ميلي المعتاد إلى السير جيئة وذهاباً، كما لم أكن أريد إثارة غبار الحجارة المتعدّد الألوان الذي يغطي الأرض. فقد كان لي أنف شديد الحساسية. «أوتو...».

ـ «اسكت، أعتقد أنني ابتلعت حالاً يسروعاً (يرقة فراشة) مكسواً بالفراء! يا للآفة الصغيرة المسكينة. هل يمكن أن تسمِّمني؟ إني لأعجب ما شعور المرء حين يؤكل؟ كان ينبغي أن نعلم. أوه، يا إلهي!».

ـ «أوتو...».

ـ «أجل، أجل.. الأمور التي يجب اتخاذ قرار فيها.. مثل شاهد مقبرة ليديا.. المشكلة، والمسيح».

قلت: «إنني أترك ذلك لك. ضع عليه ما تشاء. لست أبالي. ولن تبالي هي الآن». وكنا قد تناقشنا قبل ذلك بقليل عما إذا كان من المستحسن وجود نقش خاصّ، وعلى أن يحتوي على كلمتي «زوجة فلان» و «والدة فلان وفلان» وكانت هاتان لفظتين تمقتهما ليديا. «لماذا لا نكتب سوى اسمها فحسب، على كل حال؟».

ـ «ليديا.. إنه يبدو كاسم جرو صغير».

ـ «أعني اسمها الكامل، أيّها الحمار. على كل حال، عليك أن تقرَر».

قال أوتو: «شيء مضحك، أليس كذلك؟ . .» وكان يقضم الآن قضمة كبيرة من الخبز والأعشاب وغيرهما، «إنني أعاني دائماً من الإمساك رغم كل هذه المواد الخضراء. يبدو أن الأخضر هو اللون الطبيعي للطعام، أليس كذلك؟ ألم يلفت نظرك أبداً أننا لا نأكل شيئاً أزرق؟».

- «أوتو. . .».

- «تناول شيئاً من الويسكي، يا إد، أم أنك ما زلت مجتنباً للخمور؟».

- «لست مجتنباً للخمر، كل ما في الأمر أنني لا أحبّها. ألم يكفك ما تعاطيته اليوم؟».

وهزّ أوتو رأسه في حزن، وعندما استطاع أن يتكلم قال:

- «كل ما في الأمر أنك لا تستطيع أن تفهم شيئاً عن الإدمان. فالمدمن يريد المزيد دائماً. وكلما تناول المزيد أراد المزيد، وأراده بمزيد من السُّعار. آه، ليتني أستطيع أن أمتنع عن الشرب الآن! وأن أعيش خالي البال! إذن لاستطعت أن أشعر بالجحيم الذي كنت فيه. إنه شيء ينفذ في الجسد». وتوقّف عن الكلام، وقد فغر فاه، الممتلىء بالمعجون الأخضر، وأخذ يحملق دون حراك إلى الجدار المغطى بنسيج العنكبوت.

قلت إن أوتو كان أطول مني. ولكنه كان أيضاً أعرض وأضخم، وقد تحوّل شكله الخارجي الذي يشبه الثور إلى كتل من الدهن. ولكنه ما زال محتفظاً - على كل حال - بقوة جسمانية خارقة، وكان يستطيع - إذا أراد - ألا يكلّ إطلاقاً. وكان وجهه هائلاً، وأصبح الآن أحمر مترهلاً. وكان له أنف قصير مستقيم لا معنى له، وجبين مرتفع متغضّن يتفصّد

عرقاً، من وجنتين ناعمتين مرتخيتين، وجرح غائر مبتلّ لا شكل له هو فمه الذي يظل مفتوحاً بحكم العادة. وكان مِثْلِي يحتاج إلى حلاقة ذقنه مرتين يومياً، ولكنه ـ على خلافي ـ كان لا يفعل ذلك. أما شعره الذي كان أغزر من شعري ولكنه في لونه البنّي الفئراني الداكن، فكان يتدلى طويلاً، على هيئة باروكة، وقد تجعّد قليلاً جداً حول قبة رأسه، ومن ثمّ كان يبدو أحياناً كمنشد أو برالي في منتصف العمر، ومن طبقة الجهير (الطبقة العميقة الخفيضة). وعندما كان يسحب نَفَساً، فعليك أن تتوقع صوتاً أشبه بالأرغن المكتوم؛ والحق أن صوته كان مرتفعاً كصوت الأرغن، ولكنه لم يكن في موسيقيته. وكان من الصعب أن يصدِّق أحد أننا كنا متشابهين في الصغر؛ ومن المحتمل أننا ما زلنا متشابهين كما يتشابه شخص نحيف مع شخص متين البنيان. وقد كففت منذ فترة طويلة عن النظر في المرايا، حتى أثناء الحلاقة. ولم يكن أحد منا شبيهًا بأبي الذي كان رجلاً طويلاً، ولكنه هش رشيق، وشاحب كالعاج، وإن قيل لي منذ سنوات طوال إنني صورة منه.

وواصل أوتو حديثه: «إننا ممسوسان أنت وأنا، وإن يكن ذلك بطرق مختلفة». ولاحظت أن سرواليّ المنامة المخطّطة كانا بارزين من نهايتيْ بنطاله. لا بد أن هذا كان زيّه الجنائزي. «هل تذكر ذلك القول الذي اعتاد أبي على الاستشهاد به، عن طائرين فوق الشجرة، وكيف كان أحدهما يأكل الثمرة والآخر يراقبه دون أن يأكل؟ قصة هندوكية أو شيء من هذا القبيل. حسن، أنت الطائر الذي يراقب، وأنا الطائر الذي يأكل. أنا / آكل وآكل، وأشرب وأشرب. إنني أحاول ابتلاع العالم. لا عجب أن إيزابيل تحسبني نوعاً من المهرج النَّهم. هل كانت إيزابيل تشكو إليك؟».

قلت: «كلا. بالطبع لا». وكنت منزعجاً بما قاله عن الطائرين،

وتذكرت استشهاد والدي بهذا القول، ولكنني لم أستطع أن أتذكر ما كان يعنيه.

- «كنت أتوقع أن تفعل ذلك. يا إلّهي، لو أن السخرية والتهكّم البارد كانا سبباً للطلاق، لكنت هربت من إيزابيل منذ أمد بعيد! وأياً كان الأمر، فإن لديها أموراً أسوأ من ذلك لتشتكي منها. إنها تجدني مقزّزاً. أنا مقزّز!».

وكنت أريد الابتعاد عن هذا. «وبالمناسبة، وجدت كمية من خشب البقس(*) الفاخر في حجرة أبي. وإني لأتساءل هل أستطيع الاحتفاظ بها، إن لم تكن تريدها؟».

- «أوه، خذها، خذها. وربما وجدت أنها مشروخة قليلاً. فقد بقيت هناك دهوراً، إذ منعتني إيزابيل من الحفر على الخشب منذ سنوات طويلة، وقالت إن الحفارين يجعلون كل شيء غايةً في الصغر وكأن الإنسان ينظر من الناحية الخاطئة في منظار مكبِّر. وكانت تسمي هذا «تصغيراً». ولكن هذا هو ما تفعله، بالضبط. كم كنتَ مُحِقاً عندما أحجمت عن الزواج!» كان كل شيء يعود بنا إلى إيزابيل.

- «ولهذا أيضاً مساوئه!» ومررت بيدي فوق شفتيّ. وكان أوتو من الأشخاص ذوي الشفاه المبتلّة، أما أنا فكنت من ذوي الشفاه الجافّة.

«مساوىء جسدية فحسب. أما مساوىء الزواج الروحية فهي معوِّقة. وكان من الممكن أن أكون إنساناً صالحاً لو لم أتزوّج. وأحياناً أعتقد أن النساء هُنَّ حقاً مصدر كل شرّ. ويا لهن من حالمات! وما الخطيئة إلا نوع من اللاشعور، من عدم المعرفة. والنساء مثل هذه، مثل الزجاجة. تذكر تلك الحواء الحالمة في «أوتون» وحواء الحالمة،

(*) هو الخشب الذي يستخدمه الفنانون في الحَفْر (المترجم).

السابحة، المبهورة التي حفرها جسلبيرتوس[*]؟ آه، لو كنت أستطيع أن أحفر شيئاً مثل هذا! ـ ولكني لا أنفع في شيء، اللهم إلا في شواهد القبور الريفية». واقتلع بيده الضخمة القذرة حزمة مُزهرة من الزعتر، وثبّتها فوق الجبن.

قلت: «لقد صنعت أشياء بديعة جداً.. وستصنع غيرها مرة أخرى».

ـ «كلا، كلا. يا إد. لقد انتهيت. يا إلّهي، لو أنك عرفت فحسب الاضطراب الذي سَقَطتُ فيه حياتي! وليس هذا خطأ إيزابيل، إنه خطئي، كله خطئي. (خطيئتي العظمى). ما من شيء يمكن أن يكفّر عن هذا الفشل الأساسي. كما لا أستطيع حتى أن أشعر بالندم الصحيح عليه. لقد أَوْقَعَتْ بي آلة. والشرّ ضرب من الآلية. وشطر منه أن المرء لا يستطيع حتى أن يتعذّب على الوجه الصحيح؛ بل إن المرء يستمتع بعذابه. وحتى فكرة العقوبة تصبح ملوَّثة. ولا وجود لأعمال تكفيرية، لأن هذا العذاب كله عزاء. وليس العذاب هو ما يريده المرء، بل الحقيقة: وهذا ضرب من المعاناة لا يستطيع المرء حتى أن يتخيّله الآن. وهذا ما كنت أعنيه في البداية من الإقلاع عن شرب الخمر. فلو أنني استطعت أن أنظر إلى ما أنا فيه بصراحة وصدق، وحتى لو مضيت في ارتكاب الأشياء نفسها ـ فسأكون شخصاً أفضل إلى ما لا نهاية. ولكنني لا أَقْدر».

كان من الواضح أن أوتو ما زال مخموراً. غير أن صدًى بعيداً من أبي تردَّد فيما قاله فمسّ شغاف قلبي. وقد كان أبي فيلسوفاً فاشلاً. وكان لأوتو أيضاً متاهته، غرفة تعذيبه الميتافيزيقية. وبالتأكيد كانت لي

(*) هو نحات فرنسي نحت في كنيسة أوتون في إقليم بورجاندي «يوم القيامة».

غرفتي الخاصة. وكنت أفهم أوتو تمام الفهم.

قلت: «العمل نوع من البساطة الذي لا يمكن أن يُنتزع منا».

- «إنك تبدو إذن كما كان أبونا بالضبط».

وجاشت في نفسي عاطفة قديمة أكنّها لأوتو. وفي شيء من الذعر نظرت إلى ساعتي. واعتزمت الرحيل على الفور، ولم أكن أريد أن أشعر بالأسف على هذا الرحيل. قلت: «أنظر يا أوتو، سامحني إن كنت أستعجلك، فلا بد أن ألحق بذلك القطار. هل تركت ليديا وصيّة؟».

فحملق أوتو في وجهي، فاغراً فاه، وقد اتسعت عيناه، واحتقن فيهما الدم. ثم قال في هدوء: «ليديا المسكينة ماتت منذ لحظة، وها أنت تنظر في ساعتك، وتتحدث عن الوصايا». في مثل هذه اللحظات، يستطيع أوتو أن يكون مخيفاً. وكبحت نفسي عن الإتيان بحركة تراجع وفجأة، انهمرت الدموع من عينيه، فدفن رأسه الضخم في راحتيه. وانتشرت في أسفل عنقه بقعة حمراء من الدم.

وتأثّرت، بشعور من الشفقة عليه أكثر من أي شيء آخر، ولكنني احتفظت ببرودي. فأنا - على كل حال - الشخص الذي يراقب. وجلست على كتلة من الحجر البورتلاندي، ثم قلت: «آسف، سأبكيها بطريقتي الخاصة. فلست نادباً عامًّا».

ورفع أوتو وجها قرمزياً مبتلاً: «أعرف، أعرف ذلك، أنت شخص وثيق الصلة. وستفكر مليًّا في هذا كله. ولكن كل ما في الأمر أنني أفتقدها». وعادت الدموع ثانية.

لم أكن أطيق هذا، فقلت: «أرجوك، أرجوك يا أوتو. ولا تقلق عن الوصية وكل تلك الأمور. كان ينبغي ألا أشير إليها. سأكتب إليك. أعتقد أنه لا بد من الرحيل، وسأحزم حقيبتي الآن». كنتُ أفتقدها أيضاً

على نحو غريب رهيب. غير أنني شعرت بعزم حديدي على تأجيل حزني ريثما أعود إلى منزلي الخاص، حيث أستطيع حقاً أن أفكّر ملياً في هذا كله». أما هنا، فسيكون التفكير شديد الخطورة، على نحو ما. وما كنت أريد أن أصاب بآفة أخرى من ظلّ ليديا.

قال أوتو: «فليكن». وكان يمسح وجهه بخرقة من الخرق الرثّة التي يستعملها في تنظيف أدوات النحت. «ومن الممكن أن نتحدّث عنها الآن. لم أجد الوصيّة بعدُ. أو على الأقل أن إيزابيل لم تعثر عليها، وقد شرعت في البحث عنها بعد أن أصيبت ليديا بأزمتها الأولى. وربما لم تكن هناك وصيّة».

- «لن تكون هذه ليديا، إن لم تكتب وصية. سوف تظهر. ومن المحتمل أنها في مكان ما من حجرة نومها».

- «ربّما. ومهما يكن من أمر، فمن المحتمل أنها قسّمت أملاكها بيننا. إذ ينبغي ألا تكون هناك أية مشاكل. وساعطيك نصف قيمة المنزل».

قلت: «أعتقد أنه من الأرجح أنها تركته كلّه لك، وحرمتني من كل شيء».

فقال أوتو: «لست أدري. كانت تنشب بيننا في الأعوام الأخيرة مشاجرات فظيعة.. أما أنت، فكنت البعيد المغترب وراء التلال. وربما تركت لك كل شيء، وحرمتني أنا.. وهذا أنسب لروح الدعابة التي اتسمت بها!» وأطلق قهقهته الأوركسترالية، وهو يدسّ الحفنة الأخيرة من النعناع والهندباء البريّة في فمه. قلت: «لو أنها فعلت، فسوف أقتسم نصيبي بالتساوي معك».

- «وسأفعل بالمثل إذا تركت كلّ شيء لي».

وخطر لي أن هذا الترتيب جائر إلى حدّ ما بالنسبة لأوتو، إذ كان من المرجح تماماً أنه لو وُجِد وريث وحيد، فينبغي أن يكون هو. كما أنه عاشر ليديا طيلة هذه الأعوام جميعاً. وأياً كان الأمر، فقد عزمت على مناقشة هذا الموضوع عندما يحين الوقت.

- «شكراً يا أوتو. وأظنّ أنها قد تركت شيئاً من أجل ماجي؟».

- «أظن ذلك. وإن لم تكن فعلت، فسنفعل».
- «هل ستبقى ماجي هنا؟».

قال أوتو في شيء من الدهشة: «بالطبع. أين ستذهب. هذا بيتها، وهي لم تذهب إلى ايطاليا منذ أعوام».

وتناهى إلى أسماعنا وقع خطوات خفيفة، وظهر شخص من وراء أحد شواهد القبور، كان ليفكين حاملاً صينية. ولم أكن قد سمعت الباب الخارجي وهو يفتح، فخطر لي أنه ربما كان متوارياً وراء الأحجار فترة من الزمن يسترق السمع إلى حديثنا. فما كنت أثق في أحد من صبيان أوتو.

واتجه الصبي إلى أوتو الذي أعطاه صحنه والبقايا الدهنية من وجبته بوداعة صبي صغير يطيع مربّيته. ورتّب ليفكين الصينية بعناية. ورمقني بنظرة يتظاهر فيها بالخجل، وهو يمدّ رقبته الطويلة كحيوان، ويزمّ شفتيه الغليظتين في صفاقة. ثم طرح شعره البنّي المسترسل إلى الأمام ليحجب عينيه أثناء انحنائه على الصينية، وأخذ يزيل برشاقة فُتات البسكويت والجبن التي شكلت طريقاً لَبَنيًّا نازلاً على صدر سترة أوتو؛ كما أزاح بإصبعه قطعة من الزبد كانت ملتصقة بخدّ أوتو، ووضع الصينية متوازنة بخفّة على يد واحدة، ووقف متوثّباً في حالة انتباه. «ومتى أعود إلى العمل يا سيدي أوتو، نعم؟».

قال أوتو: «نعم ـ يا ديفيد»، وجرّ نفسه طائعاً لقدميه وهو يرسل قباعاً

وفواقاً على حين اختفى الصبي وسط الأحجار بعد أن نظر إليّ نظرة مستظرفة.

اجتاحني الغضب فقلت: «لماذا تدعه يخاطبك بهذه اللهجة الحمقاء؟».

فالتقط أوتو متأملاً نشارة خشبية جعل يزنها في راحته: «إنه صبي طيّب. وأعتقد أنه معجب بي». وكان أوتو يقول هذا القول عن صبيانه جميعاً، وعادة يكون ذلك إزاء البيِّنة الصارخة التي تشهد بعكس هذا على طول الخطّ.

فهززت كتفيّ. كان الوقت قد حان لمغادرة أوتو ومشاكله وراء ظهري: «حسناً، سأعدّ نفسي للرحيل...».

وسار أوتو متثاقلاً خلفي. فتسلقنا ربوة صغيرة من كتل الرخام، وفتحنا الباب. وكان الجوّ في الورشة بارداً رمادياً على الرغم من النور الشمالي الصافي الذي يأتيه من أعلى. وانفتح الباب على أجمة رطبة مشمسة في يوم من أيام الصيف الانجليزي. وعلى مسافة من أحد أركان المنزل حيث تتدلى نباتات فرجينيا المتسلّقة كأنها أوراق فاتحة الخضرة فوق الطوب الأحمر الضارب إلى السواد، كان يظهر مثلث من المرجة يبدو الآن ذهبياً تقريباً في ضوء الشمس. وفي منتصف هذا الضباب الرقيق من الذهب، وقفت فلورا وكأنها تنتظر. كانت قد وضعت قبعتها الشمسية، وربطت الشريط الأزرق تحت ذقنها بعقدة كبيرة. وما كاد باب الورشة ينفتح، حتى استدارت وسارت متّئدة داخل الظلال الخضر في اتجاه الغابة. وراقبنا الحوريّة لحظة في صمت.

قال أوتو: «البراءة، البراءة؛ لكي يكون المرء صالحاً ينبغي ألا يفقدها أبداً. كيف يبدأ الشرّ في الحياة؟ «يمكن» أن يبدأ؟ ومع ذلك كنا هناك ذات يوم...».

٥ ـ فلورا والتجربة

«عمّي إدموند، هل أستطيع أن أحادثك لحظة؟».

كنت قد تركت أوتو ورائي في الورشة، وأخذت أجتاز المرجة. وكنت أنوي أن ألوِّح إليها بيدي تلويحة خاطفة دون أن أتطفّل على عزلتها الصيفية، ثم أعود إلى حقيبتي. فلحظات الوداع يمكن أن تنتظر، ومادامت سيارة الأجرة قد وصلت، فلا بدّ أن تكون هذه اللحظات قِصاراً. وأياً كان الأمر، فإن فلورا ما كادت تراني حتى استدارت إليّ عامدة، ومن ثم لم يعد هناك سبيل لتحاشيها.

ـ «أهلاً، فلورا. ما أطول الزمن الذي مضى منذ أن التقينا! ينبغي أن تناديني «بإدموند» الآن بعد أن كبرت على هذا النحو، أليس كذلك؟».

كنت أشعر بشيء من الارتباك في وجودي معها. فلم تعد تلك الطفلة الصغيرة التي عرفتها، ولكنها لم تكن امرأة أيضاً. كانت تبدو أشبه بحوريّة صغيرة لا عمر لها من حوريّات الغابة، غصن رشيق في لوحة إيطالية، شديدة النعومة والنحافة والنورانية بحيث يصعب أن تكون بحق شيئاً جسدياً. كنت أراها كما كان أوتو يراها.. مُشعَّة بالبراءة، فأحسست بحُبْسة في لساني.

قالت: «إنك لم تلق نظرة على الجدول. إنه مختلف الآن كل الاختلاف. تعال، وانظر».

- «لم يعد لدي وقت كثير. ولكنني سأمشي معك مسافة قصيرة». كان من الفظاظة أن أرفض طلبها.

وما أن مضيت، حتى سمعت موسيقى سيبيليوس الحزينة منبعثة من نافذة إيزابيل. وكانت إيزابيل متلفّعة «بعباءتها الوحشية». وساءلت نفسي: أتراها تراقبنا الآن؟

كانت الأشجار عند حافة المرجة خليطاً من الصنوبر والبتولا، أما أشجار البتولا فكانت سامقة بجذوع فضّية طويلة عارية، وبأوراقها المريشة المرتفعة، أشبه بأشجار الصبار منها بأشجار البتولا المستأنسة في الجنوب. وعندما يظهر الجدول ويطوِّق المرجة، كانت الأشجار تتباعد لتشكِّل طريقاً مقوَّساً يمكن أن ترى من خلاله أعود البامبو المتألقة حيث تضفي الشمس على مجرى الماء المتراجع مزيداً من الخضرة الذهبية. وكان المنظر أشبه بأجمة منمنمة منمَّقة، من المناظر التي يمكن أن تسرّ عين هنري روسو(*)، والحق أنني مع كل ضروب القلق التي تعتمل في نفسي، وشعوري بالألم العظيم المؤجل، فقد بهر هذا المنظر أنفاسي في تلك اللحظة، ولم أتمالك نفسي إلا بصعوبة لكي لا أرى في ذلك النموذج البعيد لأوراق البامبو الحادّة تحفّ بها أعمدة البتولا، بوصفه موضوعاً بديعاً للحفر على الخشب. وبالطبع، كان موضوعاً حفرته من قبل؛ بيد أن المنظر قد تغيّر، كما قالت فلورا. وشرعنا في السير على طول الممشى في محاذاة الجدول.

(*) مصور فرنسي (١٨٤٤ - ١٩١٠) بدأ هاوياً، وكان يرسم لوحات خيالية لمناظر طبيعية بألوان زاهية غاية في القوة والبدائية.

وهنا كانت أشجار البتولا والصنوبر تنحسر صوب قمة التلّ، لتحلّ محلّها أعود البامبو التي أخذت توشّي المياه وأشجار الكاميليا الكثيفة المتشابكة التي تكسو السفوح. وكانت أعود البامبو قد طغت الآن على الجدول، وتجمّعت سوقها المستقيمة المتينة في المياه نفسها، على حين أخذ الجدول الذي غَصَّ الآن أكثر من أي وقت مضى بحطام الأحجار الرمادية المستديرة، أخذ يتلوّى بلونه البنيّ الضارب إلى السواد تحت الأقواس التي ذهّبت الشمس حواشيها. وكان الشلاّل يهمس من بعيد، ومظاهرة من الزهور الوحشية والحشائش قد غطّت الشاطىء، فحجبت الممرّ الذي لم يعد مرئياً، ولا سبيل إلى اجتيازه. أما ذلك الخليط من المنثور البريّ ومن نبات الحناء الأشعث فقد أفسح مكانه لشجيرات الخَلَنْج والنباتات الأرضية الزاحفة، بينما كانت فلورا لاتزال تشقّ طريقها أمامي بعزيمة قويّة في الضوء الأخضر المعتم.

هذا الجمال المفرط الذي اتسم به المنظر أدخلني في نشوة فورية. وتلك حيلة دائمة من حيل طبيعتي: أن أكون عرضة لهذه الانسحارات المباغتة بالعالم المرئي، عندما يتألّق منظر معيّن شكلاً وموضوعاً بحيث ينتزعني من نفسي انتزاعاً قوياً، ويجعلني أنسى أغراضي جميعاً. فالجمال قادر على نسيان الذات. وفي كل هذا، كنت أرى فلورا بوضوح، كنت أرى أن ثوبها ذا التنورة الواسعة لم يكن أبيض، كما رأيته من قبل، بل كان أزرق فاتحاً جداً، ومغطى بفروع سود صغيرة من الزهور. وكان شعرها الغزير الكثيف المسترسل يتخبّط ويتنقل على كتفيها كالرداء، وكانت تنحني من حين إلى آخر لكي تنزع عن ثوبها فرعاً اشتبك فيه، ورأيت صفحة وجهها الجانبية، بوجنتها الشاحبة التي تناثر عليها النمش، وأنفها القويّ المائل قليلاً. وكانت شفتها العليا القصيرة وثغرها المندفع إلى الأمام يذكّران بأمي. غير أن وجه فلورا كان أكبر، وأثقل في ملامحها، ولفت نظري فجأة أنه أكثر عصريّة.

وبهذا الكشف حطر لي أن فلورا لا بد أن تكون أطول من ليديا أو إيزابيل. وبدت لي حينئذ أنها أقل شبهاً بأليس في بلاد العجائب، وأكثر شبهاً بفتاة ريفيّة رسمها في لحظة صدق تخلو من كل افتعال ـ رسّام أمين يعوزه الطموح في أواخر القرن الماضي. كانت هناك بساطة مؤكدة، وجمال مؤكد لا خجل منه.

وثْبت إلى وعيي باحتكاك شديد لنبات القرّاص اللاذع على ظهر يدي، تاركاً خلفه نقطاً صغيرة حمراء متناثرة. وصرخت، ثم ناديت فلورا: «انظري، دعيني أسير في المقدمة. فيم أفكر؟ لا بد أن أشجار العليق والقراص تغتالك. أوينبغي أن نعود على أعقابنا الآن؟».

أدركت بنصف وعي أن الفتاة تسوقني إلى مكان معيّن. وكان هناك بالفعل في نهاية الممر ـ الشلاّل الصغير والبحيرة السوداء الواسعة التي يصبّ فيها. . وهو منظر بديع رسمتُه في كثير من الأحيان وحفرته على الخشب دون أن أنتج أكثر من محاكاة للقرن الثامن عشر. من يدري، ربما كان هذا الشلاّل الصغير يحيا في الماضي حقًّا. غير أن الممرّ كان كثيفاً بأعشابه إلى درجة بدا لنا من المحال أن نستمر الآن. وكانت سترتي قد غطّتها قشور الثمار الشائكة والكريات الخضر الصغيرة المنفصلة عن الحشائش السرمقية، ولمحت فلورا تنتزع قميصها بعناية من غصن من أغصان العليق. «فلنرجع، ماذا تقولين؟ أنا مسرور من رؤية هذا المكان. هو أبدع من أي وقت مضى. سندور عائدين، وعليّ أن أتولّى القيادة».

ـ «سيعود الطريق أسهل بعد لحظة، ويمكننا أن نجلس تحت شجيرات الكاميليا».

ونظرت في شيء من القلق إلى ساعتي. كنت أستطيع بالطبع اللحاق بقطار متأخّر. وتطلّعت إليها، ولكنها كانت قد اختفت. وكان المكان

قد أسرني الآن بدافع يتميّز بالعذوبة، فتبعتها. وفي اللحظة التالية كان الدغل الأخضر قد انتهى، وحلّت محلّه الأرض الجرداء البنّية الداكنة تحت أقدامي.

كانت شجيرات الكاميليا التي أخضعتها رياح الشتاء لنظام صارم تجثم على السفوح، وترتفع هنا وهناك لتطاول هامات الأشجار، وكانت أغصانها وأوراقها اللامعة القاتمة الخضرة تتآلف وتنعقد في أنسجة متّصلة. وعلى الأرض تحتها، كانت تشكّل سلسلة من الكهوف أو المغارات المؤدّية بعضها إلى البعض الآخر، بحيث يستطيع المرء إذا انحنى قليلاً أن يعبرها، وكنت أستطيع أن أرى الآن ثوب فلورا الفاتح يظهر ويختفي وهي تشق طريقها أمامي تحت السقف المنخفض. وبشيء من الانفعال شرعت أعدو أنا الآخر، وقد انحنيت على نحو خفيض جداً، حتى أتفادى فروع الشجر، وفي لحظة كان ضوء الشمس فوق رأسينا.

وعندما خرجتُ، كانت فلورا قد جلست فعلاً على الشاطئ وخلعت حذاءها، وغمست قدميها العاريتين في الماء. كنت مبهور الأنفاس، غير أنها بدت وكأنما كانت تجلس هناك طيلة الصباح. وجذبت ثوبها فوق ركبتيها، ورشقتني بنظرة رزينة.

كان قلبي يخفق بشدّة بعد هذا الشوط المزدوج من الجري. وخطر لي وأنا أجلس بجوارها أنني لست في حالتي الطبيعية. وفي هذا المكان لم يكن الشلاّل الصغير يحدث إلا ضجّة بسيطة، موسيقى خافتة تحيط بنا، وتبدو أنها تشكّل صَدَفة يطفو فيها المنظر منفصلاً كاملاً. ولم يكن الشلاّل كبيراً، ولكنه كان متناسباً تناسباً حسناً مع البحيرة بحيث بدا وكأنه يفلت من الأبعاد المبتذلة للحجم الواقعي، ويشارك ـ على الأرجح ـ في طبيعة الفنّ التي لا سبيل إلى قياسها. وكان يتساقط مباشرة

من رصيف صخري في البحيرة المستديرة السوداء، ويبدو أنه يختفي من خلال حلقة بنّية من الزَّبَد في المياه العميقة بحيث يتأثـر السطـح الأسود الصقيل تأثّراً طفيفاً في مكان آخر. وفوق الصخرة كان مجرى النهر يتراجع متصاعداً خلال أخدود أخضر ينمو فيه بغزارة نبات الآس الذي تحفل به المستنقعات وأعشاب الصفصاف ـ متَّجهًا صوب فرجة تتحلّق حولها أشجار البتولا عند القمة. وسطعت الشمس فوق البحيرة، ولكن في شيء من الفتور، وهي تخرج من سماء شمالية شاحبة الضياء. ورفعت بصري فبهرني النور. ثم خفضت عينيّ. كانت قدما فلورا لا تكادان تظهران في المياه الداكنة، وكانت ركبتاها العاريتان بنيَّتين في هشاشة البسكويت، مصقولتين على نحو طفيف.

كان من اليسير أن أخمِّن أن هذا هو مكان الخلوة الخاصّة للفتاة. ولم أكن أتصور أن تعبر إيزابيل ـ بحذائها ذي الكعب العالي ـ هذا الممرّ من خلال أشجار العليق، كما لا أستطيع أن أتخيّل أوتو الضخم زاحفاً تحت شجيرات الكاميليا المنحنية. وحتى عندما كان أوتو طفلاً، فإنه لم يكن يغْشى الشلاّل. وإنما كان هذا الشلاّل مكاني المفضل، وهو الآن ينتمي لفلورا.

فركت كفّي بورقة الحُمّاض حتى أصبحت كفًّا خضراء. وكانت فلورا تقطف زهور المرجريت البيضاء من الشاطىء وترصّها على قميصها. وحدثت نفسي بأنها حقاً صورة بديعة جديرة بأن آخذها معي. ونظرت إلى ساعتي، ثم عُدت ببصري إلى فلورا، إلى ذلك الوجه الناعم الذي لاشبه فيه لتلك الفتاة الشابّة؛ وما كاد بصري يستقر عليها حتى رأيت أنها شرعت في البكاء.

انتابتني الدهشة لحظة، وفي اللحظة التالية وبّخت نفسي بشدّة. فليس من شكّ أنها أحبّت جدّتها. ألم يكن ينبغي عليّ أيضاً أن أحزن

بهذه الطريقة البسيطة نفسها؟ ومازلت أشعر أنني متهم عندما قال لي أوتو: «فكِّر في الأمر كلّه مليًّا». قلت لها: «لا تحزني يا فلورا». وبالطبع، كان لا بد أن تحزن، غير أنني لم أكن أستطيع، أوليس مما يقال للأطفال: «نحن جميعاً فانون» أو «سوف تنسينها سريعاً»، وإن يكن كلٌّ من هذين القولين صحيحاً.

وهزّت فلورا رأسها في عنف، فأسقطت الدموع من وجنتيها. وكانت تحملق في مركز البحيرة.

- «ليس الأمر كذلك».

- «ما هو إذن؟».

فاستدارت نحوي.. كان وجهها قد أصبح مبتلًّا، وسرعان ما علته الحمرة، وكأنما وضعت عليه قناعاً مختلفاً. فتأمّلت في فزع هذا الجبين المتغضِّن، وتينك العينين الحمراوين بما صعد فيهما من دماء.

- «عمي إدموند، أتريد حقًّا اللّحاق بذلك القطار؟».

- «إدموند».

- «إدموند»

- «أجل يا فلورا.. ولا بأس بالقطار التالي. ولكني سألتك ماذا كانت المسألة. أهي ليديا؟»

ومزج الشلاّل الصغير صوتَيْنا بصوته في رفق، فجعلها خلوة حقاً.

- «قلت كلا. أريدك أن تبقى هنا وأن تفعل شيئاً من أجلي». وكانت قد كفَّت الآن عن البكاء، ومسحت وجهها بظهر يدها. وكانت جدائل من شعرها قد ازدادت قتامة والتصقت رطبة بعنقها.

- «ما المسألة؟» وكنت منزعجاً بنظرتها الوحشيّة وعزلة المنظر. وهنا قالت فلورا شيئاً لم أستطع أن التقطه، أو بالأحرى التقطته نصف التقاط، ولم أستطع تصديقه. «ماذا؟».

ـ «أنا حامل».

وحملقت فيها. ليس هذا ممكناً. ثم أحسست بصعود عنيف للدماء إلى رأسي، وكأنما أُلقي ثوب دافىء حولها. احمرّ وجهي من الصدمة، ومن الخزي، ومن حزن غامض وحشيّ. «كلا!».

ـ «أجل يا إدموند، وأنا خائفة». كانت فلورا أهدأ الآن، ومسحت وجهها كلّه الآن في رفق بكلتا يديها، وكأنها تشكّله، تاركة خطوطاً خضراء طويلة. ونظرت إلى قدميها البنّيّتين القاتمتين في البحيرة. «وعليك أن تساعدني.. عليك أنت بالضبط. أنت الشخص الممكن الوحيد. هل صُدمت صدمة فظيعة؟».

قلت: «كلا، بالطبع لا» ولكنني كنت مصدوماً ومفزوعاً حتى مركز وجودي. ولم استطع أن أمنع نفسي من الارتعاد.

ـ «أعتقد أنك صدمت. أبي يقول إنك طهوريّ إلى حدّ ما».

ضايقني هذا وكفكف من انفعالي». «ولكن، هل أنت على يقين؟ قد يخطىء المرء في...».

ـ «أنا على يقين تامّ الآن».

ـ «من هو؟ من فعل هذا؟» ووجدتني أطبق قبضتيّ. قالت فلورا: «لا أهمية لذلك. إنه فتى في الكلية. فتى يدعى.. تشارلي هوبجود. ولكنه ليس مهماً».

ـ «كنت أظن أنه مهمّ جدًّا! هل أخبرت والديك؟».

ـ «لا تعنف بي يا إدموند. كلا، لم أفعل. بالطبع لم أفعل. لم أخبر أحداً سواك». وحاولت أن أستعيد رباطة جأشي، ولم أكن أريد أن أبدو متوعِّداً في نظرها. ولكنني كنت لا أزال واقعاً تحت عنف الصدمة.

«ولكن هذا الهوبجود يعلم، على ما أظن؟».

- «كلا، أجل. ولكنه رحل. إنه لا شيء. تَناسَهُ وعليّ أن أعالج الأمر وحدي».

- «فلورا، فلورا، أعتقد أنه ينبغي عليك أن تخبري والديك بهذا».

- «لا تكن أحمق!» وفجأة بدت الدموع وكأنها طفرت من عينيها، متساقطة فوق ثوبها وعلى يدي الخضراء. «أنت تعرف والدي. سيريد حينئذ أن يقتل أيّ إنسان. وأمي لا جدوى منها. أوه. يا إلٓهي، لماذا خطر لي أن أخبرك!».

- «يا طفلتي، أنا آسف، أرجوك، اهدئي. سأحاول، وسأفهم. ولكن، أتحبّين هذا الشخص؟ أتريدين الزواج منه؟».

- «كلا! قلت لك إنه لا شيء. ها أنذا أقول لك إنني في مشكلة، وعليك أن تساعدني، وإلا فسوف أقتل نفسي. أنا لا أستطيع العَوْم، وسأغرق نفسي في هذه البحيرة». وقذفت بحفنة زهور المرجريت على سطح البحيرة الأسود المتوتّر.

- «لا تتحدثي على هذا النحو! ماذا أستطيع أن أفعل يا فلورا؟ أليس من الأفضل أن تكوني صادقة وأن....».

- «تستطيع أن تجد لي طبيباً في الجنوب يمكن أن يجري العملية، وتستطيع أن تقرضني النقود اللازمة لها». كانت تتكلم بضراوة وبرود، وهي تكفكف دموعها. ثم سحبت قدميها من الماء وأخذت تجففها على الحشائش الطويلة. وأبصرت ساقيها البنيتين الملساوتين، وأحسست أنها تغيّرت تغيّراً تامًّا بالنسبة لي.

فنهضت وأنا في أشدّ حالات الاضطراب. وشعرت بقدر من الفزع

والتقزّز الغريزيّ إزاء حَمْلها كما لو كانت أنبأتني بأنها مريضة بمرض خبيث. واختلط هذا الشعور بغثيان أخلاقي من محنتها ومن العلاج الذي اقترحَتْه على حدّ سواء. واعتملت في نفسي أيضاً، في مكان من نفسي، رغبة قوية للعثور على السيّد هوبجود وقتله بأسرع ما يمكن. وحاولت تركيز انتباهي على كلماتها الأخيرة.

كنت أعتنق مبادىء غايةً في القوة فيما يتعلق بموضوع الإجهاض. وكان يبدو لي من المحال أن نتجاهل هذه الحقيقة ألا وهي أن الاجهاض جريمة، وإعدام لحياة بريئة. فكيف أنقل هذه الفكرة إلى المخلوقة الصغيرة البائسة التي وثقت فيّ، وطلبت مني مثل هذه المعونة البشعة؟ ومع ذلك، كان واجبي يحتّم عليّ أن أحاول.

قلت: «ينبغي ألاّ تفعلي ذلك، يا فلورا. ينبغي ألا تقتلي الطفل».

قالت برفق: «إنكم لا تعلمون - أيها الرجال - شعور المرأة تجاه هذه المسألة». وكانت تحدّق في الزهور الطافية. «إنني أحمل هذا الشيء في داخلي، كوحش ينمو، وينمو. إني أبغضه، أبغضه، ولو وُلِد لقتلته. لماذا أدمّر حياتي كلها في بدايتها بالذات؟ من يريد أن أجر ورائي طفلاً غير شرعيّ؟ أنا شابّة، وأريد أن استمتع بشبابي وحرّيتي. ولا أريد طفلاً الآن، وبالتأكيد لا أريد هذا الشيء البشع، البشع. آه - إنك لا تفهم». وغطّت وجهها.

قلت مترفقاً: «إنها ليست غلطة الطفل، يا فلورا. إنه بريء. وقد يكون طفلاً رائعاً، وربما أحببته. تذكّري، إنه وإن يكن شيئاً بالغ الصِّغر الآن، فإنه فرد إنساني بوراثة كاملة، ومصير كامل خاصّ به. وتفكّري، لو رُزِقت بأطفال آخرين فيما بعد، أما كنت تحزنين على هذا الطفل، وتتساءلين حينذاك ماذا يمكن أن يكون شكله؟».

وأحسست برغبة عارمة ضارية في إنقاذ هذا الشيء الذي لا يملك دفاعاً عن نفسه: وكانت كل البراءة والنقاء اللذين شاهدهما أوتو وأنا يحوطان فلورا كالهالة، قد تقلّصا في ذلك الكائن الذي لا يزيد عن رأس الدبوس.

قالت في عنف: «لا تحاول أن تثنيني عن عزمي. إذا لم تكن تريد أن تساعدني، فارحل. إذهب والْحَقْ بقطارك البغيض». وأخذت في النهوض متثاقلة، مرهقة، وكأن الطفل قد أثقلها فعلاً.

- «منذ متى؟»؟

- «منذ تسعة أسابيع. أنا واثقة تماماً. إذن، وداعاً، أيها العم إدموند. أتمنى لك رحلة طيّبة. آسفة لإزعاجي لك». واستخدمت يدها كفرشاة في تنظيف ثوبها. «لن تخبرهما، أليس كذلك؟».

- «أوه، فلورا، فلورا...» وبدا الآن أن الصدمة الأولى قد خبت، وأن الفزع قد خفت، ولم أعد أشعر إلا برغبة مضنية لمساعدة الفتاة، ورعايتها. وكان من الواضح تماماً أنني لا أستطيع اللحاق بذلك القطار الآن؛ ولا مندوحة عن البقاء. «فلورا، لا بد أن نتحدث مرة أخرى عن هذه المسألة عندما يتاح لي الوقت للتفكير. وأنا أودّ مساعدتك، وبالطبع سأبقى، وبالطبع لن أخبرهما بشيء».

نظرت إليّ هذه المرة وهي أكثر أملاً. وشرعنا نعود على أعقابنا نحو أقواس الكاميليا اللامعة. «أشكرك يا إدموند. أظنّ أنه ينبغي أن أذهب، وأن أرقد الآن. أنا مسرورة بأنني أخبرتك. ولن أراك حتى الغد، وسأحاول التفكير في المسألة كلها. تعال لتراني في الصباح المبكر، هل ستفعل؟ تعال، وتناول الإفطار في حجرتي. في الساعة الثامنة. فأنا أتناول إفطاري دائماً هناك. ماذا تأكل في وجبة الإفطار؟».

ـ «أي شيء، يا فلورا. فاكهة. أي شيء. أجل، سوف نلتقي غداً. وعديني أنك لن ترتكبي أية حماقات».

قالت: «أتوقّع أن أفعل أيَ شيء تقوله. ولكن، بحقّ السماء، اهتم بأمري».

ونظرت إليّ نظرة شاملة، مليئة بالمعاني، بوجهها الطفولي المخطَّط، المبلّل بالدموع، ثم انحنت تحت الأوراق.

وتبعتها متّئداً، ملتمساً طريقي تحت الأغصان الواطئة. وحين أخذ صوت الشلاّل الصغير يخفت رويداً رويداً حتى استحال إلى خرير، خيِّل إليّ أنني خارج لتوّي من عاصفة. ومضيت في إثرها، منحنياً خافض الرأس، وحفيف ثوب فلورا الأزرق الباهت يتابعني، وأحسست كأنني رجل تحت نيْر. ربما كان عليّ ـ قبل كل شيء ـ أن ألعب الدور الذي رسمته لي إيزابيل. وساءلت نفسي: تُرَى هل سأثبت أنني جدير به؟

٦ـ الماخور السحري

امرأة ضخمة داكنة البشرة تحتضن فتاةً فوق ركبتها. وكان هذان الشخصان يتداخلان على نحو غامض، إذ كانت الركبتان العريضتان المثنيتان تبدوان تارة للمرأة، وتارة أخرى للفتاة. وامتدّت ذراعان قويّتان نحوي، فتراجعت مذعوراً.

وصحوت بغتة من نومي، ونهضت منصتاً. شيء محدّد تماماً أيقظني. وكان ثمة شعاع خافت من الضوء في الحجرة، الشعاع الأول من نور الصباح. جلست مشدوداً أشبه بجثّة أُرْغمت على الاستيقاظ، وأنا أسدّد بصري إلى النافذة غير المألوفة، بينما أَخَذَتْ نبضات قلبي تتسابق، لعل ذلك من أثر الحلم، أو لعلّه من هذا الشيء الذي أزعجني، أياً كان. فلما أخذت الغرفة تعرِّفني نفسها من خلال العتمة الرمادية الخافتة، وتذكرت أين أنا، ولماذا، أحسست بالتقزّز، بل بالرعب تقريباً، حين وجدت نفسي مازلت في ذلك المنزل. فدفعت أغطية الفراش، وجلست على حافة السرير.

كنت على وشك أن أضيء الحجرة، ولكنني عدلت عن ذلك. ثمة صوت حاولت أن أتذكّره، غير أن وعيي النائم لم يُجِرْ جواباً. ربما تسلّل حيوان إلى الحجرة، وربما تحدّث شخص من مكان قريب أو

ناداني. وكان يبدو من الحماقة ألا أدير زرّ الكهرباء، فقد كان هذا المشهد المعتم هو صورة فزعي نفسه؛ غير أن غريزةً ما أوحت إليّ بالاختفاء، وكأنما ذلك الشيء ـ أياً كان ـ لم يشعر بعد بي. ونهضت في هدوء حتى وقفت على قدمي، وأصغيت مرة أخرى. كان المنزل ساكناً تماماً حولي، ومع ذلك كان حيًّا، وكأنه يتنفّس في رفق تنفّس المرأة النائمة. واعترتني رجفة، فزحفت إلى النافذة المفتوحة على مصراعيها. غير أن ضوءَ الفجر الشاحب الذي لا يكاد يقلّ عن الظلام، لم يكشف إلا عن أطياف أشجار البتولا. وكان القمر منخفضاً، والحديقة غير متميّزة على الإطلاق. فانحنيت إلى الخارج قليلاً، ونظرت إلى أسفل في الظلمة الرمادية المنبعثة من الهواء الغائم الرطب البارد الذي أَجْفلتْ منه عيناي.

ثم ظهر شيء ما على المرجة... شيء متألّق ملوّن ظهر وسط تلك العتمة الرمادية. فتفرّست فيما ظهر بشيء من الفتون والذعر البارد. ولم أستطع أن أتبيّن ماذا هو أو حتى أين هو. فربما كان على الأرض أو في منتصف الهواء. وتحرّك قليلاً، ثم بدا أنه يرتدّ، ويختفي.. ثم تناهى إليّ صوت، صوت خافت جداً، نوع من الأنين أو التأوه، «آآه..»، الصوت الذي يمكن أن يصدره شخص ما حينما يكون وحيداً. وظهر الشيء الملوَّن مرة أخرى، وتبينت الآن أنه الضوء المنبعث من بطارية كهربائية تسطع فوق الحشائش. وإلى جانبه استطعت أن أميِّز بالتدريج ظل امرأة.

الفكرة المجنونة التي خطرت لأول وهلة هي أنها ليديا تعود إلى المنزل. ثم ظننت أنها قد تكون فلورا، فلورا وقد أصابها اليأس، واعتراها الجنون. بيد أن هذا الشكل الغائم الذي لا يكاد يتماسك في ضوء الفجر، عرفت أنه ليس لفلورا. كان شخصاً آخر، شخصاً

مجهولاً. وسمعت الآهة مرة أخرى، تولد واضحة على الهواء الرطب الساكن، ولكنها أعلى قليلاً، وأكثر ارتفاعاً، «آآه» . . . . . . منْ تكون تلك الواقفة وحدها، المتأوّهة أمام المنزل المظلم كشخصية صغيرة في لوحة مخيفة؟

وعندما نظرت، أحسست بيقين مزعج أنني وحدي المستيقظ في هذه الساعة. كنت الشاهد الوحيد. الوحيد الذي استدعي. وكالنذير الذي لا تبصر به إلا ضحيته، جاءت هذه المرأة من أجلي. فدخلت في سراويلي، ووضعت سترتي فوق منامتي وانتعلت حذائيْ. وهبطت درجات السلم في الظلام، وتحسّست السلسلة على الباب الأمامي. وما كدت أفتح الباب في هدوء حتى شعرت أنني الصيد والصياد في آن معاً. وفي اطمئناني القلق وجدت أن الطيف مازال في مكانه. وكان من الممكن أن أقنع نفسي بأن هذا كله لم يكن سوى محض خيال؛ وكان من الممكن أن يكون ـ لو أنه اختفى إلى الابد ـ شيئاً أشد إفزاعاً بكثير. ووقفت ساكناً في ظل مصباح الجيب، فهناك في السماء كان الضوء أسطع.

ولا بد أنها سمعت صليل السلسلة عندما فتحت الباب. وعلى مسافة بضع مئات من الياردات تقريباً، كانت تبدو أكثر سكوناً، ووعياً بي. ولم أكن أرى وجهها إلا كبقعة مهوّشة. وشرعت في التحرك إلى الأمام بخطوات حذرة فوق الحصباء الناعمة المعشوشبة، ثم على الحشائش. كنت مجبراً على الهدوء، خوفاً من صوت آخر، خائفاً من صرخة يمكن أن تشيع الحياة في المنزل من ورائي بالأنوار والوجوه. ولم تُبْدِ المرأة حراكاً، وإن كنت أستطيع أن أراها ناظرة إليّ. واستمرّ الصمت.

وعندما كنت على بعد حوالى عشرة ياردات منها، توقّفت مرّة

أخرى. ومازلت لا أستطيع رؤية وجهها بوضوح، ولكنها كانت تبدو في سنّ الشباب. وكانت ترتدي ثوباً طويلاً. وربط توتّر غريب بين جسدينا. وفي انفعال عجيب أدركت خوفها، وانتظرت صرختها، وفرارها. فأردت أن أطمئنها، غير أن السكون كان سحراً أعظم من أن نحطّمه، وكان ثمة سرور مشؤوم مخزٍ في الوقوف هكذا أمامها، وكأن كلامنا كان متجرداً من ثيابه. وهنا أضاءت المصباح الكهربائي مصوّباً على وجهي تماماً.

صدرت عني صيحة، وخطوت لأتحاشاه، فوجدت نفسي قريباً جداً منها. وأطفأت المصباح، ورأيت أنها مازالت بلا حراك، غير محدّدة المعالم، لا شخصية، وجميلة كفتاة محجّبة. ينبغي أن أتحدث الآن. «ماذا تفعلين هنا؟».

تحدّثت برفق، غير أن الكلمات خرجت كالرعد. وانتظرت وكأنها تنتظر أصداء الكلمات. ثم قالت متمهلة: «جئت لأشاهد رقصة الديدان».

كان ثباتها، ثم الكلمات الغريبة التي تفوهت بها الآن ـ شيئاً جعلني أشعر وكأنني مازلت أحلم. وكانت تتحدّث بلكنة أجنبية. وتبينت أن ثوبها الطويل لم يكن سوى قميص النوم.

وعندما وقفت إلى جانبها مشدوهاً، وقد تدلت ذراعاي قالت بنغمة تفسيرية: «أتَرى، إنها هنا، والكثير منها».

وأضاءت المصباح متجهاً إلى الأرض. كانت المرجة مغطاة، مكسوة بعدد لا يحصى من الديدان الطويلة المتألقة. وكانت ترقد الواحدة مجاورة للأخرى في خطوط متشابكة فوق الحشائش النديّة الخضراء، بأجسامها المبتلة الضاربة إلى الاحمرار. كانت المرجة

غاصّة بها. وكانت الديدان ترقد متمدّدة، طويلة، رفيعة، شفّافة، وقد وضعت ذيولها في مخارجها؛ وتجول المصباح الكهربائي على الأرض، مقترباً منها، فانكمشت أطوالها، ثم غاصت في التربة بسرعة الثعبان. وتذكرت الآن هذه الظاهرة التي أثارت أوتو بشدة في أيام صبانا. وانطفأ النور.

قلت: «أرجو ألا أكون قد أفزعتك. أنا إدموند ناراواي. وأنت.. آه، أجل، لا بد أنك...».

وحينئذ رأيت أنها انصرفت. لقد تلاشت وكأنما تلفّعت بطبقات النور الصباحي، فأصبحت ضبابية مثلها. وظننت أنني أسمع وقع خطواتها وهي تعدو. وفي فورة من فورات التلهف، شرعت أعدو في أعقابها.

وما أن توسطت أشجار البتولا المتوهّجة توهّجاً خافتاً وسمعت صوت خطواتي الساحق للأوراق الجافة، حتى خيِّل إليّ أنني أرى طيفها الهارب أمامي في مكان ما. وتحدّدت معالم المنزل الصيفي بين الأشجار بسرعة خارقة، وبلغتُ بابه حتى قبل أن أدركِ أنها لا بد قد دخلته، متذكراً أنني شاهدتها، أو خيِّل إلي أنني شاهدتها وهي تدخل. واصطدمت بالباب في اندفاعتي الشديدة. كنت منفعلاً، مذهولاً بفرارها المفاجىء.

أطاعني الباب قليلاً، ولكنه عاد فقاومني. فأدركت بصدمة جسدية أنها تدفع الباب في وجهي من الجانب الآخر، فتوقّفت وقلت في هوادة: «أرجوك، أرجوك، أرجوك». ويبدو أن هذه الكلمات - وكأنما قيلت في حكاية خرافية - قد غيَّرت المشهد وجعلت كل شيء يستأنف شكله البشري. ووقفت متراجعاً، فتوقف الضغط من الجانب الآخر. كان الباب يحول بيننا في غير اطمئنان، لا يزيد عن كونه باباً

بسيطاً يمكن أن يفتح باباً لبسكن البشريّ. وهنا انبعث ضوء من الداخل، على حين اسودَّ الخشب من ورائي، وكأنما عاد إليه ظلام الليل. ودخلت من خلال الباب.

كان المنزل الصيفيّ في الأصل بناءً مستديراً، معبداً «دورياً»(*) صغيراً تعلوه قبة خضراء، ويمتد داخله مجرد فراغ رحيب. غير أن الاضافات اللاحقة منحته هيكلاً داخلياً يتألف من حجرتين في الطابق العلوي، ومطبخ ملحق في الطابق السفلي. وتصل بين الطابقين من داخل الباب درجات خشبية. وكانت المرأة تقف على تلك الدرجات في الضوء الكهربائي الساطع. طرفت عيناي. كان هذا بالتأكيد هو المشهد الثاني، وتبادل الصيد والصائد الأقنعة.

- «آسف لأنني ركضت خلفك..».

وكان الضوء - الساقط الآن فوق رأسها مباشرة - يبدو الآن ساطعاً بما يكفي لرؤيتها بوضوح. كانت ترتدي قميصاً للنوم طويلاً أصفر ذا أهداب حول رقبتها، وحول قدميها. وكان لديّ انطباع بأن قدميها عاريتان، وكانت يداها فوق صدرها، وهي مازالت تلهث من ركضها. وشعرها، وهو من لون نحاسي معدنيّ، ولعله لون مصطنع، يتدلّى حتى يبلغ كتفيها، سبْطاً مسترسلاً. أما وجهها الذي لم يعد واضح المعالم من أثر الوهج المفاجىء، فقد كان له بياض الأموات. وكانت في ميعة الصبا.

- «أنت شقيقة ديفيد ليفكين؟».
- «أجل، أنا إلسا».

(*) منسوب إلى الدوريين الذين كانوا أول من عاش في بلاد الإغريق، والمقصود أن هذا المعبد خاص بأقدم وأبسط الطرز المعمارية الإغريقية (عن المورد).

وكنت قد نسيت تقريباً إشارة إيزابيل العابرة إلى أخت لديفيد. وهنا بدا لي الآن أنني لا بد قد عرفت المرأة المتأوّهة التي أرغمتني على تعقّبها.

ـ «تعال إلى الطابق العلوي». وكان صوتها الحالم يخلو من كل تعبير.

تردّدت، ثم تبعتها صاعداً السلالم الخشبية التي أحدثت صريراً حزيناً تحت وطأة وزني. وأبصرت الآثار المبلّلة لقدميها الحافيتين فوق درجات السلم.

كانت الحجرة الأولى في الطابق العلوي تبدو أشبه بالمهبط، إذ كانت خالية تماماً إلا من دولاب ضخم من شجر البلوط وأريكة غائرة مهلهلة، وتفوح منها رائحة نفاذة من التراب والغبار. وكتمت عطسة. وكان الباب الداخلي مغلقاً. فواجهْتها غير واثق من نفسي، شاعراً بالفزع والخطر معاً. وواجهتني متئدة وهي ترتدي عباءة خضراء ولم يكن قميص النوم تامّ الشفافية.

كانت شخصية غريبة، طويلة، ربما أطول من أخيها، لها نفس فتحتي الأنف الواسعتين، والثغر المكتنز الشهواني نفسه. وكانت شفتاها رطبتين قرمزيتين، وجفناها مثلثين سوداوين سواداً كثيفاً، غير أن وجهها لم يكن مصنوعاً على نحو آخر، فبشرتها شاحبة شمعية وكأنها باردة وليست بشرية قابلة للمس. أما شعرها المعدني فكان يبدو الآن ضارباً للخضرة. وعيناها المستديرتان، وقد خطّطتهما بقلم أزرق لازوردي، بدتا داكنتين إلى أقصى حدّ بحيث يبدو أن شعرها لا بد أن يصبغ ليتمشى معهما. وتفرّست عيناها فيّ، واسعتين شرقيّتين، بتلك النظرة المسدّدة التي تميّز امرأة ساحرة أو عاهرة، امرأة مصطنعة. وأحسست بدوار، واضطراب، وتشويش.

قلت بصوت خفيض: «لا ينبغي أن تسمحي لي بالتطفّل عليك. أنا لا أريد أن أوقظ أخاك. كل ما في الأمر أنني فوجئت برؤيتك، فتساءلت..» وكنت على وشك أن أقول «لماذا كنت تبكين». ولكن لم يكن ثمة أثر للدموع في هاتين العينين المتألّقتين.

قالت: «أنا آتي كثيراً في الليل.. وهذا لأنه من غير المسموح لي أن أدخل المنزل. ومن ثمّ كان من أجل ذلك». كان صوتها غريباً جداً، فلم أستطع أن أفهم شيئاً من كلماتها، بل لم أكن حتى على يقين من أنني سمعتها على الوجه الصحيح.

قلت: «هل أستطيع مساعدتك؟»، وكانت تلك المطاردة في الظلام، هذا التقارب الليلي منها الآن وهي نصف عارية، وهدوؤها الحيواني العجيب، كل هذا أثار في نفسي ضرباً من الابتهاج المباشر، نوعاً من التفاني في حماية شخص ما. وكان قد انقضى زمن طويل منذ أن التقيت هذا الالتقاء المباشر، والطبيعي على هذا النحو الغريب - بامرأة. وشعرت بأنني على استعداد للحديث إليها فترة طويلة. والإحساس بأنني ربما طوّقتها بذراعيّ وما في ذلك من خطورة، تحوّل في الحال إلى رغبة في خدمتها. وقد بدا أنينها الخالي من الدموع عند المرجة، وكلماتها الغامضة الآن - بدا هذا كله أشبه بنداء مقدّس موجّه لي أنا بالذات.

نَظَرَتْ إليّ متفكرة وكأنما تأخذ ما قلته مأخذ الجدّ. ولم تلبث أن قالت: «عندي شيء من البنّ. ولكن أريد أن أريك أولاً شيئاً ما. فأنت الأخ قبل كل شيء، وقد انتظرناك زمناً طويلاً».

واتّجهتْ صوب باب الحجرة المغلق، وفتحتْه على مصراعيه. كان ثمة ضوء ساطع في الداخل فعلاً، أبصرت من خلاله أخي أوتو منبطحاً على سرير منخفض، يكاد يكون عارياً، مستسلماً لنوم عميق.

كان للمنظر المضاء ضوءاً ساطعاً والظاهر من خلال الدهليز طابع لاواقعي فجّ، إذا بدا فجأة واسعاً جداً وقريباً جداً، وكأنما استدعت الفتاة فجأة صورة فاضحة تمثّلت لها في رؤيا. ومع ذلك لم يكن ما أراه دمية نفسية، بل كان أوتو حقاً هو الذي يرقد معروضاً كأنما على خشبة المسرح، أوتو فاغراً فاه، ينبعث منه الشخير، أوتو الجسيم، الأشعث، الماثل في صورة تدعو إلى الخزي والاستنكار، أوتو مستغرقاً في النوم. كان شعوري الأول إحساساً متبلداً عجيباً من الحرمان. ثم أحسست بالتقزّز وبوخزة الذنب والخوف. وخشيت من غضب أخي إذا استيقظ ووجدني أمامه.

قالت، وقد خمّنت ما أفكر فيه: «لن يستيقظ، فقد شرب. إنه ينام كالخنزير. تعال وشاهْده». ودخلنا معاً، وأغلقت الباب خلفنا. وكأننا ندخل عرين حيوان ما.

كان الشطر الأعظم من الحجرة محتلاً بالديوان الذي تمدّد عليه أخي، وكانت الستائر السميكة قد شُدّت بعضها إلى بعض متقاربة على النوافذ؛ والجوّ خانق كثيف برائحة رطبة نفاذة. وكانت الأرضية مغطاة بأكوام من الملابس تعثرت فيها، وتعلّقت بقدميّ كأنها أعشاب بحرّية لزجة. وكانت هناك زجاجة نصف فارغة من الويسكي قائمة منتصبة في فردة من حذاء أوتو. أما أوتو الذي انزاحت عنه الأغطية، فكان يرتدي صديريتين قذرتين إلى أبعد حد تحيطان بعنقه، وملفوفتين كالأنابيب فوق صدره، وزوجاً من السراويل التحتية الصوفية الطويلة على تلك الدرجة نفسها من القذارة، ومشدودين بإحكام على ردفيه. وكان خصره السميك ظاهراً تكسوه خصل من الشعر سوداء مجعدة، وتحته البروز العاري الأبيض من بطنه، وفنجان سُرّته الأسود، وكأنه ممتلىء بالطين. وكان رأسه الضخم الشبيه برأس الثور ملقى إلى الخلف،

وبدا وجهه كتلة مختلطة من الخطوط اللحيمة، وفمه المبتل الـذي لا شكل له مفتوحاً مقرقراً. وخيل إلي أنه أشبه بحطام إنسان منه بإنسان سويّ.

وكانت الفتاة تتفرّس فيه عامـدة متعمّـدة. وفجـأة ركلتـه بعنف في ضلوعه بقدمها العارية. وزمجر أوتو، واستقرّ برأسه غائصاً على نحو أعمق فيما تبينت الآن أنه ثياب تحتية نسوية. ونظرت إليّ الفتاة وكأنها تطلب تأييداً لفعلتها، وقالت: «إلسا».

وألفيت نفسي أجيب قائلاً: «إلسا». وبـدا هذا التـرديد السحـريّ لاسمها وكأنه تعويذة تمنعني من الرحيل. وجلست الآن على السرير، وأومأت إليّ أن أجلس أنا أيضاً. وفي حذر شديد انخفضت حتى حافة الفراش، بينما كانت كتلة أوتو الكريهة الرائحة ترتفع وتهبط بيننا. وبينا كنت أفعل ذلك، خطر لي مرة أخرى أنه لو فتح أوتو عينيه الآن، فمن المحتمل أن يشطرني نصفين.

وصوّبت بصري إلى الفتاة. كانت تبدو رزينة، باردة، وكأنها تؤدّي شعائر احتفال سقيم. وكانت رائحة الويسكي والعرق والجنس المنبعثة عن أوتو رائحة طاغية؛ وبدأت ألاحظ أنها هي أيضـاً كانـت أبعـد ما نكون عن التنزيه. كان وجهها الشاحب، الشمعـي، الدهنـي، شديد القتامة حول منخريها، وملطخـاً بالـدم والقـذارة حول ذقنهـا. وثمـة شارب أزغب يغطي شفتها العليا المثلومـة بعمـق، وشعيرات طويلـة ناعمـة تتدلـى عنـد طرفـي فمهـا المصبـوغ تمامـاً. وكانـت ليديهـا، المشغولتين الآن عند رقبة قميصها الليلـي، أظافـر طويلـة مقصوصـة وعليها بقع من دهـان قديم للأحـذية، ورأيت أنهـا تتـزيّن بعـدد من الخواتم التي تبدو أنها ماسية. وكان الشعر المعدني ساقطاً في استرخاء إلى الأمام ليحجب العينين الشرقيتين الواسعتين اللتين حدّدت معالمهما بطريقة فجّة. وكنت أراها جذّابـة إلـى أقصـى حد. وملأنـي انفعـال

بالنفور والخزي، فخفضت بصري ناظراً إلى أوتو. كان نائماً، وفمه المفتوح أشبه بشقائق النعمان البحرية الحمراء المبتلّة.

- «أنت إدموند الذي جاء من الجنوب. هل لك في شيء من الويسكي؟»

- «كلا، أشكرك».

فالتقطت الزجاجة من حذاء أوتو، ورفعتها إلى شفتيها، مغمضةً عينها. «أنت تعرف أخي ديفيد. هل أعجبك؟ نحن من اليهود الروس».

- «أجل، أعجبت به. من أي مكان من انجلترا أتيتما؟».

- «لم نأت من انجلترا، وإنما من ليننجراد».

وأدهشني هذا قليلاً. إذ خيِّل إلى أنني فهمت من إيزابيل أن عائلة ليفكين تنحدر من سلالة روسية بعيدة.

- «وهل مكثتما هنا طويلاً؟».

- «منذ ست سنوات».

- «ولماذا غادرتما روسيا؟».

- «بسبب أبي. كنا صغاراً حينذاك، وكانت أمي قد ماتت منذ زمن بعيد. وكان أبي عازفاً على البيانو، وكان رجلاً عظيماً، ذائع الصيت، ولكنه لم يكن يستطيع أن يحبّ روسيا، لأنها تسيء معاملة اليهود. وكان يسخر من المعبد اليهودي، ولكنه لم يفعل ذلك في صميم قلبه. كان «في قلبه» دائم الحزن. وذات يوم صحبنا خلال غابة مظلمة كبيرة، وأخذنا نسير ونسير حتى أبصرنا أبراجاً خشبية ضخمة، وأنواراً باهرة، وطفقنا نجري ونجري، فقد كانوا يطلقون علينا الرصاص...».

- «ولكنكم نجوتم...».

ـ «أصيب أبي برصاصة في يده بحيث لم يعد يستطيع العزف على البيانو بعد ذلك إلى الأبد».

ـ «آه ـ أنا آسف ـ أين هو الآن؟».

ـ «إنه ليس في أي مكان. لقد مات ـ كما يقولون ـ بقلب محطَّم. وهكذا أصبحنا بعد ذلك أناساً متجوّلين. أترى هذه الخواتم؟ قبل أن يموت أبي، أعطانا هذه الماسات حتى لا نكون فقراء في أي بلد نحل فيه. وهي ذات قيمة كبيرة جدًّا، ولكننا لا نبيعها لأنها تذكِّرنا به».

كانت تتحدث بصوت متقطِّع أشبه بالأغنية وكأنها روت هذه الحكاية بهذه الكلمات نفسها عدة مرات من قبل. ورفعت الآن يدها، وأخذت تعكس الضوء بالماسات التي تحلِّي أناملها. ولم تكن تبدو كضحية، بل بالأحرى أميرة صغيرة ضائعة تحكي أسطورة أجدادها في بلاط ملكي غريب. ومع ذلك، فقد تمثَّلتُ المشهد الذي دار على الحدود، والطفلين الهاربين المذعورين، والأب بيده الجريحة. لم تكن أسطورة، بل قصة اليوم، وكل يوم، وكل إنسان. وطفقت أقول لها، وأقول لهم، إني آسف.

وها أنذا الآن أرى للمرة الثانية أنها قد لاذت بالفرار. وكانت قد رفعت ركبتيها إلى أعلى وقذفت بهما في الشق الممتد بين ركبتي أوتو، ثم ألقت بنفسها إلى جواره. وأغمضت عينيها، وكأنما دخلت في النوم على الفور. وتقلَّب أوتو كما يتقلب النائم عند ملامستها له، وفي لحظة ارتجف الجسدان وتنقلا في تعاطف قبل أن يستقرَّا في وضع الانضمام المشترك، فكان رأسها قبالة عنقه، وركبتاها داخل ركبتيه، ويدها في يده. وكان منظرهما كزوجين حميمين لا يطاق. وحملقت فيهما برهة، آدم وحواء، الدائرة التي انبثقت منها رزايانا جميعاً. حملقت فيهما حتى أصبحا مجرّد نموذج من الخطوط، رمزاً، وسَتَرْتُهما السجادة.

٧ ـ صنفان من اليهود

«إذن، فقد اكتشفت الطائرين العاشقين!».

كان ديڤيد ليڤكين يقف عند الباب. وما أن هممت بالابتعاد بسرعة من السرير حتى اعترض طريقي، وجذب الستائر لتنفرج على الجانبين. كان ضوء النهار مشرقاً، والصبح مشمساً.

وكانت الفكرة الوحيدة التي استولت عليّ هي أن أغادر المنزل الصيفي بأسرع ما في وسعي. فمرقت كالسهم من باب حجرة النوم، وقفزت تقريباً من درجات السلّم، وخرجت إلى الغابة الباردة حيث كانت تُلقي على جذوع أشجار البتولا بقعاً بيضاء صافية. وشعرت وكأنني أستيقظ من حلم مزعج. وخطوت عدّة خطوات هابطاً الممر.

وهنا لمس شخص ذراعي، فألفيت أن ليڤكين كان يتبعني. وأحسست بالسخط، وبأنني مذنب ـ دون سبب معقول ـ لأنه اكتشفني وأنا أراقب الزوْج النائم. وحثثت خطاي، ولكنه كان لا يزال يتبعني على بعد خطوة أو خطوتين ورائي. ولمسني مرة أخرى.

ـ «كيف عرفت بشأنهما؟».

ـ «لم أعرف شيئاً عنهما. كل ما في الأمر أنني سمعت أختك تبكي في المرجة، فتبعتها».

- «أجل، إنها تذهب أثناء الليل أحياناً كثيرة. وهي تعتقد أنها شبح، يزور البيت. ولكنها ليست حزينة. وأعتقد أنها تناسب أخاك. أليس الأمر كذلك؟

- «لا شأن لي بهذا». وواصلت سيري، دون أن أنظر إليه.

- «ولكنه سيكون من شأنك. لأنك ستبقى معنا الآن؟ ستبقى، وسوف تساعدنا؟».

قلت: «أغرب عني». وكنت أمقت نبرته الشبيهة بنبرة الرائي المتواطىء. وكنت أودّ أن أنسى أوتو وساحرته الشحيمة، ذلك أن أمرهما لم يكن يعنيني في شيء.

«إنهما ينامان جيداً، أليس كذلك. ويمكنك أن تراقبهما طول الليل. إنها الخمر على ما أعتقد. هل كانت أختي مستغرقة في النوم؟ أتعتقد أنها جميلة؟» وشدّ كمّي مرة أخرى.

واستدرت لأواجهه: «ليفكين، ليست لديّ أية رغبة لمناقشة شؤون أخي أو أختك معك».

قال منفعلاً: «شؤون! شؤون! وإسمي ينطق ليفكين ومعناه في الروسية «الأسد الصغير» وسمِّيت بهذا الاسم. أو على الأقل نستطيع أن نقول إنه يعني هذا، لأن الأسد في الروسية هو «ليف»....

وواصلت سيْري، فمشى في أعقابي، ثم بدأ في الثرثرة مرة أخرى: «أليس يوماً جميلاً، يا سيد إدموند؟ صباح بديع مشرق. أنا أعشق هذه الصباحات عندما آتي لإيقاظهم. ما أجمل ذلك. يقول أحد الفلاسفة إن جريمتنا العظمى هي أن نتجاهل ما في الدنيا من جمال».

- «امضِ لشأنك».

ـ «أيمكنني أن أطلعك على رسومي يا سيد إدموند؟ أنا أعمل قاطعاً للأحجار، ولكنني في الحق رسام. وأنت أيضاً رسام. . ».

فتوقّفت، وواجهته مرة أخرى. كان في نبرته شيء من التهديد، شيء منفِّر في هذه الثرثرة كلها، وتساءلت: ترى أيقوم بنوع من التمثيل. وكرهت مرحه فيا يتعلق بموقف أوتو، وخطر لي خاطر بعيد وهو أنه قد يكون عازماً على الابتزاز. والابتزاز شيء يناسب طراز صبيان أوتو.

قلت: «أنصحك أن تتدرّب على إغلاق فمك، وإلا وجدت نفسك في مواجهة بعض المتاعب. إن إقامتك في هذا البلد لا تكفي لكي تستطيع اقتناص أية فرصة. بل لا أظن أنك قد حصلت على جواز سفر بريطاني». واعتقدت أنه لا ضير في تخويفه قليلاً على نحو غامض. وكنت قلقاً من أجل أوتو، ولا أثق في هذا الفتى باصطناعه دور القوّاد المرح.

وكانت استجابة ليفكين مثيرة للدهشة، فقد انفجر في نوبة وحشية من الضحك، وضاعف من مرحه، ثم تواثب عالياً في الفضاء، ثم صاح وقد تقطّعت أنفاسه: «أنظر. إنني أستاً ـ سد، أستاً ـ سد!» وتوقّف لحظة في دورانه كالدوامة، وتأمّل وجهي الصارم، ثم عاد للضحك ثانية، وقال لاهثاً في نهاية الأمر، «ترى ماذا أخبرتْك؟».

وتولّتني الحيرة: «أخبرتني كيف جئتم إلى هنا. . ».

ـ «أية واحدة فيها، أية واحدة! لم أعد أحتمل ذلك!» وأمسك بطنه بكلتا يديه من شدة الضحك.

ـ «ماذا تعني، بأية واحدة؟».

ـ «أي قصة روتها هذه المرة؟ قصة السباحة في النهر، أم قصة الطائرة، أم قصة النفق. . . ».

ـ «قالت إنكم جئتم من خلال غابة. . . ».

- «وأصيبت يد أبي العجوز المسكين برصاص مدفع رشاش، ومن ثم لم يعزف على البيانو بعد ذلك قط، ومات بقلب منكسر؟».

- «أجل...».

- «والخواتم، هل أرتْك خواتمها، وكيف أنها ماسات أعطانا إياها أبي؟».

- «أجل...».

- «أوه، ما أظرفها! إنها تروي حكايات مختلفة وهي جميعاً كاذبة. وتلك القصّة أصبحت الآن قصّتها المفضّلة. لقد قرأتها في الجريدة، عن يد الرجل المسكين. لا، لا، يا سيد إدموند. نحن لسنا شعباً رومانسياً على هذا النحو. وأخشى أن تكون أختي المسكينة خيالية بعض الشيء. وأبي ليس عازف بيانو، ولكنه تاجر فراء، ولم يمت من قلب كسير، وإنما هو حيّ يرزق، وما زال يجمع أمواله، كما أننا لم نولد في لينينجراد، أو في أي مكان أخبرتك به، وإنما ولدنا في «جولدرز جرين». أما فيما يتعلق بالخواتم، فهي خواتم من زجاج اشترتها ببضعة شلنات. وهكذا ترى يا سيد إدموند أنك كنت مخطئاً في تهديدي، فأنا بريطاني مثلك ـ ولا أضمر أي أذى كما سترى عندما تعرفني معرفة أفضل، وعندما نصبح صديقين».

قلت: «أشكّ في حدوث ذلك. ولكن هل أفهمك.. أن أختك ربما كانت تتخيّل أن هذه الأشياء جميعاً...».

- «أجل، إنها ليست مجنونة تماماً، ولكنها ـ كما قلت ـ خيالية، وإنها تتخيّل، نعم.. وهي تظنّ دائماً أنها مضطهدة. هل حدّثتْك عن الرجال الصغار الذين يراقبونها في الغابة؟ كلا؟ إنها تعاني من كونها يهودية.. وتتعذّب من ذلك طيلة الوقت؛ وكل ما يحدث لليهود في العالم أجمع، تعتقد أنه يحدث لها هي بالذات».

قلت: «يا للطفلة المسكينة!» وتذكَّرت الوجه الشمعيّ، والعينين المحملقتين. أجل، ربما كانت مجنونة إلى حدّ ما.. ضحية أخرى لعالم شرّير. وتركت ليفكين يقودني عبر ممرّ يؤدي بعيداً عن المنزل، ويفضي بطريق ملتو إلى الورشة.

قال ليفكين: «ومع ذلك، فإنها ساحرة. . «روسالكا» كما يسمونها في روسيا. ثمة نوع من الموت يكمن فيها. وقد سقطت، أوه، سقطت منذ أن كانت صغيرة جداً. فعرفت رجالاً كثيرين جداً. وهذا هو ما يهواه اللورد أوتو. . إنها مجنونة، وإنها مومس. وهي تحبّه لأنه وحش، ولأنه حطام. ولكن، ينبغي ألا أتحدث على هذا النحو عن سيّدي، أليس كذلك؟».

قلت: «بلى، والآن. . .» والواقع أنني كنت مهتماً بما قال، وقد أخذت تطاردني بشدة الصورة الممزّقة للفتاة المسكينة المخبولة. واستطعت أن أفهم ـ بكل تأكيد ـ ما يمكن أن يفتتن به أوتو فيها.

واستأنف ليفكين حديثه وهو يسير خلفي عن كثب: «هناك نوعان من اليهود، فهناك اليهود الذين يتعذّبون، واليهود الذين ينجحون، يهود الظلام، ويهود النور، أما هي فمن يهود الظلام، وأما أنا فمن يهود النور. سأعمل، وسأنجح، سأنجح في الفن، أو إن لم يكن فيه، ففي مجال التجارة والمال، وربما في تجارة الفن. وسأربح أموالاً طائلة. ولن أتذكّر. لن أتذكر أيّ شيء. أما هي فكلّها ذاكرة. . إنها تتذكّر أكثر من اللازم، بل إنها تتذكر ذكريات لا تخصّها. وهي تعتقد أنها الأشخاص الآخرون، أولئك الذين يتعذّبون ويموتون. ومن ثم، فسوف تتعذّب، وتموت في ريعان شبابها، وهذا ما أخشاه. ولكنني سأترك هذا كله. . وسأرفع نفسي عالياً في العالم. سأحيا في عالم النور».

ـ «منذ متى استمرت هذه المسألة، مع أخي؟».

- «أوه، منذ وقت طويل، شهور وشهور، منذ أن كنا هنا».
- «هل يعلم بهذا أحد سواك؟».
- «انتظر، انتظر، يا سيد إدموند. لا تمشِ بهذه السرعة. كلا، كلا، لا أحد يعلم، سواي».
قلت: «حسناً، حافظ على ذلك. طاب يومك».

كنا قد بلغنا الآن حافة الحديقة، واستدرت مبتعداً عنه سريعاً عبر المرجة. وكانت الشمس قد جفَّفَت الندى. واحتضنت الديدان. كنت مضطرباً، متوتراً. وأردت أن أتروّى فيما حدث لي. ومع ذلك، كانت المسألة - بالطبع - ليست من شأني، فأنا لا أنتمي إلى هذا المكان، وكنت على وشك الرحيل، ربما هذا اليوم نفسه - وبهذا تذكرت فلورا فجأة. ونظرت إلى ساعتي، فلم أكد أصدِّق عينيّ. كانت قد تجاوزت العاشرة. وأخذت أركض صوب المنزل.

لم يكن من المفهوم لي بغتة أن أكون قد نسيت - ببساطة - موعدي مع الفتاة. إذ كنتُ، حينما أويت إلى فراشي الليلة الماضية - ممتلئاً به، بحيث لم أكن أفكر في شيء سواه. ومع ذلك، فإن ذلك المشهد الليلي المشؤوم، والأميرة المجنونة، وثرثرة ليفكين المنحرف، كل هذا قد أغراني، واستغرق خيالي، بحيث تلاشى ما كان أهمّ شيء من رأسي. وعدوتُ داخل المنزل.

كانت حجرة فلورا هي حجرتي القديمة. فجريت إليها بخطوات مسموعة، هزّت المكان. من المؤكد أنها ما زالت تنتظرني هناك. فطرقتُ بسرعة، وفتحت الباب.

كانت منضدة المذاكرة الصغيرة مهيّأة بعناية للإفطار، فعليها صحنان وعدد من جفان الفاكهة: تفاح، وموز، وبرتقال، ومشمش. وكان عليها أيضاً خبز وزبدة ومربى فريز سويسري، ودورق كبير مليء

باللبن. أعدَّت فلورا هذا كله بعناية ملؤها الحب. أما هي، فقد ذهبت. واقتربتُ ببطء أشدّ. وهناك، أبصرت بورقة مستندة على شيء فوق المنضدة. «انتظرت»، ولكنك لم تأت. فجلست ثقيلاً فوق الفراش، وقد استولى عليّ رعب من نفسي.

ورفعت عينيّ، فرأيت شخصاً ينظر إليّ. «أوه، ماجي.. لقد ذهبت، تقولين إنها بحثت عني في كل مكان؟ في حافلة الركاب، قبل العاشرة، بالطبع».

فرمقتني الفتاة الايطالية بتلك النظرة المتباعدة التي لا تصدر إلا عن خادمة، عن شخص مألوف، بتحفّظ لاشخصّي، غير مبتسم. وكانت بوجهها الرزين الذي لا يطالب بشيء، وثوبها الأسود المجهول الهوية، وكعكة الشعر المتدلية.. كانت بهذا كله أبعد ما تكون عن المكان الذي طافت به ذاكرتي في تلك اللحظة. وتقدّمت، ثم شرعت في وضع افطار فلورا البسيط على الصينية. وتسلّلت خلسة من الحجرة.

٨ - أوتو يعترف

قال أوتو: «حلمت بالأمس أن هناك نوعاً ضخماً من الثعبان في المنزل. وكنت أستطيع أن أسمع فحيحه وهو يتسلل ورائي من حجرة إلى حجرة. وكنت أجري لأصل إلى الهاتف. وأغلقت آخر باب دونه، وحاولت أن اتصل بالبوليس عن طريق الهاتف. غير أن قرص الأرقام كان ممتلئاً بالحشرات، فأينما وضعت إصبعي، وجدت كميات من الخنافس والسوس، فلم أستطع أن أدير القرص كما ينبغي دون أن أسحقها. ومن ثمّ لم أدر القرص، ثم كان أن أتى ذلك الثعبان...».

- «أين ذهبت فلورا؟».

قال أوتو: «ليست لدي أية فكرة، هل رحلت؟ أظن أنها عادت إلى الكلية. لم تعد تعبأ الآن بنا، فهي تغدو وتروح كما يحلو لها. الأفضل أن تسأل إيزابيل. وفي حلمي، كان سوس الخشب من النوع الذي يلتف حول نفسه، و...».

- «أوتو، في الليلة الماضية..».

- «أجل، أعرف. أخبرني ديفيد».

كنت قد بحثت عن فلورا دون جدوى. فأخذت حافلة الركاب التالية إلى محطة السكة الحديدية. واتصلت بالهاتف مع الكلية، وبيت

الطالبات الذي تمكث فيه عادة، بل لقد سألت عن السيد هوبجود، غير أن أحداً على الطرف الآخر من الخط، لم يبد عليه أنه سمع عنه. والواقع، أن أملي كان ضعيفاً في اقتفاء أثرها: لقد هربت، ومن ثَمَّ، فسوف تخفي نفسها. لقد قالت لي إنها ستفعل ما آمرها به، وطلبت مني أن أرعاها: وفي اللحظة الحاسمة، سمحت لعقلي أن يكون ممتلئاً إلى حافته بأمور أخرى. وخيِّل إليّ أنني تعرضت لنوع من السحر المريب، أسرني السحرة، وكأنما كان ذلك لغرض معيَّن. ومع ذلك، كنت أعرف أن هذا عذر زائف. فلو كان قلبي وعقلي مشغولَيْن بما فيه الكفاية بفلورا وهمومها، لما كان من الممكن أن أنسى النظر إلى الساعة. وأعرف أيضاً أن المشهد الذي جرى في المنزل الصيفي أثارني إلى أقصى حدّ. كنت متأثراً بشيء من الإحساس القديم بالصلة التي تربط حياة أوتو بحياتي. إحساس بأننا ـ وإن كنا مختلفين ـ شيء واحد. وقد فهمت فهماً لا مزيد عليه الجاذبية التي وقع أخي تحت سلطانها. أحسست بالشفقة، ومع ذلك أحسست أيضاً بأنني منحطّ، موصوم.

أصبح من الواضح الآن أيضاً أنني لا أستطيع الرحيل. كنت سجيناً في هذا الموقف. وفي وقت مبكر من اليوم، وأنا أتسكّع في حالة من الخمول الذي لا هدف له، كانت فكرة الرحيل تغريني إغراءً شديداً. فلورا هربت، إيزابيل معتكفة في حجرتها ولا تريد أن ترى أحداً، وأوتو مازال مُحَاصَراً في المنزل الصيفي. وانتابني إحساس بأنني شخص أخرق، غريب، مطرود. ما من شيء أستطيع أن أفعله لهؤلاء الناس. ومع ذلك، وعلى الرغم من رغبتي الحارقة في الرحيل، وحتى حين نصحت نفسي بالعودة إلى عالمي البسيط قبل أن يحدث لي ما هو أسوأ من ذلك ـ على الرغم من هذا كله، كنت أعرف أنني لا أستطيع. كان واجبي يدعوني إلى البقاء: هذه الكلمة المزعجة كانت تسمِّرني في مكاني. غير أن المسألة لم تكن هذا فحسب. بل أدركت بنوع من

الفزع أنني «أريد» البقاء. لقد أصبحت أنا نفسي جزءاً من الآلة.

وهنا استقر عزمي على أن أتحدّث إلى أوتو عن ليلة أمس. فلا بد أن الأخ وأخته أخبراه عن ظهوري. ولكنني شعرت بأنه ينبغي عليّ - إذا كنت قد قررت البقاء مخلصاً في هذا القرار - أن أتحدث إليه عن تلك المسألة بنفسي. قرّرت ذلك في شيء من الذعر، إذ كنت أعرف كيف يمكن أن تكون ثورات أوتو عنيفة ومباغتة. لم أكن أعتزم بالطبع أن أخبره بأي شيء عن فلورا. بل ما كنت أستطيع أن أتحدث في هذا الأمر مع إيزابيل. وأخذت أجوس خلال المكان، وأزور الورشة حتى ظهر أوتو هناك، وكان مشعثاً إلى أقصى حدّ، حوالي الساعة الخامسة. وخمّنت الحالة التي قضى بها بعد الظهر. ووجدت أنني لا أستطيع أن أمنع فضولي، وإن كنت أبغض الفضول، وتمنيت ألا يكون ظاهراً أكثر من اللازم بالنسبة له.

دخلت الورشة، لأجد «أوتو» وهو يفتح زجاجة من الويسكي، وكان قد ملأ بالماء دورقاً زجاجياً من برميل المياه، وأخذ يفحص مكتئباً السائل المائل إلى اللون البني والذي تسبح فيه حشرات صغيرة متعدّدة. ثم سكب في عناية شيئاً من الماء في كوب آخر، محاولاً إبقاء الحشرات في الدورق. ولم يكن ذلك يسيراً. ثم ملأ الكوب بعد ذلك بالويسكي، وجلس على بالة من القش المخصّص للحزم. وغاصت البالة فوراً من منتصفها، تاركة «أوتو» جالساً تقريباً على الأرض، راقداً على القش الذي اتخذ هيئة مهد، فبدا عاجزاً، كطفل هائل الحجم. وجلست على بعض كتل الخزف الوستمورلاندي.

- «أجل، أخبرني ديفيد»، قال أوتو هذه العبارة متفكراً، محملقاً في شرابه العكر. تنهد، ثم تجرّع شيئاً منه. «المشكلة عندما يصبح المرء مدمناً للخمر هي أن حالات الوعي العادية تكون بالفعل عذاباً أليماً.

وأعتقد أن هذا هو معنى «أن» يكون المرء مدمناً. احرص على أن تتجنّب ذلك، يا إد».

- «إني لحريص». وقررت أن أدعه يواصل الحديث في هذه المسألة إن أراد. . وكنت أستطيع أن أراه، متحدثاً، ناظراً إليّ، ثم راجعا ببصره إلى شرابه. وكانت سراويله الداخلية الصوفية الطويلة التي تظهر من بنطلونه تحجب حذاءه الطويل الذي غطّاه الغبار. وكان قميصه القذر مفتوحاً عند الرقبة، كاشفاً عن صديره المعتاد. ولا بد أن إيزابيل قد كفَّت منذ زمن طويل. عن الاهتمام بخزانة ثيابه.

«إذن، فقد رأيت جنِّيتي الشريرة».

- «أجل». ولم يسعفني التفكير بالتعليق عليها. كنت مفتونا بها. ولم يكن ثمة داع لأن أخبر أوتو بهذا. فأردفت قائلاً: «قال ليفكين. . إن أحداً لا يعلم شيئاً».

قال أوتو: «إنه يبالغ كالعادة. فإيزابيل تعلم أن شيئاً ما يدور في الخفاء، على ما أظن. وأعتقد أن إيزابيل تحاول ألا تفكّر فيّ، هذا كل ما في الأمر. ولكنها لا تعبأ بالتفاصيل. ولا بد أن الفتاة الايطالية تعلم أيضاً، فهي ليست بلهاء. أما فلورا فلا تعلم بالطبع - حمداً لله - لأنها بعيدة عن المنزل».

- «وهل كانت ليديا تعلم؟» وتصرّرت فجأة أن ليديا لا يمكن أن تحتمل شيئاً من هذا القبيل؛ وتحوّل الألم العجيب الذي سبّبه اكتشافي إلى حزن عليها ورثاء لها. . . لقد رحلت حقّا.

قال أوتو متمهلاً: «كلا. . كما ترى. . جاهدت جهاداً شاقّا للإقلاع عن هذا. . لا أستطيع أن أشرح لك هذا الأمر يا إد. . ومن المحتمل أن تظنني مجنوناً، ولكنه لا يشبه شيئاً عرفته من قبل. لم يكن بيني وبين

أية امرأة مثل هذه العلاقة الجسدية الكاملة كمالاً مطلقاً، والحقيقية تماماً. وربما اعتقدت أنني شخص مسكين لهذا السبب، ولكنها الحقيقة».

ولم يكن لي أنا نفسي أية علاقة جسدية تقترب من الكمال بامرأة من قبل، ولكنني لم أكن أريد أن أخبر أوتو بذلك. «وهذا شيء.. عظيم جداً؟».

- «إنها معجزة.. لقد غيرتني تماماً.. جسدي كله. أنا أعرف أن منظري يبدو كحطام هسبيروس(*)، ولكنني أشعر أنني أشعّ نوراً، وكأن لي جسداً ملائكياً. على حين انني مع إيزابيل - حسناً، إيزابيل تجعلني أشعر دائماً أنني مقزّز. معها «كنت» مقززاً، كنت خنزيراً، أشعر بأنني قذر. أما مع «إلسا» كل شيء أكونه وأفعله، فهو جميل. أوه، لا أستطيع الشرح. ولكن...».

- «ولكن، أتشعر بالذنب؟».

قال أوتو مرتاباً: «أظنّ ذلك، فنحن قبل كل شيء من الطهوريين».

وتجرّع الويسكي دفعة واحدة، وأخذ يتخبّط في القش محاولاً الوصول إلى الزجاجة. فناولته إياها. «العاطفة الجيّاشة هي عُذْرها نفسه. وفي البداية، لم يكن ثمة وقت للذنب، أو أي مكان لمثل هذه الفكرة. وجعلتها سعيدة كل السعادة. كنت أجثو على ركبتيّ كل يوم عرفاناً بالجميل. كان الأمر يبدو رائعاً إلى أبعد حد، «إنسانياً» إلى أبعد حد، ولكن، عندما اشتد المرض على ليديا...».

(*) وتكتب أحياناً Hesperos ومعناها في الأساطير اليونانية «نجمة المساء» (المترجم).

ـ «كان من المؤلم أشد الألم أن. . تَخْدع؟».

ـ «لم يكن الأمر على هذا النحو تماماً. فقد كنت أخدع كل إنسان عند البداية على سبيل المرح. كلا، كان الأمر أعمق من ذلك. لم أكن أستطيع المضي في غرامي بينما كانت ليديا تحتضر. كنت أشعر أنني أريد أن أتخلى عن الانتماء إلى جسمي. كان نوعاً من التعذيب الجسديّ البشع. أوه، يا إد، كنتَ محظوظاً لأنك لم تشاهد ليديا أثناء احتضارها. لم تكن تريد أن تموت، أنت تعرف. .».

وآثرت ألا أفكر في هذا. «وهكذا حاولت إنهاء تلك المسائل؟».

ـ «مع إلسا، أجل. ولم تكن ليديا هي السبب فحسب. بالطبع، كنت في رعب من أن تكتشف فلورا هذه الحكاية، فقد كان ذلك كفيلاً بأن يلحق بها أذى بليغاً. ولكنها كانت إيزابيل أيضاً على نحو مضحك. كنت أعرف إيزابيل، وما كان ينبغي أن أتزوّج على الإطلاق، إذ لا يناسب أحدنا الآخر بأية صورة من الصور. غير أن إيزابيل تمسكت بي، بطريقتها. إنها تملك نوعاً من. . . الكرامة الشجاعة. لست أدري إن كنت تفهمني. وكانت ليديا جحيماً بالنسبة لها. وتحولت هذه المسألة إلى نوع من الورطة التي لا مَخْرج منها؛ وإذا بدأ المرء في التفكير بمنظور المستقبل، فلن يجد لها مستقبلاً».

ـ «لا أظنك تفكر في الزواج من إلسا؟» فأجاب أوتو بعنف:

ـ «كلا، بحق السماء. كل ما أريده من إلسا «هو هذا» فحسب. وليست المسألة مجرد متعة شهوانية، إنها شيء طيّب، شيء جميل، لكل منا، إنه شيء في الحقيقة. كنت أشعر بحق دائماً أن الجنس شيء خطأ، ولكن ليس معها. أشعر أنني في هذا الطريق، طريق الحق لأول مرة في حياتي. فقد تزوجت إيزابيل تملأني مئات الأكاذيب، وكان

الحال سيّئاً منذ ذلك الحين. أما هذه المسألة مع إلسا فكانت نوعاً من التكفير، عودة رائعة إلى البداية. ولكنك ترى أنها عمل غير صالح، كُتب عليه الهلاك. ولا مكان له، ولا أستطيع مواصلة الحياة فيه. إنه ليس أبدياً، ولا بدّ له من بداية، ووسط، ونهاية. ليس هناك مكان أستطيع أن «أذهب» إليه مع إلسا، لا طريق هناك. وما أن أدركت «هذا»، حتى شعرت بأنه ينبغي التوقّف. وأتوقع أن يذهب تفكيرك أنني أبرر ـ ببساطة ـ هذه النزعة الحيوانية...».

وكنت أبعد عن التفكير على هذا النحو. وإنما طرأ على بالي أنني أعرف ما يعنيه أوتو بكونه «في الحقيقة». ولم أكن أبداً، في أي شيء يتّصل بالجنس اتصالاً مباشراً ـ قريباً من تلك الحقيقة أنا نفسي. «كلا، كلا. ولكن، أستطيع أن أفهم أنك ما دمت قد صوّرتها لنفسك بوضوح على أنها علاقة لا مستقبل لها ـ وعلى كل حال، فإن مثل هذه المسائل لا يمكن أن تدوم..» وأحسست بأسف شديد على أوتو، وبعرفان بجميله لأنه تحدث إليّ بصراحة.

قال أوتو: «ومع ذلك، أنت ترى.. كيف يمكن أن أهجرها، كيف أستطيع ذلك؟ هذا الأمر جوهري ومحال تماماً في الوقت نفسه. حاولت أن أقطع كل شيء في الربيع، وفعلاً، قطعت كل شيء. ولكنني لم أفسّر لها أبداً أي شيء تفسيراً حقيقياً. وقد قبلت من ناحيتها هذه العلاقة لأنها حسبت أنها وقتية، وأنها بسبب ليديا فحسب. ولكن الآن... لا أستطيع أن أعلنها بأنه لا بد أن ترحل، لا أستطيع. والآن، بدأ السمّ يسري في كل شيء. والزمان البريء انتهى. ومع ذلك، ما برحت تقوى كل يوم، الرابطة، الأغلال، الآلة. ويرعبني أنها ستبدأ في الشعور، بأنها، رذيلتي».

ـ «حواء جيسلبرتوس الحالمة..».

ـ «أجل، لقد تحدثت عن هذا، أليس كذلك. كانت هي ما أعني، إلسا. أنا أعرف أنها مخلوقة بريئة، وأقول هذا وإن كنت أعلم ما فعلته قبل أن تلقاني. أنا أعرف أنها بريئة، وإن كانت تبدو لي أحياناً على أنها تجسيد للشرّ المحض. أنا آسف، إذ يبدو ما أقول جنوناً. أنا أعرف أنه شرّي بالطبع ذلك الذي أسقطه عليها، ولكنني أراها بالفعل على هيئة شيطان.. وأنا أعرف أن هذا شيء له صلة برعبي من الجنس، وبحيوانيتي الحقيقية... غير أن هناك لحظات يمكن أن أقتلها فيها حقاً». وكان أوتو ينتفض، وعيناه جاحظتان، وفكه يختلج. أما فمه فكان يتكاثر ويفرخ في وجهه كأنه حيوان حي. وكان يناضل ليتخذ له وضع الجالس المستقر على القشّ، فيسكب في هذه المحاولة الويسكي على سترته.

وأحسست بتوتّر أعصابي، من أجله، وبسببه. بل خشيت أن ينهار الآن على نحو ينذر بالخطر. فتعمدت الهدوء وقلت: «أهي متعلّقة بك حقاً هذا التعلّق العميق؟ عندما قلت إنك لا تستطيع أن تهجرها...» فقال أوتو:

ـ «أوه أجل، إنها تحبني، وأظن أنني أول شيء تحبّه حقاً. ولعلها لا تستطيع أن تحب إلا نوعاً من الكاليبان مثلي. وأنا لها بمثابة الأب، والأخ، والابن، والعاشق. ولكن، ليس الأمر على هذا النحو فحسب. فأنا أشفق عليها إشفاقاً شديداً. وأنا حزين لها كل الحزن. وهذا ما يجعل من المحال ـ أحياناً ـ أن أتخلى عنها. فماذا يمكن أن تصبح حينذاك؟ كما أنني لا أستطيع أن أتحمل عبراتها، فهي شيء لا يُحتمل. وأنا أرثي فيها حزن العالم كله، على نحو ما».

ـ «تستطيع أن ترثي هذا في أيّ شخص.. أنت ترثي لها، ومع ذلك فإنها.. رذيلتك؟» قلتُ هذا بشيء من نفاد الصبر.

قال أوتو: «هذه الأشياء جميعاً تتصل اتصالاً وثيقاً. . ألا تعرف؟ الأسى، والهجر، والوحل، والخطيئة. وأنا لا أستطيع أن أصل إلى نوع اليأس الذي تعانيه، لأنني حين أشفق عليها، أزدريها. وأظن مرة أخرى، أن هذا شيء في نفسي حقاً. أشعر أنني ضحية، متورّط، آثم. . كل ذلك في خليط واحد. آه، لو كان في مقدوري أن أفصل هذه الأشياء بعضها عن البعض الآخر. هذا ما كنت أقصده بالاقلاع عن الخمر».

ـ «أن تتعذّب، على أن يكون عذابك خالصاً، دون عزاء؟».

ـ «أجل، أن أتعذّب كما يتعذّب الحيوان. . ليرتقي إلى ما يشبه التألّه. ولكن المرء لا يستطيع. «فمن ذلك الذي يمكن أن يفقد ـ وإن كان ممتلئاً بالألم ـ هذا الوجود العقلي، هذه الأفكار التي تجوس خلال الأبدية. . هذه الأفكار المتجولة هي المشكلة. وكان الذي قال ذلك مَلَكاً ساقطاً».

ـ «أعتقد أن الإنسان ينبغي أن يعاني كملَكَ غير ساقط. ولكن، ربما كنتَ على حق، فالعذاب الحيواني هو أقرب ما يمكن أن يصل إليه خيالنا. ولكنك تنحو إلى التفكير الميتافيزيقي، يا أوتو، ومن الأفضل أن تفكِّر فيها تفكيراً أبسط من ذلك. إنها شاذة قليلاً. . . أليست كذلك؟

ـ «أنت تقصد أنها مخبولة، مجنونة. لا أستطيع أن أفكر فيها على هذا النحو. إنها تبدو وكأنها تتقمص أولئك الذين يتعذّبون، وهي تفعل ذلك بقوة شديدة. وهي تقول أحياناً أشياء غريبة، وقد أخبرني ليڤكين بأشياء قالتها. . ولكنها ليست من الجنون في شيء. بل الأوْلى أن نكون نحن الذين لا نفعل ما تقول ـ مجانين».

ـ «تقول إن ليڤكين أخبرك. . ولكن، ألم تتحدث إليها بنفسك؟».

ـ «كلا، فنحن لا «نتحدث» بالضبط. أجل، نحن نتحدث. فليكن ولكننا نروي نُكَتا».
ـ «أوه. هل تثق في ليفكين؟».
ـ «أجل، بالطبع. إنه مخلص لي أشد الإخلاص».
ـ «إممم».

خيّم الظلام الآن على الورشة. وكانت الأضواء الضخمة التي تصل إلينا من فتحات السقف شديدة في زرقتها المسائية، أما الأضواء الداخلية فكانت بنية مُذْهبة، بحيث تجعل الأشكال المتراجعة من المدينة الحجرية أكثر حياة، وأبعد عن التعيّن في وقت معاً. ولم أكن أتمكن من رؤية وجه أوتو بوضوح. وفي محاولته الجاهدة للوقوف على قدميه، داس كمية ضخمة من القش، غطت ملابسه مقادير أخرى صفراء، وكانت ذراعاه متدليتين في استرخاء، ورأسه بارزاً، وكأنه دمية لم يشدّ خيوطها أحد، فهي تقف على قدميها بلا استقرار، بحيث يتوقع المرء أن يسقط في أية لحظة على نحو أو آخر. ونهضت أنا أيضاً.

ـ «إد، أيمكن أن تصنع شيئاً من أجلي؟».
ـ «بكل تأكيد، إذا استطعت».
ـ «أيمكن أن تتحدث إلى إيزابيل؟».

أدهشني ذلك، أو بالأحرى، أفزعني. «ماذا يمكن أن أقول لها؟».

ـ «أوه، أي شيء، كما تعرف. فهي تحترمك كثيراً. ولا بد أنها تعلم «شيئاً» عن هذا «الأمر».. ويضغط على أعصابي ضغطاً شنيعاً إحساسي بأنها... لا تفهم».

قلت متجهماً: «أشك في قدرتي على أن أجعلها تفهم».
ـ «كلا.. ولكنني، كنت أحبَ أن أشعر أنني اتصلت بها على نحو

ما، هذا كل ما في الأمر».

- «ولكنك يا أوتو - لا يمكن أن تكون فحسب، ما أنت عليه الآن - بالضبط. وعلى أي حال، فإن صلة باقية بينكما أنتما الإثنين، ليست من شأني، أو من شأن أي شخص آخر خارجي، وقد لا يكون في تدخّلي سوى الإضرار».

قال في عناد: «كلا، كلا، ستصنع خيراً، خيراً. شخص مثلك لا يسعه إلا فعل الخير. سوف تجلب العزاء إلى إيزابيل، وسترفع من روحها المعنوية. كما أودّ أن تعرف أنني لست مجرد وحش كما تتصور. وأتخيل أحياناً أنها قد تلوذ بالفرار».

أثّرت كلماته في نفسي، وإن كنت أحس أن حديث اليوم لم يزودني إلا بأقل القليل من المادة التي يمكن استخدامها بغرض التأثير على إيزابيل. «سأتحدث إليها قليلاً، إذا أردت. ولكنني، سأتحدث - على ما أعتقد - في عبارات عامة. ولا أرى ما يدعو إلى محاولة تفسير سلوكك لإيزابيل، ولا سيما الآن بالضبط!».

قال أوتو: «صحيح، صحيح» وبدا عليه السرور، فطفق يتأرجح جيئة وذهاباً في حماس، وكأنّ أحداً أخذ يحرك الخيوط الآن. «في عبارات عامة. هذا صحيح، في عبارات عامة، أنت بارع تماماً في الحديث بعبارات عامة.. في إمكانك أن تساعدها».

قلت: «ليتني كنت أستطيع أن أساعدك أنت.. ولكني لا أستطيع. ربما لأننا نفتقد نشأتنا الدينية». وتهيأت لمغادرته.

قال أوتو: «ربما كان الأمر خداعاً. ليست العقوبة، بل قبول الموت، هو الذي يغيِّر الروح. هذا هو الله. وبالطبع، لن يتسامح أي ديني مؤسّس مع هذا القول. وسأستمرّ في تخبّطي. شكراً لك على كل حال».

٩ ـ ادموند يتعرض للفتنة

سألتني إيزابيل: «مرحى، وما مقدار ما اكتشفه مفتِّشنا؟» وكانت تحرِّك النيران بعنف. وتقلّبت الكتل الخشبية على ظهورها لتكشف عن بطون ذهبية، وتعالى لسان ضارٍ من الشرر إلى سقف المدفأة. وكان المساء في أواخره.

قلت عابساً: «كل شيء، على ما أعتقد،» وحدّثت نفسي قائلاً: أكثر مما أستطيع أن أخبرك به يا إيزابيل المسكينة!

ولم أكن قد عقدت العزم بعد على أن أحدّثها عن فلورا. إذ لم يكن من المحتمل أن تكون فلورا قد ذهبت إلى أيّ مكان يمكن أن يعثر فيه أبواها عليها. وكنت قد وعدت جادًّا ألا أفشي سرّها، وكان هذا الوعد هو صلتي الأخيرة التي تنمّ عن حُسْن طويّتي بالفتاة. وما كنت أريد أن أعَرِّض للخطر بلا مبرّر أية قوّة تتوفّر لي لأساعدها فيما بعد. وهكذا قرّرت أن أخلد إلى الصمت في هذه الفترة. ولكنني أحسست بقلق شديد، وتمنّيت أن يحمل إلينا الصباح أنباءً جديدة.

قالت إيزابيل: «آه، ليس كل شيء. أنا على يقين أن ذلك ليس كل شيء بعد. ولكن، امض في طريقك. وسيطفو كل شيء على السطح، كريه الرائحة، كالمجنون». وكان على الجرامافون أسطوانة لفاجنر:

غير أن صوته كان خافتاً بحيث كانت الألحان الهادئة غير مسموعة، والنغمات العالية تنبعث كنوع من قرقعة الطنين.

كنت أنوي البقاء حتى الصباح قبل أن أقوم بتنفيذ ما طلبه مني أوتو، ولكني أحسست بالقلق وعدم الاستقرار فيما يتعلّق بفلورا، وهكذا كنت في حاجة إلى رفقة. كما كنت أيضاً ـ على نحو غير لائق ـ مشوقاً إلى معرفة ردّ فعل إيزابيل على «الملاحظات العامة» التي لم أفكر فيها مليًّا، ساعة دخولي حجرتها.

باستثناء مصباح تخفيه ظلّة داكنة في ركن بعيد، كانت النيران وحدها هي التي تضيء الحجرة، فكانت تلقي بأمواج هائلة من الوهج والظلال عبر المشهد. وكانت الحجرة ـ على ما أعتقد ـ ساخنة بفظاعة، وجعلتني الرائحة المسحوقة المنبعثة من الخشب العتيق، لا أتمالك نفسي من العطس. وفي هذا الضوء المتحرك الدافىء، كانت إيزابيل تبدو فاتنة، وأصغر من سنّها. وشعرها البنّي معقود ومتشابك في تسريحة ترتفع فوق جبينها ارتفاعاً يعادل طول وجهها الصغير بحيث يبدو كأنه قبعة مقصودة. وكان من الغزارة بحيث تساءلت عما إذا لم تكن قد أضافت جديلة من شعرها المقصوص وثبّتته بالدبابيس، وهذا شيء مثير للأعصاب أنبئت بأن النساء يلجأن إليه أحياناً. فمن الواضح أنها بذلت جهداً مضنياً: لماذا؟ ومن أجل من؟ لعلها تحاول أن ترفع من معنوياتها. يا للمسكينة الصغيرة إيزابيل! وتذكّرت ما قاله أوتو عنها من أنها كانت شجاعة.

وكانت ترتدي ثوباً قطنياً بلون المشمش، وأنبأتني ـ على سبيل التفسير ـ أن ماجي هي التي حاكته لها توًّا، ولهذا لم يكتمل تماماً. فما زالت خيوط «السِّراجة» عالقة به. والواقع أنها كانت تقوم بتجربته. هل تعتقد أن لونه جميل؟ وهل طوله هو الطول المناسب؟ وبشيء من

الانشغال المشوب بالخجل، صعدتْ على مقعد صغير (بلا مساند) لتستعرض نفسها في مرآة كبيرة فوق المدفأة. أليس الطراز ساحراً؟ ورأيت وجهها، وقد احمر قليلاً بفعل الحرارة، منعكساً في المرآة، عبر توهّجات الضوء المتقطعة، وهي تدور فوق المقعد، فأعطتني انطباعاً ذهبياً بفتاة طائشة ممتلئة. فأجبتها شارد الذهن.

- «قهوة، يا إدموند؟» وكانت قد هبطت الآن، وأخذت تشدّ كمّي. «اجلس من فضلك. ألا بدّ أن تلقي بالوسائد من المقعد على هذا النحو؟ أنت سيّىء مثل أوتو. والآن، ما المسألة يا إدموند؟ أخبرني «بكل» شيء عنها».

وعندما طلبت منها أن تلقاني، لم أستطع أن أتظاهر بأن هذا الطلب جاء عفو الخاطر، ولا يخفي وراءه غرضاً مقصوداً، ولم أتجنّب الظهور بمظهر الشخص المُثْقل بالأنباء. وجعلني هذا أضيق ذرعاً بنفسي، كما ضقت قليلاً بلهجة التهكّم الكائدة التي استقبلتني بها، وبأنها لم تأخذني على محمل الجد. وشعرت هنيهة بالتعاطف مع رأي أوتو في أن التهكم ينبغي أن يكون سبباً من أسباب الطلاق.

ولكي أجد شيئاً معقولاً يقال قلت: «أظن أن وصيّة ليديا لم تظهر بعد؟».

قالت إيزابيل: «لا، لم تظهر»، وكانت تبدو مهمومة: «لقد فتّشت الآن في كل مكان. وأعتقد - قبل كل شيء - أنها لم تستطع أن تكتب وصيّة. ومن ثمّ يمكن أن يكون لكل منكما النصف. كانت ليديا تملك أموالاً طائلة، كما تعلم، وإن كانت غاية في الشحّ».

ثم قلت متردّداً: «إيزابيل، تحدّثت إلى أوتو بعد الظهر...».

- «عما رأيته في المنزل الصيفي الليلة الماضية؟».

ـ أوه ـ فعلاً ـ أجل ـ أنا . . . » .

قالت إيزابيل في هدوء: «لا تقلق . فأنا أعرف كل شيء عن هذه المسألة . ولا يمكن أن يشكّ في ذلك إلا رجل غبيّ مثل أوتو» .

ـ «ولكن كيف عرفت أنني . . . ؟» .

ـ «أبصرت بك تندفع في إثر المرأة . ولا يمكن أن يسمع المرء فتيات ينتحبن على المرجة الأمامية دون أن يستنتج وجود خلل ما . حقاً ، إن أوتو جدير بالرثاء إذا تخيّل أن المسألة ما زالت سرًّا غامضاً في طيّ الظلام!» .

ـ «أعتقد أن أوتو سيشعر بالراحة إذا أيقن أنك تعلمين . إنه لا يستمتع بالخداع» . وانتقيت ألفاظي بعناية .

ـ «إنه لا يعترض أدنى اعتراض على الخداع ، كلّ ما في الأمر أنه لا يحب عملية اكتشافه . هذا شيء يسيء إلى أعصابه» .

قلت : «ينبغي أن تكوني أكثر عطفاً عندما تفكّرين فيه . فهو يعاني ألماً عظيماً من المسألة كلها ، وعنك» .

ـ «دعه يتعذّب إذن . ولكن هل بعثك حقًّا كرسول؟ وما المفروض أن تنجزه؟» وأطلقت ضحكة مرحة مقصودة كإطلاق طائر صغير من سجنه .

قلت : «متأسّف . كنت مرتبكاً . غير انني معجب بأوتو . ومنذ أن كنتُ طفلاً . . .» .

قالت : «إذن ، إذا كنت تريد الحديث عن نفسك ، فهذه بالطبع مسألة أخرى . . وأنا على أتمّ استعداد لذلك . فهذا أكثر تشويقاً . دعنا ـ إذن ـ نتناقش عنك يا إدموند . والآن أخبرني بكل شيء عن طفولتك» .

وتلقّيت هذا بوصفه توبيخاً لا بوصفه دعوة حقيقية . فليس من شكّ

أن إيزابيل تريد التحدّث عن أوتو. ولعلها كانت على حق حين انتَقَدتْ تدخّلي الغريزي بشخصي.

ـ «آسف. لست أنا موضوع الحديث. ولا يريد أوتو إلا أن يشعر بأننا نستطيع جميعاً أن نكون عقلانيين إزاء الموقف، الورطة التي هو فيها. يريد أن يشعر أن التحدّث عنها ممكن، والتفكير فيها ممكن على نحو ما، دون أن تثور ثائرة أحد. هو يريد أن يتمكّن من رؤية موقعه. وأعتقد تماماً أنه يريد حقًّا الخروج منه».

قالت إيزابيل: «إنه لا يريد الخروج. وإنما يريد مزيداً من الراحة في البقاء فيه. وهو يريد أن يشعر أنك قد خفّفت عني وذلك ليتمكن من التوقّف عن الشعور بالذنب. أما أن تثور ثائرة شخص ما، فمن يكون هذا الشخص سواه؟ إنه وحده الذي يقوم بالثورات جميعاً في هذا المنزل. ثم ماذا تقصد بقولك «حتى نستطيع جميعاً أن نكون عقلانيين إزاء الموقف»، من هم هؤلاء الجميع؟ لقد كنتَ الرجل الذي لا يستطيع أن يمنحنا نصف ساعة من وقته. لماذا لم ترحل كما قلت إنك ستفعل؟».

تمتمت قائلاً: «بعد الليلة الماضية..» وتمنّيت ألا تشير إلى فلورا. فقد كنت كاذباً خائباً.

ـ «أجل، لا بد أن الليلة الماضية كانت فاتنة. هل قدّموا استعراضاً من أجلك؟».

أحسست أنه لا بّد لي من إيقاف إيزابيل عن التحدّث بهذه النغمة. وكان محياها الجميل قد اتخذ تعبيراً هازئاً لم أحبّه على الإطلاق. فمن المؤكد أنني تعثّرت في الموضوع، ولم أكن أريد مجرّد إثارتها. كنت غبياً حين لم أدرك أن أوتو قد عهد إليّ بمهمة مستحيلة، مهمة لم تكن

إيزابيل جائرة في وصفها: لقد أراد مني أن «أجعل المسألة تبدو لا غبار عليها» بطريقة أو بأخرى.

وخطر لي أن أحاول أن أكون واقعياً.

- «منذ متى علمت بتلك المسألة، في واقع الأمر؟».

- «عن أوتو وتلك الفتاة البائسة؟ أوه، منذ أجيال، منذ البداية. فهما يحدثان ضجّة شديدة، هذا سبب من الأسباب».

- «ضجّة؟».

- «أجل، قَصْف، وعربدة. ليس معنى ذلك أنني أهتمّ بما يفعله الناس، فقد قرأت في الجريدة عن رجل لا يستطيع أن يضاجع امرأته إلا إذا ربطها بورق بنّي كأنها طرد. وبالقياس إلى هذا، يكون أوتو كلاسيكياً. ولكنهما يصخبان صخباً شديداً. إنه ماخور حقيقي هناك»(*).

وآثرت ألا أخوض في هذا الحديث: «إيزابيل، ينبغي حقاً أن تكوني محسنة، فتلك الطفلة المسكينة...».

قالت إيزابيل: «إدموند، لا تُثِرْ غضبي إلى درجة الموت. وأزح قدمك الضخمة من الطريق، لأنني أريد أن أحّرك منضدة القهوة. أنا لا أعبأ أن تكون لأوتو غراميات. هذا شيء يسّرني. ولكنني كن أودّ أن يكون هذا الغرام محترماً معقولاً مع فتاة عادية بدلاً من تلك المومس التعسة، تلك المخبولة الصغيرة كأنها ملكة في مأساة. كما أنه يعاملها كحيوان صغير، الكلب الذي أبَت ليديا أن يكون له أبداً. لقد سمعتهما ينبحان ويعويان أحدهما للآخر! وكل هذا تحت نافذتي. شيء حقير

(*) نطقتها بالفرنسية في المتن: C'est un vrai bordel la-bas. (المترجم).

ومقزّز للغاية، وأنا أمقت ما في هذه المسألة من قذارة، وافتقار إلى الذوق. . ».

قلت وكأني أرى المسألة بوضوح لأول مرة: «أعتقد أن أوتو لا يمكن أن يعشق إلا فتاة مثل هذه».

- «إذن، كان ينبغي عليه أن يعيش طاهراً مثل بقيّتنا. أنت تعلم أنه لم يعقد أية علاقة مع أولئك الصبيان».

- «أيَ صبيان؟».

- «الصبيان المساعدون».

- «أتمنّى ألا يحدث ذلك!» ولم تكن هذه الإمكانية قد خطرت لي على بال.

- «أنت مخلوق ساذج، يا إدموند. فلأنك لا صلة لك بالجنس، تعتقد أن الناس جميعاً رهبان وراهبات».

أصابني هذا القول في مقتل. كيف علمت إيزابيل أنه لا صلة لي بالجنس. لم يكن هذا حقاً وصدقاً على كل حال.

قلت في شيء من الخشونة: «ربما كان الأمر كذلك. وعلى كل حال، لستَ موضوع القضية، كما أشرت من قبل. هل أستطيع المساعدة في تقديم الخشب؟».

وكانت إيزابيل تخرج كتلة خشبية ضخمة نوعاً ما من الصندوق. فوضعناها معاً على قمّة اللهب، على حين نَثَر شلاّل من الرماد بين القضبان فقاعاتٍ متوهّجة على الجانب الحجري من المدفأة. «لا بدّ لك من حارس للنار، يا إيزابيل».

- «هكذا كانت ليديا تقول دائماً. وأنا لم أُشر إلى شيء من هذا القبيل. وإني لأوثر أن أتحدّث عنك لا عن أوتو».

كنا نقف الآن وجهاً لوجه أمام النار. وتزحزحت قليلاً، وقد لفحني الوهج العنيف. وكنت أحسّ بوجهي ساخناً ذهبيًا كوجه إيزابيل. «أأستطيع أن أطلعك على شيء، يا إدموند؟ أنظر هنا».

وبسطت إليَّ يدها. لم أتمكن للوهلة الأولى من استنتاج ما تحاول أن تطلعني عليه. ثم أدركت أنها اليد نفسها، اليد بالندبة الطويلة عليها. «هذا هو الموضع الذي أحرقت فيه نفسك...».

قالت في ازدراء: «كلا. أي إنسان يستطيع أن يتبين أنه ليس حَرْقاً! خذه، تحسّسه». ومدّت إليَّ يدها، وكأنها جسم غريب، فتناولتها بحذر شديد، وبخفّة. كانت كفاً صغيرة، وبرعشة طفيفة، تحسّست العمق الأملس للندبة.

- «ماذا تكون إذن...؟».

وأطبقت إيزابيل بأناملها على أصابعي. «فَعَلَ أوتو ذلك ذات يوم بإزميل. سأحمل هذه العلامة حتى موتي. ولم تكن - بحق السماء - المرة الوحيدة...».

قلت: «إني آسف...» واعتراني نفور تام أن يمدّ أوتو يديه على زوجته. كنت أعرف - بالطبع - أنه رجل عنيف، شديد الغضب. ولكني لم أتخيل شيئاً من هذا القبيل. وأنا نفسي إنسان شديد الهياج في بعض الأحيان، غير أنني ما كنت أُقْدم على ضرب امرأة.. هذه الفكرة نفسها ملأتني بالاشمئزاز.

«أوه، أنت لا تعرف شيئاً، يا إدموند. لا شيء..» قالت إيزابيل هذا بمزيد من الصراحة، واستدارت مبتعدة. «ولكن لا بدّ من أن تحاول الفهم، عندما جئت لتخبرني - بكل عطف - أن أكون محسنة، ومنصفة فيما يتعلق باوتو. أنا لا أعبأ بان يكون له العديد من الفتيات».

وحملقت في حذائي ذي الرقبة الطويلة. أحسست أنني غبي، مذنب؛ مريض، وبتقزز جسديَ من أوتو وإيزابيل، تقزّز لم يكن جائراً، بل كان غامراً. كنت في كثير من الأحيان قريباً من التفكير بأن المتزوجين حيوانات قذرة، وهذا المشهد من زواج أوتو وإيزابيل ملأني بغتة بنفور عام. فتمنَيت أن أغادر هذه الحجرة.

ولا بد أن إيزابيل فطنت إلى شعوري، أو لعلّها أحسّت بالتقزّز هي الأخرى، من أوتو، مني، بالمسألة كلها. فقالت بصوت بائس كئيب: «من الأفضل أن ترحل، ادوارد. لقد فعلت ما أخبرك أوتو أن تفعله».

واستولى عليّ شعور رهيب بالأسى عليها، وبالغضب من نفسي. وأردت أن أرجع بحديثنا إلى نوع من البساطة الشافية. قلت: «أرجوك يا إيزابيل، ألا أستطيع أن أساعدك، ألا أستطيع أن أفعل أي شيء؟».

- «بالطبع لا. أوه، فليكن، أجل تستطيع، أن تقوم بالمهمة التي سأعهد بها إليك الآن. تستطيع أن تزيل كافة خيوط السِّراجة من حواف هذا الثوب، فمن الممكن أن يكون هذا في نطاق قدراتك». ثم أطلقت ضحكة صغيرة مجنونة. «إليك، خذ هذا المقصّ. واحرص على قصَ «جميع» الخيوط، بدون أن تقطع النسيج نفسه».

ودفعت المقاعد إلى الخلف، لتفسح مكاناً أمام المدفأة. وبشعوري أنني أبله، ركعت مرتبكاً على الأرض، وشرعت في انتزاع وقصّ الخيوط البيضاء المثبتة عند أطراف الثوب. وبدأت هذه المهمة في إثارتي إلى أبعد حد. إذ شاهدتُ عن كثب ساقيْ إيزابيل المكتنزتين يكسوهما جورب من النيْلون، والقمة المشرشرة البيضاء من تنّورتها التحتية. وكان من الصعب ألاّ أرى أكثر من ذلك. وكانت تنبعث رائحة عطرية دافئة من الصابون والشذى والبشرة النظيفة المخملية. وحاولت أن أحافظ على ثبات يديّ.

قالت إيزابيل من عَلٍ: «هذا يكفي».

فوضعت المقصّ على الأرض، ونهضت. وفي أثناء وقوفي، أدركت على الفور أن شيئاً غريباً قد حدث. ذلك أن إيزابيل، كحورية في أسطورة، تحوّلت، تغيّرت إلى شيء آخر. ثم رأيت أنها قد تجرّدت من ثوبها القطني حتى خصرها، وأنها تعرض عليّ نهدين مستديرين عاريين ورديّين.

وقفت هادئة تماماً تنظر إليّ بنوع من التعبير المنبهر الضاري، وبعينين يملأهما حنين غامض، وبثغر انفرجت شفتاه تأمّلت نهديْها. ولم أكن قد رأيت نهديْ امرأة منذ سنين طوال. ثم تناولت الثوب القطني الذي كانت تمسك به منفرجاً تماماً، فسحبته برفق وإحكام لتنضمّ كل حافة إلى الأخرى مرة ثانية. وأحسست بكفّيها الصغيرتين ترتعشان داخل يديّ.

في هذه اللحظة، أو ربما في الثانية التي قبلها، كانت ثمت ضجة على الباب، طرقة، ثم صوت شخص يدخل. وأصيب كلانا: إيزابيل وأنا بشيء من التبلّد والارتباك نتيجة للصدمة التي واجهت الشخص الداخل. وكادت إيزابيل تتوقّف عن الحركة، وعن الالتفات، عندما دخلت ماجي الحجرة تحمل صينية، ثم توقّفت فجأة أمام لوْحتنا الصغيرة.

أعقبتْ هذا لحظة صمت، ثم أغلق الباب في حدّة مرة أخرى. واستأنفنا إيزابيل وأنا الحملقة الواحد إلى الآخر. وشرعت تبكي في هدوء.

١٠ ـ العم ادموند في مقام الوالدين

الطريقة المثلى لعلاج شرخ في خشب البَقْس هي أن تترك كتلته في مكان بارد رطب لمدة أربعٍ وعشرين ساعة أو نحو ذلك؛ وفي العادة يُشْفى المريض شفاء معجزاً من شرخ حادّ. وقد فحصت وأنا في حالة من الرضا الكتل التي أنقذتها لتوّي من القبو. وكان علاجها موفّقاً. وهؤلاء الناس الذين لا يتعاملون مع مثل هذه المادة، مع هذه الجوانب الشيئية من الطبيعة قد لا يتخيّلون أو يصدِّقون أن قطعة من المادة غير المشكَّلة يمكن أن تبدو حاملاً، حافلة بالإلهام. أما أنا فأستطيع أن أتخيّل كيف يمكن أن يشعر النحّات إزاء كتلة من الحجر، وإن كنت لم أشعر بهذا الشعور أنا نفسي. غير أن قطع الخشب يمكن أن تُطلق خيالي في سباق حتى حين أتناولها. وثمة اختلاف بديع بين خشب البقس وخشب الكمثرى، الذكر والأنثى في عالَم الحفّار على الخشب. ولكن هناك أيضاً الاختلاف الفردي القويّ بين قطعة من خشب البقس وغيرها من القطع. فكلٌّ منها ممتلىء بصورة مختلفة.

ها قد مضت أربعة أيام. . وما زلت أنتظر، ما زلت أحوم حول المكان. لم يكن لدي تصوّر جديد عن دوْري أو أي تصوّر واضح عن المسألة كلها، بكل تأكيد. وكذلك لم يحدث أي شيء، ولم أفعل شيئاً. فلورا لم تعد، ولم أتمكن من العثور عليها. كنت بائساً بحقّ

وعدل. وفي لحظات معينة كنت أحدِّث نفسي بأنني «متورّط» ببساطة، أو أنني أنتظر في فضول قاتل وقوع كارثة لن أكون فيها أكثر من متفرّج لا ترجى منه فائدة أو يشعر بشيء من السرور والارتياح. ثم حدّثت نفسي بأنه ينبغي عليّ أن أرحل. كان هناك ضرب من الغرور في بقائي، رغبة مزهوّة في استرداد كرامة ضائعة. وكنت متأثّراً أعمق مما أحبّ أن أعترف به بالصورة التي رسمتها لي إيزابيل بوصفي مُعَالجاً. ولما كنت لم أشف أحداً، وأخفقت إخفاقاً ذريعاً في المهمة الوحيدة التي كانت لي فيها قدرة ضئيلة على فعل الخير، فمن الأفضل ـ بهذا جادلت نفسي ـ أن أعود إلى بيتي، وأن أجترّ العجز المرير الذي صادفته رحلتي. خير لي أن أعود إلى بيتي، وأن أندب ليديا.

ومع ذلك، فقد مكثت. فبعد هذا كله يبدو من المحال أن أرحل بغير المزيد. كنت متورطاً، دون أن يكون ذلك بالمعنى السّيء. فقد مكثت لأنني أضمر لأخي وزوجته نوعاً من العاطفة؛ كما أنني مكثت لكي أحافظ على ضرب من العهد بيني وبين فلورا. وقد قمت بزيد من المكالمات التليفونية العقيمة. ولكنني لم أخبر إيزابيل بشيء حتى الآن. وكانت هذه المشكلة تعذّبني عذاباً مستمراً، غير أنني قررت أنه من الأفضل التزام الهدوء. ستكون إيزابيل عاجزة مثلي، ولو تطوّرت المسألة إلى الأسوأ، فقد يكون من الأفضل الأّ تعلم إيزابيل على الإطلاق ـ أو إنه ليبدو من العدل ـ على كل حال ـ أن يترك القرار بين يديْ فلورا. وأنا من الأشخاص الذين يتمسّكون حرفياً بوعودهم. ومن وجهات النظر جميعاً، كان من الأفضل بقاء أوتو في الظلام. ولكنني كنت معذَّباً بمسؤوليتي، وبشعوري أنني لا ألتزم الهدوء إلا لأنني لا أريد أن أستقيل من هذا المركز المتميِّز، ولا أريد أن ينهار الموقف من يديْ إيزابيل، حتى لا أصبح على الهامش. وهكذا كنت أناقش المسألة بلا انقطاع.

وكذلك حاولت أيضاً التفكير في ليديا، ولكنني لم أستطع الاهتداء إلى طريقة للتفكير فيها. وكان يبدو لي من المناسب أن أبدأ الآن وهنا، حيث يوجد إحساس حادّ بحضورها، وغيابها، وأن أنسج وأرتدي، فكرة موتها. بيد أنني واصلت التظاهر بنسيان أنها ماتت وكأن «هذا» لا يعني شيئاً، ودأبت على الرجوع بخيالي إلى ليديا العجوز التي لا تموت، والتي أحملها داخل نفسي. وبهذا النوع من التأمّل لم أكن أستطيع اختراع أي دافع محترم للبقاء. وراودتني الفكرة أحياناً بأنني لا أبقى حقاً إلا لأنني لا أستطيع مواجهة العودة إلى شقتّي الصغيرة الموحشة التي أصبحت بعد أن غادرتها ـ باردة ولاشخصية تماماً، وكأنها نسيتني تماماً حين أوصدت الباب. بل إن صومعة الراهب تبدو إذا قورنت بها مشحونة بالدفء والمرح كحظيرة الخنازير. كانت شقتي، رغم بكل ما فيها من تعاسات، بيتاً مسكوناً على نحو بديع. ومن مكان ما داخلها ـ لست على يقين من تحديده ـ كان يصدر نسيم لطيف يفرض نفسه، ويجعلني أشعر بأنني في بيتي على نحو غير متوقع.

كنت قد وعدت أوتو أن أساعده في تفتيش متاع ليديا كله، ولكننا كنا نرجىء هذا العمل يوماً بعد يوم. كنا ما زلنا نخشاه، وكأننا سنرتكب نوعاً من الدنس إذا لمسنا متاعها. وهكذا أخرجنا في فتور محتويات مكتبها الذي عبثت به إيزابيل من قبل وأشاعت فيه الفوضى. ومع ذلك، لم يظهر للوصية أي أثر، وانتهينا إلى أنه لا وجود لوصية ما. غير أننا وجدنا أشياء أخرى كثيرة، منها جميع رسائلنا التي كتبتها أنا وأوتو لها من المدرسة، مربوطة في شرائط: رسائل أوتو في شريط أزرق، ورسائلي في شريط وردي. وحملنا هذه اللفائف دون أن نفتحها إلى المطبخ حيث أحرقناها. ولم يجرؤ أحد منا على لمس ملابسها. وكانت هناك دواليب ملأى بثيابها الطويلة الزاهية؛ ولما كانت إيزابيل ترفض أن تتدخّل في هذه المسألة، فقد طلبنا من ماجي أن تتدبر هذا الأمر.

ومن ثمّ اختفت الثياب جميعاً بين يوم وليلة، بعد أن تمّ توزيعها بلا أدنى شك ـ على أولئك الذين يعيشون في المدينة ويسمّيهم أوتو «متسوِّلي» ماجي.

وفيما يتعلق بإيزابيل، لم يعد ثمة مزيد من «التفسير» بعد المشهد العجيب الذي جرى بيني وبينها في حجرة نومها. غير أن ضرباً من السلام أو الهدنة، قام بيننا أسهمت فيه بتلك الكرامة المترّمتة التي عالجت بها تلك المناسبة، على حين أسهمت فيه إيزابيل بضرب من الندم الفلسفي الأسيان. لقد تصرفت خيراً مني، وأحببت أن أقوم بلفتة أكثر تحديداً، وأكثر ودًّا نحوها، غير أنني كنت أخشى اتخاذ المبادرة في مزيد من التورّط. والواقع أن الموقف قد تمّ إنقاذه بعاطفة لم تعبِّر عن نفسها بكلمات من كلا الطرفين، واستمرّت علاقتنا وكأن شيئاً لم يحدث، أو لم يكد يحدث. وشعرت بأنني اكتسبت ـ سواء كان ذلك للأحسن أو الأسوأ ـ رؤية أوضح لصورة إيزابيل عن نفسها بوصفها صنفاً من الملكة الجنسية أو الامبراطورة المجْهَضَة. فلو أنها كانت امرأة أسعد من ذلك، إذن لاتخذت لنفسها في مدينتها الصغيرة دور لو آندرياس ـ سالومي(*) ولكن ما حدث هو أنها أشعّت تلك الموجات الصغيرة الغامضة الغائرة للحاجة الجنسية ولما يمكن أن يكون لها من سلطان، والتي ـ على الرغم من عدم اكتراثي الصارم بها ـ كان لها تأثير مُرْبك بوجه عام.

لم يُتَح لي مع أوتو حديث آخر من ذلك النوع الحميم، بل لم أكن أراه إلا نادراً، إذ كان يبدو أنه ينفق الآن معظم النهار في المنزل

(*) امرأة من أصل روسي هاجرت إلى أوروبا واتخذت لها عدداً من العشاق العباقرة كان منهم نيتشه وفرويد ورلكه والشاعر الفرنسي بول ريه، وتزوجت أخيراً من عالم في الآثار (المترجم).

الصيفي. وقد ترددت على الورشة الخالية من حين إلى آخر، فأحزنني أن أرى أدواته عاطلة خاملة. أما ليفكين، فلم يقع عليه بصري إلا في الحديقة على مسافة بعيدة. وما أن يراني حتى يبدو وكأن الضحك قد أصابه بتشنّج، فيأتي بحركات هستيرية، ثم يتقافز في الهواء. غير أنني تجاهلت هذا كله.

كنت ألتهم برتقالة، والغابة المظلمة الآن تفوح منها رائحة الفاكهة النفّاذة. كانت من روائح الطفولة تحوم بمزيج معين من الأشياء البريئة والمقزّزة في آن واحد. والبرتقال هو إحدى الفواكه القلائل التي أحبّ مذاقها، وإن كنت أمقت رائحتها. وأخذت أكدّس كتل الأخشاب بعناية، وألملم قشر البرتقال بترتيب على المنضدة. كنت أجلس حينذاك في المطبخ. فبالأمس فحسب اكتشفت أن المطبخ يلائمني ملاءمة حسنة. وكان الجو قد تحوّل إلى الريح والمطر، فكنت سعيداً بهذا الركن الدافىء. ولما كنت زاهداً في الصحبة وفي التقشّف الغريب الذي تتّسم به حجرة أبي على حدّ سواء، فإنني وجدت أن الجلوس في المطبخ لا يتطلّب أيّ تبرير. كان مكاناً مربعاً، فُرِشت أرضيته بمشمع لامع تتقاسمه مربعات سوداء بيضاء ضخمة كأنه أرضية في احدى لوحات تينتوريتو(*). وكان الموقد الڤيكتوري الأصيل، وهو آلة كان أبي يعتزّ بها كثيراً، يتوهّج ويرسل صوتاً كالخرير في أحد أطراف المطبخ حيث وضع في محراب ضخم من القرميد الاسكتلندي تحوطه مقاعد مُمَلَّدة مثبتة في مكانها. أما طاولة العمل الضخمة، بسطحها المجهد المنقور من أثر الاحتكاك الذي لا يرحم، فكانت شيئاً مألوفاً ليديّ وعينيّ. إذ كانت المكان الطبيعي الذي يمكن أن يقوم فيه

(*) جاكوبو تينتوريتو (١٥١٨ - ١٥٩٤) رسام ايطالي كان تلميذاً لتيسيان واشتهر بلوحة «القديس مرقص ينقذ عبداً» (موجودة بأكاديمية فينيسيا) (المترجم).

المرء بأعماله المنزلية، كتركيب اللعب الآلية (الميكانو)، أو إخراج الأجزاء الداخلية من جهاز كهربائي. وهنا أيضاً حطمت ـ في شغف ـ كُتَلي الأولى الثمينة من الخشب. وهنا كنت أغشى المكان في الحزن والفرح في عهود الكارلوتات والچيولياتات والڤيتورياتات، حسب ما تسعفني به الذاكرة.

كانت الساعة الخامسة مساءً، وهي ساعة أكون فيها دائماً قلقاً لا يستقرّ لي قرار. وكنت أتألم الآن ألماً مستديماً من أجل فلورا. كما لم أكن قد أفقت بعد من الصدمة التي وجهتها إليّ إيزابيل، وهي صدمة انفصلت عنها الآن على نحو عجيب وكأنها جنيٌّ خرج منها، وما زال يغيظني حتى الآن. ومددت ساقيّ، وأخذت أتأمل عند الطرف الآخر من المنضدة كوماً من الحرير الأحمر بلون الكرز كانت ماجي تقوم بحياكته، وأغلب الظن أنه رداء لإيزابيل. وكانت الفتاة الايطالية بوصفها وصيفة منزلية حقيقية تصنع دائماً ملابس إيزابيل وليديا. والفساتين الغجرية الجميلة التي كانت ترتديها ليديا، والثياب التي كان أبي العزيز يوحي بها ويحب كثيراً أن تضعها زوجته، كانت كلها من صنع ماجي. أو لعلها كانت من صنع جوليا أو جمًّا أو كارلوتا.

وكانت ماجي قد تركت الخِياطة، وانهمكت في تنظيف دجاجة مقطوعة الأوصال وبعض الخضروات فوق منضدة جانبية. وكانت الدجاجة تئز الآن أزيزاً ناعماً في طاسة، على حين أخذت أصابع ماجي الصغيرة السريعة تنزع الجلود المهترئة الملطخة من فطريات ضخمة، كاشفة عن الغضاريف اللحمية الدسمة. وفوق قُرْمة بيضاوية لتقطيع اللحوم والخضروات، قامت في حركات سريعة رشيقة بتقطيع فروع بيضاء مصفرَّة من الكرفس وبصلة كبيرة مبتلة. فأسالت رائحتها النفاذة الدموع من عينيّ، على حين أخذت ماجي الآن تنتزع غشاءً

ورقياً رمادياً مفضضاً عن الثوم لتقشّر الفص الأصغر المكتنز في داخله. وكانت هناك زجاجة من النبيذ الأحمر قائمة أمامها على المنضدة. وصعّدت بصري من يديها إلى أعلى. كان وجهها الشاحب البارز العظام يبدو مكتئباً مجرّداً، وكانت عيناها الداكنتان الواسعتان القاسيتان منذّاتينْ قليلاً بفعل البصل. والأرابسك القوي عند فتحة الأنف يتردد صداه من القوس الذي يرسمه الثغر الرفيع الطويل. كان وجهاً قوياً ذكياً، ولكنه بلا حماية. أما شعرها الغزير الذي شدّته بعنف إلى الخلف، فكان يتدلّى في الكعكة المعقوصة الطويلة، حالك السواد كالعقيق، لامعاً كالطلاء. ولم تكن تضع على وجهها أية مساحيق. هل كانت الأخريات على شاكلتها؟ وما كنت أستطيع أن أتذكر كيف كان شكل هؤلاء الأخريات.

- «ما هذا العَكّ الذي تطبخين يا ماجي؟».
- «دجاجة على طريقة الصيّاد»(*).

ومن القاعة الخارجية ارتفع ضجيج مفاجىء، تلاه صوت شخص ما يعدو محدثاً ضوضاء وهو يصعد درجات السلّم. فاستدرت استدارة حادّة، وهناك، في لمحة سريعة رأيت فلورا ترتدي قبعتها وسترتها. فوثبت من مقعدي، وخرجت من المطبخ في ثانية واحدة.

وأغلق باب حجرة فلورا في وجهي بعنف شديد، وسمعت صوت المفتاح وهو يدور في القفل. ضغطت على الباب وقلت بصوت خفيض: «فلورا، فلورا...» وخدشت الباب بأظافري كما يفعل

(*) دار هذا الحوار باللغة الايطالية في متن الرواية. و «الدجاجة على طريقة الصياد» هي بالفرنسية Poule à la chasseur وهي طريقة لطهو الدجاج بوضعه في النبيذ (المترجم).

الكلب. لم أكن أريد إزعاج إيزابيل. وكنت أريد إلى درجة من الاهتياج واليأس أن أرى الطفلة على انفراد، لأعرف ما حدث، ولمجرّد رؤيتها. وكنت ألهث فعلاً من الغيظ والقلق: «أرجوك يا فلورا..».

وبعد لحظة أو لحظتين، فُتح الباب في هدوء، فانسللت إلى الداخل. كانت فلورا قد خلعت قبعتها وسترتها. وكان شعرها معقوصاً في كتلة واحدة متماسكة وراء رأسها بمجموعة كبيرة من المشابك والدبابيس، وكانت تبدو أكبر من سنها، وأجمل؛ وظل وجهها نفس الوجه الشفّاف، بلون اللبن، دون شية فيه، وجه الفتاة الصغيرة. وقفت مستقيمة وعلى وعي بهذه الاستقامة، مشدودة القوام، وقد ألقت برأسها إلى الوراء في شيء من التحدّي.

«حسناً، يا عم إدموند، ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك؟».

كادت أنفاسي تتقطّع من الصدمة، من خوف مفاجىء وندم، بانفعال آخر، وأنا أراها طويلة على هذا النحو، فاتنة كل هذه الفتنة، كاملة إلى هذا الحد، ممتلئة بسلطان الشباب المثير للأعصاب: «أوه، فلورا، كنت شديد القلق عليك. وأنا آسف أشدّ الأسف لعدم مجيئي ذلك الصباح. جئت متأخراً، فوجدت أنك قد ذهبت...».

قالت: «لا يهمّ. سيان، لا فرق هناك». وحملقت إليّ بنوع من التألّق المجنون في وجهها.

- «ماذا حدث، يا فلورا؟».

- «أخرجته!» وضحكت ضحكة قصيرة.

- «يا إلّهي!» وجلستُ على سريرها. عرفت ذلك، بالطبع تبيّنت ذلك على الفور، عندما رحلت، كان هذا هو ما سوف يحدث. ولكنني

شعرت بألم جديد، شعرت كأنني قاتل. «ما كان ينبغي عليك. . .».

«قرّرت أن أخلاقياتك كلّها لا تصلح. وهناك لحظات على المرء أن يتبع فيها غرائزه، عندما ينبغي على المرء أن يفعل ما يريد. وكنت أريد أن أنتزع ذلك الشيء مني إلى الخارج. ولو أنني ولدت هذا الطفل، لقتلته».

ـ «لقد قتلتهِ فعلاً». كانت الألفاظ فظّة، ولكن نفسي هي التي كنت أتهمها.

دقّت بقدمها على الأرض وقالت: «ليست المسألة على هذا النحو، ماذا تعرف عنها؟ أنت رجل. ولا تستطيع أن تتخيّل شعوري بذلك السرطان الذي يسري في داخلي، أن تشعر بأنه يلتهم شبابك، وسعادتك، وحرّيتك، ومستقبلك كله. يستطيع الرجال أن يتحدّثوا عن الأخلاق! ولكن من منهم سمع عن مشكلات الأبويْن اللذين لم يتزوَّجا؟ لا مشكلات لديهم!».

كنت أعرف أنه من غير المجدي، ومن القسوة تأنيبها الآن. كانت ممتلئة إلى حافة كيانها كله بذلك الاحساس بحقّها في الحرية، حقّها في السعادة الذي يجعل الشباب ـ في مواجهتهم للكبار ـ يفقدون كل جاذبية، وكل رحمة. ليس لإنسان الحق في السعادة، أو بسبب هذا ـ ليس له الحق في أن يدوس على حياة الآخرين. ومع ذلك حدّثت نفسي قائلاً بعد أن وجّهت اللوم كله إلى نفسي بحركة آلية قديمة: أستطيع أن أرى ذلك بهذا الوضوح لأنني تخليت منذ زمن عن آمالي في أن أكون سعيداً. أما هي فما زالت تفكّر في مصير سعيد.

كان كل منا في مواجهة الآخر. وكنت ما زلت جالساً، وهي متكئة على حافة النافذة، ذقنها مرفوعة، ويداها تسويان في عصبية ثوبها

الصوفي الجميل المقلم بخطوط مختلفة الألوان والشبيه بمئزر الأطفال (بغير كمّين) كانت تبدو غاية في الفتنة، ممتلئة بالحياة الجديدة التي وهبتها لها الحياة التي ضخت بها. وأحسست بلذعة من الحسد الممتعض، وبنوع من الاعجاب بحيويتها الخالصة في الوقت نفسه.

قلت وقد أربكتني وشوشت أفكاري: «أرجو على الأقل أن تكوني قد تصرفت بحكمة وأتممت المهمة على ما يرام. . .».

- «أوه، على خير ما يرام! أقرضني شخص ما شيئاً من المال».
- «السيد هوبجود، على ما أظنّ. وما شعوره هو عن هذا الموضوع. .».

كنت أسمع نبرات الشيخوخة والحسد في صوتي، ولكني لم أقدر على كبتها. وكدت أدفن رأسي بين يدي وأبكي غضباً وحزناً على المسألة كلها. وكان أهم ما في الموضوع وهو أنها قَبِلت القضاء على حياة إنسانية ـ قد أزيح عني تماماً، فبدا متناهياً في الصغر، ضائعاً كالجنين نفسه.

- «هوبجود؟ . .» ونظرت إليّ لحظة دون فهم. ثم شرعت تضحك في وحشية! «أوه، تشارلي هوبجود، فليباركه الربّ! كان حكاية مختلفة تماماً. كل ما في الأمر أنني اخترعت اسماً بوحي اللحظة».

- «تقصدين. . . إنه كان شخصاً آخر؟».
- «ما أسرعك في الفهم، يا عمي إدموند! أجل، كان شخصاً آخر. خمِّن من يكون!».

ونهضت على قدمي، أما هي فجلست واضعة ساقاً على أخرى، وهي تسوّي قميصها على ركبتها. وكنت أرى الآن أنها ترتجف انفعالاً.

تلعثمت قائلاً: «لا أدري، يا فلورا. . .».

- «أنظر حول المنزل، أنظر حواليك. هناك ولد وسيم، جدي صغير وسيم . . .».

- «يا إلهي! ليفكين. ليس هو بالتأكيد. أنت لا تقصدين أن ديفيد ليفكين . . . كان أباه . . . ؟».

- «أوه، ما أغباك! أجل، بالطبع. ألم يكن ذلك واضحاً؟ لماذا لا تستطيع التخمين والفهم؟ ولماذا تقول كل شيء على هذا النحو الفجّ؟ أنت شديد الفظاظة نحوي. الرجال جميعاً قساة غلاظ الأكباد. أنظر إلى أبي. إنه يشبه وحشاً ضخماً، خرتيتا أو شيئاً من هذا القبيل، قبيحاً، عنيفاً، بشعاً. وأنت على شاكلته تماماً . . .».

كان صوتها مرتفعاً دامعاً. فوضعت يديها على وجهها، إحداهما على فمها، والأخرى انتشرت بأصابعها فوق جبينها، وكأنها تمنع رأسها من أن ينفجر.

ونظرت إلى أناملها المتوتّرة الضاغطة. وأحسست لحظة بأنني يكاد يُغْشى عليّ من الغضب. ديفيد ليفكين: «لماذا لم تخبريني؟»

فسحبت يديها بعيداً. وكست الحمرة وجهها، وبلّلته الدموع، ولكنها كشَّرت عن أنيابها في مواجهتي وقالت: «ولماذا أخبرك؟ ألديك أيّ حقّ لمعرفة الحقيقة؟ إنك لا تأتي هنا إطلاقاً، ولا أكاد أعرفك. أخبرتك لأنه كان لا بدّ لي من أن أخبر أحداً، وكنتَ نافعاً جداً! ولكنني لم أكن واثقة من أنك لن تخبر أبي، بكلّ ما لديك من أفكار صبيانية. وأنا لا أريد أن يُحطِّم أبي رقبة ديفيد».

- «ولماذا تخبريني الآن؟». وكنت أتكلّم ببرود، غير أن داخلي كان يغلي مضطرباً بالنيران. وكنت أفهم جيداً مخاوفها فيما يتعلق بأوتو.

ـ «أوه، لأن المسألة لم تعد ذات أهمية الآن إلى حدّ ما. فأنا الآن بخير...».

ـ «إذن، لا تقلقي، فلن أخبره».

ـ «لم أعد أعبأ بما تفعله يا عمي إدموند. لم تعد تعنيني في كثير أو قليل. أوه، هذا شيء لا تحبه، أليس كذلك؟ أستطيع أن أرى أنه لا يحلو لك! ولكن، تستطيع أن ترحل الآن، فلم يعد ثمة ما تبقى من أجله. المسرحيّة انتهت. كنت تعيش في دير للرهبان، أليس كذلك. والآن دار رأسك لأنك شاهدت بعض النساء الحقيقيات. حسناً، عد إلى ديرك، عد إلى حياتك الكسيحة العرجاء. واترك الحياة الحقيقية للناس القادرين عليها».

وقامت، وولتني ظهرها وشرعت تضع البودرة على وجهها، وهي تحملق في مرآة صغيرة على هيئة قلب موضوعة فوق التسريحة. وكان قميصها الصوفي المخطّط يرتفع في وقاحة كالناقوس كلما انحنت إلى الأمام.

تسمّرت في مكاني كقرد وقد تدلّت يداي. لم أكن أستطيع أن أتركها في مثل هذا الحال. فقد جرحتني ألفاظها إلى غير حدّ. ولكنني شعرت وكأن من واجبي أن أطلب عفوها لأنني جعلتها تتفوّه بمثل هذا القبح.

ـ «فلورا، أنا أدرك تماماً...».

ـ «أوه، لا تكن مُضجراً إلى هذا الحد»، قالت ذلك بصوت مُجْهد، وهي منشغلة بأحمر الشفاه. «ما من أحد يريدك هنا. ارجع إلى بيتك، والعب بقطعك الخشبيّة الصغيرة».

سدّدت بصري إلى الكُمَّيْن الأبيضين للبلوزة التي ترتديها تحت ردائها الشبيه بالمئزر. وكانت قد أزاحت الكمين حتى مرفقيها، كاشفة

بذلك عن عضديها، وكانا مستديريْن بلون البسكويت. شاهـدت هذا بالوضوح الذي أشاهد به تفصيلاً محبوباً في لوحة، وبدا كأنه ينفصل في عقلي عن المزيج المروّع الذي يتألف من الغضب واحتقار الذات. ودون أن أدري ماذا أفعل، تقدّمت خطوة إلى الأمام وقبضت على ذراعها. «فلورا..».

ويبدو أنني ضغطت عليها بأعنف مما كنت أنوي، لأنها أجفلت وأطلقت صرخة صغيرة، وهي تنأى عني. وحركت يدها الأخرى وكأنها تريد أن تلطمني، أو لعلّها أرادت أن تدفعني فحسب، فأمسكت بها في طيرانها كما أمسك طيراً، وفركتُها في راحة يدي. «فلورا، أرجوك...» لم أكن أريد إلا تهدئتها، تعزيتها، وإيقافها عن التحدث إليّ بهذه الفظاظة، وأن أخفّف عنها الألم الذي دفعها إلى ذلك. ولكن يبدو أن شيئاً آخر تماماً كان يحدث الآن. فما أن رأيت وجهها الثائر قريباً من وجهي، وأبصرت لسانها وأسنانها، حتى لكمتني لكمة أليمة على ذقني، فتخليّت عن يدها، وطوّقت خصرها بذراعي، وجذبتها إليّ جذبة محكمة بحيث لم يعد في مقدورها أن تقاوم. وما أن شعرت بها مشلولة بين ذراعيّ، حتى خفضت وجهي مزمجراً في شعرها الذي تهدّل الآن وتراخى على كميّ. وحملقت في أسلاك الشعر الأحمر الذهبي الذي تراخى على كمّي الداكن. وكان هذا تفصيلاً آخر من اللوحة.

وسمعت صوتاً ورائي. وفيما أنا أطلق سراح فلورا، بأن أقمتها برفق فوق قدميها، حتى أدركت ـ دون أن أدير رأسي ـ أن ديڤيد ليڤكين كان واقفاً عند الباب. ثم انبعث بعد ذلك هرير غاضب غير منتظم كأنه هرير قطة متوحّشة تهرب من حجرة، ومرقت فلورا كالسهم إلى الحجرة، متجاوزة ليڤكين. وأغلق ليڤكين الباب خلفها، ووقف شاخصاً إليّ. فجلست على السرير، وغطيت وجهي بيديّ.

١١ ـ باليه عصري

كبحتُ الآن، بإحدى يديّ، جماح قلبي الذي كان يضرب جنبي كحيوان يائس. وبيدي الأخرى سوّيت شعري، ومسحت وجهي. إذ أحسست وكأن وجهي قد تبدّل، ولا بدّ أنه تشوّه بفعل الأسى والخجل. ومرَّت لحظة لم أكن على وعي فيها بوجود ليفْكين.

وعندما ثابَتْ أنفاسي إلى شيء من الهدوء، وبعد أن مسحت وجهي لأعيد إليه نوعاً من الترتيب، صَعَّدتُ بصري إليه. كان على وضعه نفسه عند الباب، إحدى يديه فوق المقبض، والأخرى ممسكة بقميصه الأبيض المفتوح عند العنق. وكانت شفتاه العريضتان الممتلئتان ناعمتين مستمتعتين بالمشهد، أما عيناه فكادتا تختفيان في الغضون التي أحدثها تحرّزه الساخر.

وأخيراً قال: «طيّب، يا عمّ إدموند، كيف تسير أمورك؟».

حملقت فيه صامتاً، فتحرّك في شيء من العصبية مبتعداً عن الباب، واضعاً مقعداً بيني وبينه. «طيّب، يا عمّي، ما هو ثمن سيرجالاهاد(*)

(*) إشارة إلى أحد أبطال «فرسان المائدة المستديرة» وكان يُعْرف بالفارس الطاهر (المترجم).

الآن، وما هو ثمن إدموند المعترف . . ».

قلت: «إذن فقد كنت أنت . . . ».
ـ «كنتُ أنا. المحظوظ، المحظوظ أنا».

قلت في رفق: «أوتو يثق فيك». كنت على وعي الآن بالغضب المُبَارك يجيش في داخلي، غضب مقدّس يطهِّر عاري. «إنه يثق فيك، و. . . ».

ـ سيدي اللورد أوتو أعمى وأصمّ. . ولديه سمكة أخرى يقليها. أما بالنسبة لك، لماذا ينبغي عليّ أن أذعن لك؟ لماذا لا أجرحك قليلاً؟ لقد ضبطتك بصورة رائعة، يا عم إدموند، أليس كذلك؟ ولكن كلا. . إنك أنت الذي سوف تؤنبني أنا. تكلمي أيتها الخناجر، أيتها الخناجر، فأنا استحقّ ذلك!» وضحك، وبحركة درامية فتح قميصه على آخره، وكان مفتوحاً من قبل حتى خصره. ثم تحرّك وهو يؤرجح المقعد معه، أثناء قيامي على قدميّ.

«يبدو أنك لا تدري ما صنعت. . . » كنت أَشْرق بالكلمات. وكنت أريد تغطيته بديدان العَلَق والعقارب، كنت أريد أن أجعله يتذلّل ويتأوّه.

وأخذ يتواثب أمامي كطفل ظريف مرح: «أوه، ولكنني أدري، أدري! ماذا تقول الأناجيل؟» ومن أَعْثر أحدَ الصغار المؤمنين بي فخيرٌ له لو طوّق عنُقُه بحجرِ رحى وطُرح في البحر»(*). أنا ذلك الرجل، أنا ذلك الرجل!» وأخذ يهرف بهذه العبارة الإنجيلية في حبور. «ولكن ماذا تقول الأناجيل أيضاً، أيها العم العزيز؟ من كان منكم بلا خطيئة، فليرمها بأول حجر» وطفق يرقص طرباً وراء كرسيه، وهو

(*) وردت هذه العبارة في إنجيل مرقص، الاصحاح ٩، الآية ٤٢ (المترجم).

يقترب قليلاً صوب النافذة.

قلت: «يجب أن تغادر هذا المنزل». كان هذا على الأقل شيئاً أستطيع أن أفرضه عليه. «لا أستطيع أن أتصوّر كيف تتأتى لك الصفاقة للبقاء هنا بعد أن...».

- «يا عمي، يا عمي، لا داعي لاستعمال هذه اللغة الفظّة.. تذكّر أننا في مخدع سيدة!» وراغ مرة أخرى صوب الباب، وما برح واضعاً المقعد كالحاجز بيننا. وفي أثناء حركته، التقط شيئاً أبيض من السرير، وبسطه أمامي، ثم دفن وجهه تقريباً فيه، وهو يختلس إليّ النظر من أعلاه. وتبيّنت أن ما كان يمسك به هو قميص النوم الأبيض الرقيق الذي ترتديه فلورا. وبدأت أرتجف.

«زهور بديعة، وتوت ناضج، أيها العم العزيز. إننا نحب الإثنين، أليس كذلك، ونستمتع بكليهما. وعندما نقع نعرف أين يحلو لنا أن نقع. لماذا حتى أنت... أو تراني أسيء إليك، يا عمي العزيز؟ لعلّك لا تحب الفتيات حقاً؟ لعلّك تؤثّر الصبيان، الصبيان الذين بلون اللبن الحليب، والذين هم في جمال الملائكة؟ ولكن، كلا.. إنك لا تحبّ حقاً أي شيء على الإطلاق، يا عمّي، لا شيء على الإطلاق، ولهذا تكرهنا جميعاً، وتكره أن ترانا على هذه الحال. أليس كذلك أيها العم إدموند؟» كان يتحدث في نعومة، وهو يرمقني من خلال أهداب شعره البنّي، وكان جسده ثابتاً متوتراً، متأهّباً للوثوب.

لم أرفع صوتي: «اغرب عن وجهي، يا ليڤكين، وإلا من المحتمل أن أضربك». وبدأت أخشى غضبي.

أدار مقبض الباب خلفه نصف دورة. ولكنه كان يبدو مسروراً، مفتوناً بقدرته على إثارة غضبي. «اضربني إذن، اضربني! إذا ضربك

أحد على خدّك الأيمن، فأعطه خدّك الأيسر. وأنا أعطيك كلا الخدين، أيها العم. أنا أعطيك... آه!».

تحركت قليلاً، ففتح الباب مواربا، متأهّباً للإفلات. كان وجهه رقيقاً، عريضاً، مسطحاً باستهزاء باسم؛ وعيناه قوسين مبتهجتين متألقتين. وتقوّس مِنْخراه بوقاحة سعيدة.

واصل حديثه بالنعومة نفسها: ومع ذلك لماذا أقبل أن تعاقبني؟ أيها الخرتيت العجوز، الخرتيت العجوز! أوه، أجل، كنت أنصت عند الباب لكل ما قيل! ولم أدخل إلا لأنني لم أكن أستطيع الرؤية من ثقب المفتاح. وكنتُ جديراً بالنظر إليك، يا عمنا، كنت حقاً! إليك، خذ هذا. فربما استمتعت به متّحسساً له في حظيرتك!» وقذف بقميص النوم في وجهي.

ألقيت بالقميص الناعم بإحدى يدي على الأرض، وأدركته بالأخرى. ولمست أصابعي قميصه وهو يروغ مني مسرعاً، ليقفز على السرير بخفّة. ورفع المقعد موجّهاً قوائمه نحوي.

قال في وداعة: «آه، ليس هنا، ليس هنا». وكان قميصه الأشعث قد ظهر جزئياً من سرواله، فأخذ يلهث من الانفعال. «ليس في حجرة فلورا البديعة بكل ما فيها من أشيائها الصغيرة. ليس هذا مكاناً لمصارعة الخراتيت. في الخارج إذا شئت. ولكن لا ترتكب أيّ خطأ، أستطيع أن أصارع، وأن أدافع عن نفسي. وقد يكون النزال ممتعاً. ولكن كلا، كلا. الشخص الذي سيقتلني سيكون أوتو. وعندما يحين ذلك الوقت، لن أقاومه».

وأمسكت بإحدى قوائم الكرسيّ، وانتزعته منه. ولحسن الحظ، تركه يفلت من يده في يسر، ثم وقف قبالتي على السرير، باسطاً ذراعيه

متباطئاً في موقف الخضوع الذي لا يملك دفاعاً عن نفسه. وانقضتْ هذه اللحظة الساخنة.

وانتابني شعور بأني غير متسق مع نفسي، وبأنني مثير للتقزّز، إنسان تعس، وكرهتُه، وكرهت نفسي. وأردت أن أنهي المشهد بشيء من النظافة، فقلت: «لن أخبر أوتو بشيء، ولكن عليك أن ترحل».

قال: «سأرحل حينما أكون مستعداً. أختي على ما يرام هنا. وهل تريد أن تدفع السيد أوتو إلى الجنون؟ أوه، أي إدموند، كم أستمتع بك! أنت مهرّج كأخيك تماماً، ولكنك حتى لا تدري ذلك! أما هو، فيعرف على الأقل أنه حيوان مضحك على حدّ الكمال».

قلت: «لن أخبر أوتو، ولكني سأخبر إيزابيل. والآن...».

وهنا قاطعني بقهقهة وحشية: «أوه، إيزابيل! هي! كلا، كلا، هذا شيء أجمل من اللازم. كلا، ستخبرك أنت بأشياء، أيها الخرتيت المسكين، أيها الثور البائس، سوف تنخسك بمهمازها، وسوف تضع النير على عنقك! ولكنني كدت أنسى، فأنت «زائر الصحّة»، المُفتش العام! فليكن، ستعرف، وستعرف. أجل، تعال لترى إيزابيل. ستخبرك وتخبرك».

وقفز قفزة عظيمة من السرير، وفي أثناء مغادرته للحجرة، نَقَر على صدري بخفة. فألقيت بنفسي فجاءة على مقعد. وتناهى إلى سمعي صوتُه وهو ينادي في الردهة: «إيزابيل! إيزابيل!».

١٢ ـ ايزابيل تعترف

أوصدت إيزابيل الباب خلفي وأدارت مفتاح الجراموفون لينخفض صوته قليلاً: «ما هذا الذي كان يصيح به ديڤيد؟» كانت تبدو ممتلئة الجسم، مشعّثة في عباءة نوم حريرية زرقاء رخيصة، وقد شمّرت عن أكمامها. وعلى وجهها ارتسم القهر والنعاس والشرود، وقليل من الخوف. لعلها كانت نائمة. «ما الخبر يا إدموند؟ إنك تبدو مجنوناً نوعاً ما أنت أيضاً». وتفرّست في وجهي.. وكانت إيحاءات ڤاجنر تدمدم في الخلفية.

قلت: «لقد عادت فلورا». ونظرت إليّ إيزابيل، وشعرت حقاً بأنني شبيه بالمهرّج، إذ وقفت فاغر الفم.

ـ «أعرف ذلك. ماذا كان ديڤيد يفعل بك يا إدموند؟ لقد دفعك من خلال الباب كالكلب! كلا، إجلس أنت، وسأقف أنا. لم أعد أستطيع الجلوس ثابتة هذه الأيام.. فأنا متوتّرة الأعصاب إلى أقصى حدّ».

جلستُ على مقعد وثير مطرّز بلا مساند، غاص بي. وكان إكليل اللهب المتصاعد المتوهّج من المدفأة قد أخذ في الخمود، فأرسل رائحة عتيقة ولساناً من الوهج الدافىء إلى ظهري بحيث ابتعدت إلى الطرف الآخر من المكان. وكانت الحجرة تخفق بضوء ذهبي. وطفقت

إيزابيل تجوس خلال الأثاث كحورية هائجة اختفى جسمها حتى الخصر في الدَّغل. وكانت تضغط بعنف على عضديها.

ـ «إيزابيل، هل تعرفين ما حدث لفلورا؟».

ـ «إذن، فأنت تشعر أن من واجبك أن تخبرني؟».

ـ «إذن، فأنت تعلمين؟».

ـ «أن فلورا كانت حاملاً؟ أوه أجل، أجل».

ـ «وهل عرفت... هل تعرفين من الذي جعلها كذلك؟».

ـ «أجل. ديفيد ليفكين. ومن المحتمل أنه يتسمَّع وراء الباب في هذه اللحظة». وسارت عبر الحجرة والتقطت كتلة من الخشب، فأترب كمَّها اللحاءُ المسحوق الجاف وتطاير في الهواء.

«ولكنك يا إيزابيل، تحتملينه في المنزل..» وعطست بعنف، فقد كان مسحوق اللحاء الذي تطاير أشبه بالفلفل.

ـ «يا لك من شخص فيكتوري الطراز يا إدموند! كيف أستطيع أن أطرده؟ وفضلاً عن ذلك، فقد وقع الضرر. ضع هذا في النار من فضلك».

قلت: «أستطيع أن أفهم تمام الفهم أنه كان ينبغي عليك ألاّ تخبري أوتو. فربما ثارت ثائرته، وارتكب ما لا تحمد عقباه. ولكن ألم يكن من واجبك أن تطلبي من ليفكين الرحيل؟ فعلى كل حال...».

ـ «أوه، فلتكفَّ عن إرشادنا إلى ما ينبغي أن نفعل.. وتوقّف عن العطس. فإنه ليضايقني كثيراً أن يعطس الناس».

ـ «آسف، فإن لي أنفاً حساساً نوعاً ما...».

ـ «اللعنة على أنفك. أعرف أنني شجعتك إلى حدّ ما. فقد منحتني

لحظة أمل. غير أن الأمر يبدو شديد التعقيد حقاً. فلا تسألني المزيد يا إدموند. من الخير لك ألاّ تعرف».

وشقّت طريقها إلى المدفأة، واستعرضت نفسها في المرآة، وهي تدق بخاتم زواجها في شرود على رخام المدفأة. ثم تناولت علبة من الكريم البارد، وشرعت تدهن به بشرتها تحت عينيها بحركات من الربت الخفيف.

قلت: «لقد رأيت الكثير فعلاً.. ولا أستطيع أن أغمض عينيّ الآن، أتعرفين أن فلورا تخلّصت من الطفل؟».

تحركت إيزابيل في شيء من نفاد الصبر، فاحتكّت عباءتها بركبتيّ. فنهضت متعجلاً، فتعثّرت في المقعد الصغير، وانسحبت إلى الجانب الآخر من السجادة.

ـ «لقد كسرته. أوه، يا لك من حيوان أهوج أخرق! لا حاجة بك إلى القفز على هذا النحو كلما اقتربت منك.. ثم كيف تستطيع أن تتحدّث بهذه اللهجة الفجّة عن فلورا...».

أحسست بالانفعال، والحنق، والارتباك. المسألة كلها فضيحة مشينة أكثر مما ينبغي. ولا بدّ من إجبار ليفكين على الرحيل. ولا بد أن تدرك فلورا ما صنعت، ولا بدّ أن تتحمّل إيزابيل شيئاً من المسؤولية عن هذا المشهد كله. قلت: ««متأسف، فقد كانت المسألة كلها بالنسبة إليّ صدمة، وباعثة على الدهشة إلى حدّ بعيد. على حين يبدو عليك أنك تأخذينها بهدوء شديد».

ـ «بهدوء!» وتعمّدت أن تضع على وجهها تعبيراً عن الألم أحاله إلى قناع عنيف. وتقدّمت نحو الجراموفون، ورفعت الصوت لحظة إلى هدير يصمّ الآذان، ثم خفضته حتى لم يكن يصدر منه إلا إيقاع بعيد.

ـ «بهدوء!» قالتها مرة أخرى بصوت أكثر نعومة وقد أدارت ظهرها لي. «لا يكون المرء هادئاً على المِخْلعة(*). ولا يكون المرء هادئاً داخل النار. أوه، أنت غبي. وكنت أطمح إلى الكثير منك».

قلت: «آسف، يا إيزابيل.. ليس في وسعي شفاؤك، لست صالحاً بما فيه الكفاية. أنا نفسي في ورطة. كل ما أشعر به هو أن هناك شيئاً لا أفهمه. فهل يمكن أن تفسّريه لي، من فضلك؟» كنت بالتأكيد أتبع تعليمات ليڤكين حرفياً.

ـ «أجل، إنه أنا.. أنا التي لا تفهمها. كما لا أفهم نفسي أنا أيضاً». وركعت على قدميها أمام النار، مغمضة عينيها إزاء الحرارة الشديدة. «أنا الحلقة المفقودة».

حملقتُ فيها مليًا. كان شعرها الفاحم هشًا أشعث، يتناثر مكشوفاً على عنقها. فسألتها: «كيف علمت بحكاية فلورا، على كلّ حال؟».

ـ «أخبرني ديڤيد».

ـ «يا لها من وقاحة تامّة! إذا كان ليڤكين...».

ـ «كُفَّ عن تسميته ليڤكين، إنه واحد من أفراد الأسرة عملياً. أوه ألا تستطيع أن ترى، ألا تستطيع أن ترى؟ أشعر أن ذلك لا بدّ أن يكون مكتوباً على جدران هذه الحجرة، مكتوباً على وجهي، على يديّ..».

ـ «ماذا...؟».

ـ «أحبّه، أحبّه، أحبّه...».

ـ «تقصدين...».

ـ «ديڤيد، أجل، ديڤيد. أنا أحبّه، مجنونة بالحبّ، مُدَلَّهة، ضائعة

(*) أداة للتعذيب تخلع ضلوع الضحية. (المترجم).

تماماً. أوه يا إلّهي!» وفجأة، تدحرجت على الأرض حتى قدميّ، وقبضت بإحكام على أحد كاحليّ.

وقفت مشلولاً أبكم من أثر الصدمة، وفجأة أصابني غثيان وكأن رائحة نفاذة قد اقتحمت الحجرة. ليفكين هنا أيضاً، ليفكين في كل مكان. باغتتني، وصدمتني كلمات إيزابيل كأشدّ ما تكون المباغتة والصدمة. واستحال وجودها كله ـ للحظة ـ منفُراً. وبدأت أغمغم وأَلملمْ شتات نفسي المبعثرة.

ـ «أجل، أحبّه». وتخلّت عن كل تحفّظ، ومابرحت ترقد مسترخية، وقد أطرقت برأسها إلى الأرض، وكشفت عن ساقيها الحريريّتين. «أنا أعبده. وأشتهيه، وأريد ابنه. بل أريد طفل فلورا أيضاً، الطفل الذي قَتَلْتَه. ويا ليتني كنت أستطيع الاحتفاظ بطفل فلورا هو الآخر...» وأصبح صوتها كثيفاً مرتجفاً.

ركلت المقعد العاجز جانباً، وجلست متثاقلاً على كرسيّ آخر. لم أكن أستطيع أن أنسى أن إيزابيل حاولت إغرائي، إغراءً لمس قلبي في الصميم وإن كنت قد صددته. والآن أراها وهي راقدة على الأرض بوصفها امرأةً مهجورة، عاهرة. فأردت أن أهزّها، أن استجوبها. «أظن أن أوتو لا يعلم هذا؟».

ـ «كلا، بالطبع لا. فمازلت أحيا». وجاءني صوتها مكتوماً من خلال شعرها.

ـ «منذ متى؟».

ـ «منذ أن أتى. شغفت به حباً منذ اللحظة التي رأيته فيها في ورشة أوتو، أو لعلها اللحظة التالية. كان الأمر أشبه بومضة البرق، فأصبح كل شيء ذهبياً، وكأنها نهاية العالم. أوه، ليس بوسعك أن تتصوّر

الحياة الموحشة البلهاء التي أحياها. لم يقع بصري على أحد منذ سنوات اللهم إلا ذلك الوحش أوتو وصبيانه الملاعين. كنت أعرف أنها غلطتي. كنت أريد ـ على نحو ما ـ أن تكون هذه الحياة كلها تعسة كئيبة لكي أعاقب أوتو وليديا. ولكن عندما جاء ديڤيد، كان ذلك رؤية للحياة، وكأنما أبصرت مَلَكاً، أو شاهدت إلَهاً. ألا تستطيع أن ترى حتى الآن كم هو وسيم؟ ألا يمكنك أن تتخيل نفسك وقد وقعت في غرامه؟».

قلت: «بلى، أستطيع على ما في هذا من الغرابة. ولكن، عندما اكتشَفْتِ أنه.. قد غَرَّر بفلورا ـ بالتأكيد...؟».

نهضت إيزابيل وجلست، وهي تسوِّي عباءتها فوق ركبتيها. كان وجهها أكثر هدوءاً، وحالِماً على نحو مُتَعَمَّد. وأدخلت بربتة خفيفة كتلة من الخشب في النار، ثم قالت بلطف: «كان لي في أول الأمر، أرأيت».

ـ «ولكن...».

ـ «ولم يتصل بفلورا إلا لأنني حاولت أن أفصم علاقتي به. ففعل ذلك كيداً لي».

ـ «ثم.. أحبّك بعد ذلك؟».
ـ «لست أدري. كان يشتهيني، واكتشف أنه قادر على أن ينالني».
ـ «أتعنين أنك فعلاً...».

ـ «أوه، نعم يا إدموند، كل شيء. كل شيء، كل شيء، كل شيء. ولو أننا استطعنا أن نفكر في المزيد، لفعلنا هذا أيضاً. أوتو مع الأخت، وأنا مع الأخ.. أوه، سارت الأمور على أبدع نحو!» واستدارت لتنظر إليّ الآن في هدوء جريء مخيف. كان وجهها يسطع

بجمال مستسلم محطَّم.

- «أوه، يا إيزابيل...».

- «صدمتك هذه الفضيحة!».

كنت مصدوماً حقاً، بل كنت مرتاعاً. وكنت أيضاً - وهذا شيء أدركته تواً وكان هذا الادراك مهدِّئاً - غيوراً. أحسست أنني مُبْعد. ومع ذلك كنت لا أريد - بكل تأكيد - أن أكون داخل مثل هذه الحلقة من الجحيم؟ «ولكنك حاولت فصم هذه العلاقة؟».

- «أجل، صحيح. كانت ليديا تحتضر في المنزل، في الغرفة المجاورة بالتحديد. وأحسست بمثل ما كان أوتو يحاول أن يفعل. كان كلٌّ منا يحاول - في الوقت نفسه تقريباً - الإقلاع عن.. الإدمان. شعرت أنني أمقت نفسي. وليديا تتعذّب عذاباً رهيباً، وهذا كلّه في آن واحد. كان الموقف عفناً. وبالطبع كنت مذعورة من أن يكتشف أوتو هذه العلاقة. ومازلت مذعورة حتى الآن».

- «ليست لديه أية فكرة؟».

- «كلا. إنه لا يستطيع أن يفكر في شيء آخر سوى إلسا. إنها أوّل علاقة حقيقية تربطه بامرأة منذ سنوات، وربما في حياته كلها. إذ لم تكن علاقته بي على ما يرام أبداً. كان كلاهما - الأخ والأخت - لكل منا - مبعوثين من العناية الإلٰهية».

وكنت أبغض حديثها على هذا النحو. «ولكن يا إيزابيل.. أشعر - صراحة - أنني مصدوم، ومندهش إلى حدّ ما. فهذه علاقات جسديّة محضة...».

قالت في شيء من الضجر: «أوه، يا إدموند، ادموند، إدموند»، ونهضت متثاقلة، مُجْهدة، كشخص عجوز بدين. ونهضت أنا أيضاً.

سألتها: «ولكن، ماذا أنت صانعة الآن؟».

- «لا أدري. المضيّ عشوائياً فيما أنا فيه. كلانا في جيب هذيْن الخائنين».

- «أتعنين أنك ستعودين إلى إقامة علاقتك بهذا الغلام.. بعد فلورا...؟» وتذكّرت ما قاله أوتو عن «حواء أوثان» الحالمة، أصل كل شرّ. ولم يكن يبدو على إيزابيل أنها على وعي بما تفعل.

قالت إيزابيل: «أعتقد أنك لم تفهمني يا إدموند. أنا عاشقة. وأوافق على أن هذا شكل من أشكال الجنون، ولكنه على الأقل شكل شائع إلى حدّ ما. أو لعلّك لم تسمع شيئاً عنه؟ «السَّهم في الجنب يجعل السفر مؤلماً، غير أن عدم الجري يسبِّب ألماً أسوأ».

قلت: «أنت تهرفين. يستطيع أوتو اكتشاف الأمر بسهولة، و...».

- «أعرف ذلك. ولهذا أشعر أنني سفينة تتحرّك بانتظام صوب جبل ثلجيّ. ولكنني لا أستطيع المضيّ في سبيل آخر. ألا ترى أنني في الأطراف القصوى؟ والسؤال الوحيد هو: عندما يكتشف أوتو، هل سيقتل ديفيد أم يقتلني، أم يقتلنا نحن الإثنين».

كانت تبدو شديدة الشحوب، ضئيلة، يتدلّى ذراعاها إلى جانبيها، وكأنما سمِّرت فعلاً إلى جدار دون أدنى مقاومة. وأحسست فجأة بالأسى والخوف عليها. كانت تبدو كضحيّة. «ماذا أستطيع أن أفعل لك يا إيزابيل؟»

- «شيء واحد، أن تأخذ فلورا بعيداً».

وابتعدت عنها قليلاً. إذ عادت إلى ذاكرتي مشادّتي مع فلورا في

وضوح فوتوغرافي. كان هذا هو الشيء الوحيد المعقول الذي يمكن أن أفعله: أن أقوم بحماية فلورا، ولكنني جعلت الآن هذا الشيء محالاً تمام الاستحالة.

ـ «نعم، خذها بعيداً يا إدموند. إنها معجبة بك، وعلى ثقة فيك. خذها إلى منزلك. فترتها الدراسية لم تبدأ بعد، ولا ينبغي لها أن تبقى هنا بحال من الأحوال. ستحدث كارثة. ولو أنها مكثت هنا، فسوف تدفعنا جميعاً إلى الجنون».

عندما كنت أصغي إلى نبرات الضراعة في صوتها خطر لي خاطر آخر. فمن المؤكّد أن ليڤكين سوف يخبر إيزابيل أنه رآني ممسكاً بفلورا. فملأني حزن غاضب مضطرب. «ألا تستطيعين أن تساعدي فلورا أنت نفسك يا إيزابيل؟».

ـ «لا تكن أحمق. إنها تحبّه هي الأخرى. ولن تغفر لي فلورا أبداً من الآن حتى نهاية حياتها. أخبرني ديڤيد أنه جعلها حاملاً. وعاد إليّ أنا، عاد إليّ أنا بهذا السرّ، بهذه البساطة. كيف يمكنها أن تغفر أننا تحادثنا عن هذا معاً، وتشاورنا عنها معاً؟ ألا تعرف الكبرياء التي تتّصف بها الفتاة الصغيرة؟ وأوّل مرّة، المرة الأولى بالذات. آه، يا للطفلة المسكينة، المسكينة...» وجاءت الدموع أخيراً إلى عيني إيزابيل، دموع بطيئة ضخمة كتلك التي لا تأتي إلا حين يبكي المرء على نفسه، حين يرثي الإنسان لنفسه متنكراً في شخص آخر.

«أوافق على أن من الأفضل لفلورا أن ترحل عن المنزل. ثم أنتِ..؟».

«ثم أستطيع أن أمضي أنا فيما أنا فيه؟ حسناً، لن يكون ذلك من شأنك، يا إدموند. عليك أن تتركني أنا وأوتو في أرجوحتنا الدائرية.

هل تذكر ما قلتُه عن صوان القديسة تريزا في الجحيم؟ كنت تعتقد أنني أبالغ، أليس كذلك؟».

ـ «أوه، يا عزيزتي، سأحاول، وسأمدّ يد المساعدة. سأفعل ما أقدر عليه. آسف، لأنني شخص على هذا القدر من الحماقة».

ـ «فليكن، يا إدموند. من الأفضل أن تذهب الآن. أرجوك اعتنِ بفلورا، ويا إدموند...».

ـ «نعم؟».

ـ «أتمانع في أن أقبّلك؟ آسفة على أسلوب الصدمة الذي عاملتك به في المرّة الأخيرة. كنت مجنونة إلى حدّ ما حينذاك بسبب ديفيد. لست أدري إن كنت قد فهمت».

الحق أنني لم أكن قد فهمت. «أفهم الآن». وأخذت إيزابيل الصغيرة المكتنزة الدامعة بين ذراعيّ، وقبَّلتُ عينيها الساختنين وجبينها. وتشبّث ذراعاها بعنقي في عنف لحظة من الزمن، وتركتها تجد طريقها إلى شفتيّ. كان الأمر يبدو كأنه وداع يائس. وفي معانقتي لها أحسست حينئذ أنني حزين، محروم في كل وجودي، وشعرت من قمة رأسي إلى أخمص قدمي أنها تعاني الحزن نفسه.

١٣ ـ ادموند يلوذ بأمه

«ماجي».

كان السكون مخيِّماً على المطبخ، سكوناً مُصَفًّى، بعد الضجّة الأخيرة التي أحدثتها إيزابيل. فكان يبدو مكاناً للتعقّل والتذكّر.

وكانت ماجي حينئذ تغسل ملابس أوتو الداخلية. فانبعثت رائحة حميمة من الصوف الدافىء المُبْتَلّ. ورقدت أكوام من الفانلات والسراويل التي يتصاعد منها البخار في سلة كبيرة من البلاستيك الأزرق. فكانت تأخذ قطع الملابس واحدة بعد أخرى فتبسطها على شكلها الأول وتنشرها على قضبان خشبية مُدَّت للتجفيف بعد أن أُنْزلت من السقف بواسطة بَكَرات. كنت أتذكّر هذه الطقوس جيداً منذ الطفولة: حركة اليدين القويّة المنتظمة وهما يفردان الملابس في استقامة تامة، أيدي چوليا وكارلوتا وڤيتوريا. جلست لأراقب، شاعراً بمزيج من الحياء والألفة بأنني مندمج في المشهد، مندمج بارتياح في وعيها، رغم أنها لم تجب على ندائي، بل لم تكد تنظر إلى ناحيتي قط. وكانت البرتقالة التي أكلت نصفها وكومة من كتل خشب البقس ما زالت راقدة على أحد طرفيْ المائدة، وعلى الطرف الآخر أدوات ماجي للحياكة، صندوق الشغل والمقصّ. أخذت أراقب حركاتها السريعة المُوَقَّعَة، بينما أخذ الخطّ الذي نُشرت عليه ثياب أوتو يطول.

رفعت بصري إلى وجهها، فوجدتها تنظر إليّ. وكانت عيناها تبدوان بتلك النظرة الحيوانية الكثيبة الغريبة ـ تبدوان مستريبتين بغيضتين. وأزعجني إحساس بحاجة ملحّة إلى الحديث معها، يخالطه افتقار إلى حضور البديهة، يحول دون إقدامي على هذا الحديث. وشعرت أنني مضطرب إلى أقصى حد، مقروح، مهان؛ كنت في حاجة إلى العزاء: ومع ذلك، كيف يمكن أن أسعى إليه هنا؟ وأطرقت سريعاً إلى الأرض.

كان مساءً مظلماً ممطراً، وكان الضوء في المطبخ لا يعرف الاستقرار، وكأن الأشياء تتحرّك باستمرار وتنتقل إلى ركن في مجال رؤية المرء. وبدأ الفسق يناوشني. أحسست بالاكتئاب يسري في جسمي كله، بل كاد الخوف يستبدّ بي. كنت أعرف أنه ينبغي عليّ أن أصعد إلى الطابق الأعلى، وأن أخلو إلى نفسي لأفكر فيما قالته لي إيزابيل؛ ولكنني لم أكن أستطيع مبارحة مكاني. تحركت فجأة، وأضأت النور. كان هناك وهج بائس أشبه بالضباب منه بالنور، إذ لا يتجاوز لمعانه الإنارة الرطبة القاسية في الخارج. وعندما أتيت بتلك الحركة قفزت ماجي قفزة خفيفة، وسدّدت بصرها إليّ، ثم عادت إلى عملها.

تجولت في المطبخ خلال تلك الغلالة الضبابية القذرة الخرساء، متحسّساً الأشياء هنا وهناك. كنت أتوجّع من القلق والحزن. «إلهي، يا له من ضوء فاسد! إنك لا تستطيعين بالطبع الحياكة في مثل هذا الضوء، وأرجو ألا تحاولي ذلك. لقد كانت ليديا شحيحة. ألا توجد أية لمبات أقوى في دولاب المطبخ؟ آه، أجل، مائة وات، هذا أفضل. أيمكنك أن تطفئي النور مرة ثانية؟ تماماً، سأخلع حذائي».

وصعدت على المائدة لتركيب اللمبة الجديدة، فلامس السقف

شعري. وكانت ماجي تنظر إليّ في الغسق المتحول، بوجه لا تتّضح ملامحه، وبعينين داكنتين واسعتين. وبسطت يدها لتساعدني على النزول. فأحسست باليد الصغيرة دافئة رطبة من أثر الغسيل. وبدا الطريق إلى النزول طويلاً، ثم سارت صوب الباب، وهنا أعشى عيوننا نور باهر. فغطّيت عينيّ. أجل، لقد ماتت ليديا.

وكانت الحديقة في الخارج قد تحوّلت فجأة إلى مربع أزرق قاتم، يغشاه الضباب، فيبدو خيالياً، منعزلاً. فذهبت لأسدل الستائر الحمراء والزرقاء. فانغلق المطبخ على نفسه في إحكام وسطع فيه النور فأصبح الآن كسفينة صغيرة محكمة، وكل ما فيه يسبح في ألوان زاهية. وتحسّنت حالتي نوعاً ما. ونشرت ماجي سراويل أوتو الداخلية على القضيب، أما أنا فجلست إلى المائدة لألتهم ما تبقّى من البرتقالة.

قلت لها: «شيء مضحك، أليس كذلك؟ لا بد أنك كنت أطول عندما التقينا أول مرة».

- «كلا. كنتَ أطول مني فعلاً، أطول كثيراً. إنك تفكّر في ڤيتوريا».

- «من أي ناحية في إيطاليا أتيت يا ماجي؟ لقد نسيت ذلك بغبائي. ڤيرونا؟».

- «كلا، هذه كانت جوليا. أما أنا فقد جئت من روما».
- «روما، بالطبع. وأتذكر أنك عرضت علينا صوراً».
- «هل ذهبت إلى روما؟».

كان يبدو غريباً ألا تعرف. ومع ذلك، لماذا ينبغي أن تعرف؟ «كلا، زرت فلورنسا وڤينيسيا، ولكني لم أزر روما. أتذكرين أنك قلت لنا سوف آخذكما إلى هناك، تختطفيننا؟ وكان ذلك مرتعاً خصباً لخيالنا.

أو لعلها كانت كارلوتا؟».

- «كلا، كنت أنا. كارلوتا جاءت من ميلانو».

كان صوتها صوت سيّدة مثقفة لا تظهر فيه اللكنة الأجنبية إلا قليلاً. وكانت فتاة ذكيّة متعلمة. فماذا أرغمها على أن تبدّد حياتها في هذا العمل المنزلي الكئيب؟

قلت: «أخشى أن تكون ذكرياتي عنك قد اختلطت تماماً في ذهني. وإني لأتساءل: تُرى أين «هن» الآن..».

- «متزوجات». قالت هذه الكلمة وكأنها اسم بلد بعيد.

وفي فورة حزن مفاجئة مضيت قائلاً في تهور: «الناس في الشمال يحلمون بالجنوب، وإني لأتساءل هل يحلم أهالي الجنوب بالشمال. هل تفعلين ذلك؟».

- «حلمت بالشمال ذات مرة، حُلُماً عن القوة».

أحزنني هذا أيضاً، وإن لم أكن أدري السبب. وراقبتها وهي ترفع قضيب التجفيف في رشاقة إلى السقف. وكانت ملابس أوتو الداخلية الهائلة تتأرجح في الهواء الدافىء المنبعث من الموقد.

كان شيء ما في منظر أشياء أخي المعروضة في الصف كجيش لجب غضوب - يحدث في نفسي إندفاعة من السخط وانفعالاً أشد ألماً. كنت أريد أن أكتسح أوتو اكتساحاً من الطريق. ثم أدركت أنني سوف أتجاوز حدودي، وألجأ إلى ماجي طلباً للمعونة. قلت: «كان الاخفاق حليفي منذ أن وصلت إلى هنا».

جفّفت ماجي يديها متمهّلة على المنشفة. ونظرت إليّ بتعبير ينمّ عن اهتمام طفيف. وكان يبدو عليها أنها على وعي بمدى استغاثتي. ولكنها

لم تقل إلا: «والآن تعتزم الرحيل؟».

كان قبولها الفاتر لملاحظتي جارحاً لي بشدّة غير متوقّعة. ولم يكن الأمر أنني أريد من يخبرني بأنني أحسنت الفعل، أو أن ما من أحد آخر كان يمكن أن يتصرّف على نحو أفضل: ولكنني ألفيت أنني مهتمّ بما تعتقده ماجي فيّ.

- «وهل يمكن أن أساعد أحداً ببقائي؟».

- «من الممكن ألا يكون ذلك الشخص أحداً سواك. ربما ساعدت نفسك».

قالت هذه العبارة بطريقة جافّة، تكاد تكون ميتافيزيقية، فلم أستطع تحمّلها. كنت في حاجة مخزية إلى التعاطف، أو الدفء. ولم أكن أريد أن يقوم أحد بتشريحي واستلابي.

قلت بشيء من الغيظ: «لا أظـن أن مسألتـي هي ماثيار. فليس لي شيء هنا».

فتطلّعت إلي بتينك العينين اللتين تبدوان دائماً على شفا الدمـوع، ومع ذلك باردة كل البرود في الوقت نفسه. «مسألة الإنسان ونفسه تثار دائماً، أليس كذلك؟».

كان ذلك القول صادقاً على نحـو أليم. وبالطبـع لو أنـني مكثـت - وهذا شيء اعترف به الآن - فلن يكون مكثي إلا بسبب حاجة أفتقر إليها أنا نفسي. وأحسست أنني دخلت في مبارزة مع ماجي وأن حظي منها أسوأ الحظوظ. وكان ثمة توتّر يشيع في الجو، إحسـاس غامض بالاتجاه. قلت لها: «أظن أنك تعلمين - قلّ هذا أو أكثر - بما يدور في هذا المنزل؟».

- «أعتقد أنني أعلم كل ما يدور في هذا المنزل».

- «كيف؟».

- «للناس هنا أصوات عالية. كل واحد منهم يصيح صياحاً كثيراً. وربما كانت المواسير هي التي تحمل الأصوات. ويبدو أنني أستطيع أن أسمع كل شيء في المطبخ».

كانت تتحدّث بنعومة مفرطة كنعومة القطّة؛ وكان صوتها هو صوت الملاحظ اللامرئي، صوت الخادمة الصامتة الأبدية التي تحتل مكانة أعلى ممن تخدمهم.

وتخيّلت ماجي تعمل وحيدة في المطبخ، فتقوم بتقشير نبات عش الغراب، وصب النبيذ الأحمر في الزجاجات، وغسل سراويل أوتو القذرة، والاستماع إلى حياة المنزل المستسرّة. وكانت هذه فكرة عجيبة، ولكنها بدت لي في اللحظة التالية فكرة منفّرة. فلا بدّ أن ماجي قد استمعت ما تبادلتُه من أحاديث مع ليفكين. فلم نكن نتحدّث همساً على كل حال. نظرت إليها في غير ارتياح، إلى وجهها الجنوبي الشاحب الكتوم. ولم تلبث أن استأنفت ما كانت تقوم بحياكته.

نهضت متململاً، وبدأت أذرع الغرفة جيئة وذهاباً. وما برح جسدي يشعر بالاضطراب والتعاسة. ولطمتني رِجْلٌ من سراويل أوتو الداخلية الرطبة في عيني، فأزحتها بعيداً في حنق. ماذا كانت تفعل فتاة ذكية مثل ماجي بتبديد وقتها في غسل أشياء أوتو؟ ومضت عبر خاطري فكرة مجنونة هي أن أسأل ماجي أن تأتي لتصبح مدبّرة منزلي. غير أن هذه حماقة ما بعدها حماقة، إذ لم يكن هناك مكان لمدبرة منزل في حجراتي الثلاث البائسة. وفجأة قلت: «لا أريد أن أرحل من هنا».

- «إذن، فلا ترحل».

وتطلعت إليّ مرة أخرى، ولكني تحاشيت نظرتها، كنت أنفر من

ظهورها بمظهر اللامبالاة. ولم أكن أطيق هذه المعاملة الفاترة أشدّ الفتور. أحسست أنني حُرمت من أحد حقوقي الطبيعية. وكنت أعرف أنه لا بدّ لي الآن من التزام الصمت، واسترداد الكرامة، والانصراف عنها. غير أن الكلمات الدافئة تزاحمت خارجة من فمي، ذلك الدافع القديم إلى الاعتراف، الاستنجاد النهائي الضعيف بالعزاء. «لا بدّ لي من الرحيل، فقد أحدثت اضطراباً لا مثيل له في الأشياء. وبخاصّة مع فلورا. كنت معتوهاً تنقصه اللباقة مع فلورا. وقد طلبت مني إيزابيل أن أرعاها، وأن أصحبها معي إلى منزلي، ولكني لا أستطيع. لا أعرف كيف حدث هذا، ولكنني الآن بالذات، في الطابق العلوي، أمسكت بها بين ذراعيّ، أَخَفْتُها. بعد كل ما عانته، تلك الطفلة المسكينة التعسة. بالطبع، لم أقصد إيذاءها، ولكنها لن تثق فيّ الآن مقدار بوصة. ولكن لا بدّ أن يساعدها أحد، وأعتقد أن من الأفضل لها أن ترحل. أوه، يا إلّهي، ماجي، أنا أحمق!».

- «يا للخسارة!(*)، أتُراك تقفز على الفتيات الصغيرات في كثير من الأحيان؟».

- «لم ألمس امرأة منذ سنوات!» وتساقطت الكلمات بيننا، ثم تصاعد الدم قرمزياً إلى وجهي غضباً من سؤالها ومن إجابتي. ولم يخفّف عني أن أتذكّر أنها شاهدت أيضاً، وأساءت - بلا شك - فهم المشهد الذي كان بيني وبين إيزابيل. وفكرة أن ماجي قد تعتقد أنني «بصباص» مغازل للفتيات الصغيرات أثارت في نفسي نوبة صَرَع مشوش من السخط. ومع ذلك تأسفت بشدة - في الوقت نفسه - لقبولي هذه الفكرة (على أنها صحيحة). فمثل هذه الأمور ليست من شأن أحد سواي.

(*) نطقتها ماجي بالايطالية : Che peccato! (المترجم).

ويبدو أنها تقبّلت ما أقول بشيء من الاهتمام البارد السريع التصديق. «لا فتيات على الاطلاق؟ ولا صبيان أيضاً؟».

فأضفت في مزيد من الهدوء: «كلا!. بالطبع لا!» وتفرّست في تينك العينين الرطبتين الداكنتين.

وابتسمتْ ابتسامة صغيرة متكتّمة، وعادت إلى حياكتها. وألفيت نفسي تغلي بالانفعال. ثمة أشياء يمكن أن يفكر فيها المرء ولا ينبغي أن تقال. وأحسست بنفور قوي إزاء ماجي لأسلوبها المباشر، ولأنها أخرجتني ظلماً وعدواناً من تحفظي. ولعلني كنت أشعر أيضاً بخوف ذكوري فطري من ازدراء المرأة. ومع ذلك، فقد كنتُ أنا البادىء في هذه المحادثة المشوشّة التي لا سبيل إلى السيطرة عليها.

نظرت إليها الآن، في ترفعها وانطوائها على ذاتها كالقطة: الابتسامة الصغيرة الماكرة، الخطّ الرفيع الرقيق الذي يمثله ثغرها، والزغب الخفيف فوقه، والبشرة السمراء الذهبية، والشفافة مع ذلك، العينان الرزينتان المطرقتان إلى الأرض.. كانت تبدو شخصية طاهرة، أشبه بكاهنة منها براهبة، كاهنة صغيرة قاسية شديدة المراس. ذكّرتني على نحو مبهم بشيء لمحته في لوحة. ومع ذلك، فقد رأيت هذا الوجه قبل أن أشاهد أية لوحة، وربما قبل أن أرى أي وجه.

قالت ماجي وهي ما زالت منهمكة في الحياكة: «أعتقد أن من واجبك أن تعتذر لفلورا. وربما استطعت أن تكتسب ثقتها مرة أخرى. فمن المؤكد أنها في حاجة إلى شخص تستطيع الوثوق فيه».

ـ «لا توجد كلمات تصلح لهذا الاعتذار. ألا تستطيعين، أنت، أن تساعدي فلورا؟».

ـ «أنا أيضاً فقدت قدرتي على المساعدة. فللأفعال نتائجها. وقد

وضعتنا أمك جميعا في مواقع غريبة متنافرة، كما تستطيع أن تتخيّل».

وكان في إمكاني أن أتخيّل. «ولكن، من المؤكد أن أحداً لا يستطيع أن يمسك بشيء ضدك.. فأنت بلا شك إنسانة غير مؤذية تماماً».

- «وذلك لأنني ضئيلة جداً، بل أكاد أكون خفية، كالفأر..».
- «كلا، كلا، كلا، أقصد أنك طيبة».
- «مثلك، نعم!».

قلت: «أوه، كفّي عن هذا يا ماجي!» وصفقت كتل الخشب بحدة كالصاجات.

- «أكفّ عن ماذا؟».

ماذا فعلاً؟ أطرقت ببصري حزيناً، حائراً، ساخطاً، ناظراً إلى الوجه الصغير المألوف ذي العينين الواسعتين.

قالت فلورا عند مدخل المطبخ: «أوه، أرجو المعذرة».

١٤ ـ أوتو ينتقي ضحية

أغلقت فلورا الباب خلفها بركلة من قدمها. كانت تبدو وقد تصاعد الدم إلى وجهها (من شدة الانفعال)، واضطراب هندامها. وكان شعرها كتلة مشعثة تكاد تتهدّل إلى الأمام فوق جبينها، وحول رأسها هالة برونزية من خصلات الشعر المجعد التي أفلتت من ترتيبها القديم. وكانت شفتها العليا القصيرة بارزة إلى الأمام لتعبِّر عن الشك والارتياب، وأنفها الأشمّ تغضّن وارتجف. وسحبت فلورا ثوبها التارتاني (المخطّط) الشبيه بالمئزر قريباً من ساقيها في حركة لاشعورية للدفاع عن النفس، وربما كانت تعبيراً عن الاشمئزاز. ولكنها تجاهلتني واتجهت بالخطاب إلى ماجي.

ـ «أحضرتُ الفكّة». وتعمّدت الحديث بصوت خشن مثير للأعصاب. وتقدّمت إلى المائدة وبحركة مسرحية ألقت عليها بكوم من الأوراق المالية فئة الجنيهات الخمسة. ولم تستطع بعد ذلك أن تتجنّب النظر إليّ.

وأخذت ماجي التي كانت قد نهضت ـ تجمع الأوراق المالية بعضها إلى البعض الآخر في هدوء، وشرعت في عدِّها. وما أن أشرق معنى هذا المشهد عليّ، حتى شعرت بنفور حادّ مباشر من منظر المرأتين وكوم

الأوراق بينهما. كان الأمر أشبه بمشهد في ماخور.

قالت فلورا: «أجل.. دفعت مبلغاً رخيصاً لأن الطبيب كان رجلاً عجوزاً عزيزاً، وكنتُ فتاة صغيرة عزيزة! وأقرضتني ماجي النقود لأنها امرأة، أو اعتادت أن تكون كذلك. ولكنني لا أحبّها بالضبط من أجل هذه الفعلة. ما أنتم إلا جماعة من القرود فيما يخصّني. أنا...».

قلت: «فلورا، أرجوك. انصتي لي دقيقة واحدة فحسب. هذا مهمّ. ينبغي أن تحاولي مسامحتي عما حدث في الطابق العلوي. لم أكن أقصد إخافتك على هذا النحو، وأنا شديد الأسف. ولست أدري بالضبط كيف حدث هذا. على كل حال، أعتذر، وأرجو ألا أكون قد فقدت تماماً عاطفتك وثقتك. وسأحاول ـ بكل تأكيد ـ أن أكون جديراً بهما إذا أُتيحَتِ لي فرصة أخرى. وأعتقد أنه سيكون شيئاً طيباً أن تأتي وتمكثي في منزلي فترة قصيرة. أنت في حاجة إلى قليل من الراحة والسكينة، وسأكون في غاية من السعادة إذا أتيت. أو لو كان في إمكاني مساعدتك على أي نحو آخر، فسأكون سعيداً إلى غير حدّ. وسواء أتيت للبقاء أو لم تأتي، أعتقد أنه من الأفضل لك أن تبتعدي عن هذا المنزل لفترة من الزمن. ألا تعتقدين ذلك أيضاً؟».

حملقت فلورا في وجهي، وتحوّل وجهها المتوهّج إلى نظرة استهزاء مقصودة. «أيّها العم إدموند، أنت مثير للشفقة. هل دفعتك ماجي إلى هذا؟».

ـ «كلا، طيّب. ألا تريدين أن تصفحي عني؟».

ـ «لا تكن أحمق. أنا لا أستطيع أن أرتّب ما أشعر به. كل ما في الأمر أنني أكره رؤيتك. أما فيما يتعلق بعدم معرفتك بما حدث لك، فأعتقد أن من الخير أن تستيقظ لنفسك. ولو كنت مكانك لبحثت عن محلّل نفساني بارع!».

«أنا آسف لأنك تشعرين على هذا النحو يا فلورا. وكما قلت أنا أعتذر لك بكل تواضع. ولكن، ألا تظنّين، جدّياً، أنه ينبغي عليك مغادرة هذا المكان؟».

- «حتى يخلو الجوّ لأمي مع العزيز ديڤيد؟. أعتقد أنها هي التي أوعزت إليك بهذا!».

- «لا، لا. استخدمي ذكاءك الفطري، أيتها الطفلة. كل شيء هنا اختلط اختلاطاً شنيعاً، ومن الخير أن تخرجي منه. من المحتمل أن يحدث أي شيء».

- «تقصد عندما يكتشف أبي. أجل، هذا هو ما أموت شوقاً إلى رؤيته، ماذا يحدث عندما يكتشف أبي. أنت تريد أن تفوتني هذه المهزلة كلّها!».

- «لا تكوني بلهاء إلى أقصى حدّ. لقد أحدثت من الضرر ما يكفي فعلاً. عليك أن تدركي هذا. وأقل ما يمكن أن تفعليه هو أن تحاولي تخفيف النتائج إلى أقصى حد ممكن».

- «تخفيف النتائج إلى أقصى حد ممكن» وكانت تحاكي صوتي ونبرتي في شيء من الاستهزاء. «إذن، فأنتما تحكمان عليّ، أنتما الإثنين، كوالدين (وَرِعيْن) يصدران حكمهما على ابنتهما الضالّة! عدِّي النقود بعناية يا ماجي، وتأكدي أنني لم أغشّك. وكأنه كان من الممكن أن آخذ نقودك الملعونة لو أنه كان من الممكن أن أحصل عليها من أي مكان آخر! لست نادمة على شيء مما فعلته، كما أنني لست بالتأكيد - مطالبة بتفسير ما حدث لكم. فلم أعد تلك الصغيرة «أليس في بلاد العجائب»، أي عمي إدموند، شكراً لمن هم على شاكلتك، وإن لم تملك الشجاعة لذلك. هذا بيتي وسأمكث فيه. لماذا لا ترحل أنت؟

لم تفعل أكثر من أن جعلت من نفسك أضحوكة هنا، ولم يعد أحد يحبّك!».

جرحتني كلماتها، وكان أشدّ إيلاماً لي ذلك القبح العدواني الجديد الذي ارتسم على سحنتها وهي تتحدث إليّ. وكان نموّها من الطفولة إلى الشباب شيئاً رهيباً. وتأوّهت نفسي لافتقاري اليائس إلى النوع السليم من السلطة.

- «فلورا، أنا لا أحكم عليك، ولست في وضع يسمح لي بالحكم على أحد. . وأعرف أنني مضحك. ولكنك ابنة أخي، وأريد أن أساعد. . .».

- «لستَ أكثر من جذيٍ عجوز، أيها العم إدموند، لماذا لا تعترف بهذا؟ وأفعالك التي تصطنع الطيبة والفضيلة لم تعد تقنع أحداً. وأتوقّع أن تكون عاجزاً جنسياً بالإضافة إلى هذا كله. لماذا لا تعود إلى بيتك وتشاهد صورك الفوتوغرافية الداعرة؟».

قالت ماجي في هدوء: «فلورا، كفّي عن الصياح، وتحدّثي إلينا بتعقّل. أنت تعرفين جيداً أنك لا تستطيعين البقاء هنا. ولن تثوب أمك إلى رشدها ما دمت موجودة في المنزل».

وتقدّمت فلورا نحو ماجي، وارتفع صوتها ليصبح عواءً غير متماسك من الغضب. «أنتِ! يمكنك أن تكفّي عن إرشادي إلى ما ينبغي أن أفعل. ألأنك أقرضتني تلك النقود تحسبين أنك ملكتني، أليس كذلك! ولكنني أعرف كل شيء عنك، يا ماجي ماجيسترتي. وإذا كان هذا المنزل منزلاً للمجانين فلأنك تتحملين بالتأكيد نصيباً من المسؤولية في جعله كذلك!».

كنت أرى أن الفتاة تحوّلت إلى حالة هستيرية، ولا بدّ من صفعها أو

حملها بالقوة خارج الباب. ولكنني كنتُ أعلم أيضاً أنني لا أستطيع لمسها. فخبطت على المائدة بقبضتي. «فلورا، عودي إلى حجرتك . . .».

واستدارت نحوي. كانت شفتاها مبلّلتين مرتعشتين، والدموع تطفر من عينيها. «أوه، أنت لا تعرف شيئاً عن ماجي! إذن، سأخبرك. لقد كان بينها وبين ليديا شيء فظيع، فظيع. . كان أمراً وحشياً جعل المنزل كلّه فظيعاً. . . ولأنها لا تجتذب الرجال. . .».

أحسست بالألم، والصدمة، والغضب، وبدافع مرعب لإغلاق فمها. ولكنها عندما تَحَرّكت، تراجعتُ أنا في الواقع. وضربت فلورا المنضدة بقبضتها في عنف، بحيث اكتسحت كومة النقود فتطايرت الأوراق المالية في كل مكان من المطبخ. وكانت ماجي ترطن بالايطالية، وتمدّ يديها في حركة استنكار. وشاهدت وجه فلورا وقد احتقن الدم فيه وشاهت ملامحه، كما أخذ شعرها الذهبي الضارب إلى الحمرة يتهدّل إلى الأمام فوق جبينها وكأنما أصبح رأسها رأسيْن. وقَبَضَتْ على ماجي من رسغها وقذفتها إلى الأمام؛ وفي لحظة اشتبكت المرأتان في كتلة واحدة تهتز وتتعثّر. فانسحبتُ بعيداً عنهما وكأنهما وحشان يتعاركان. ثم رأيت أن فلورا قد أمسكت بمقص ماجي وشَهَرت حَدَّيه كسكيّن. وفي لحظة كدت أتوقّع أن تسيل الدماء. . . وعندما تباعدت كل منهما عن الأخرى، رأيت أن فلورا قد جزّت شعر ماجي عند القفا وبصيحة فزع واشمئزاز ألقت فلورا على المائدة بعقدة الشعر المستطيلة التي انحلّت إلى أفعوان أسود. وساد الصمت.

جلست على حافة النافذة. لم أكن قد شاهدت في حياتي امرأتين تتعاركان، وكانت رؤية هذا المنظر تثير الغثيان: كانت فلورا بفمها الفاغر الواسع الذي يسيل منه اللعاب ـ تحملق في كتلة الشعر الرخوة

الميتة. وما برحت تُشرع المقصّ عالياً في يدها كأنه سلاح. وسحبت ماجي يديها على مهل إلى عنقها بعد أن تعرّى من الشعر، ثم غطّت وجهها وصدرها بحركة شخص جُرِّد فجأة من ثيابه. وفي هذه اللحظة دخل أوتو.

ملأني ظهور أوتو رعباً، حتى قبل أن أعرف ما هو فاعل، وأحسست أيضاً بشعور مباشر معوِّق بالذنب من أجل المرأتين ومن أجل نفسي. فلا بد أنه كان مشهداً غريباً: فلورا ترفع الآن الشعر المجزوز بحركة تكاد أن تكون طقوسية، وماجي تحولت إلى كائن آخر تماماً، وكأنها تواري وجهها من نظرة «ميدوزا»(*)، والمائدة والأرض وقد تناثرت عليهما الأوراق المالية من فئة الجنيهات الخمسة.

تأمّل أوتو المشهد؛ وفي الحال، أدرك جوهر ما حدث. كان قد دخل كما يدخل السيِّد، مُتجِّهاً مباشرة إلى الفعل. وفي خطوتين كان قد أدرك فلورا، وانتزع منها الغنيمة. وسقط المقص في صليل على الأرض. ثم تناول إحدى يديها بيده ولطمها بشدة بيده الأخرى. وكنت قد شاهدته وهو يفعل ذلك في كثير من الأحيان عندما كانت طفلة.

مثل هذه اللطمة من أوتو لم تكن شيئاً هيِّناً. وكان ردّ الفعل لدى فلورا هو نفسه في المناسبات السابقة، إذ اكتسى وجهها بلون قرمزي، وفغرت فاها بزمجرةٍ من الألم والسخط. ولمحت ماجي تستدير مبتعدة وقد ارتسمت على وجهها نظرة انبهار وانتشاء، على حين كانت يدها تتفحّص مرة أخرى ما أصاب عنقها من عُرْي. وكانت جديلة شعرها الأسود الطويلة ترقد الآن متشابكة على الأرض.

(*) امرأة في الأساطير الإغريقية كانت تحيل من ينظر إليها إلى تمثال من الحجر (المترجم).

وهممت بأن أقول شيئاً مهدِّئاً ومفسِّراً لأوتو. غير أن زمجرة فلورا كانت تصمّ الآذان. وفجأة أدركت أنها تصيح بشيء ما، وسمعت ما تقول، فعلمت أن لحظة الكارثة قد حانت.

«أيّها المغفّل، أيّها المغفّل! ألا تدري من يذهب إلى الفراش مع زوجتك، ألا تدري من غَرَّر بابنتك؟ إن صبيّك الصغير العزيز شيطان، شيطان، شيطان، ـ خمِّن من يشاطر أمي الفراش طيلة الوقت بينما تجعل من نفسك شخصاً مغفلاً مع تلك العاهر. ألا تعرف؟».

وأخذ صوت فلورا يتخافت حتى استحال إلى خليط خانق غير متسق من الدموع الغاضبة. وكان أوتو يقبض على ذراعها. فأزاحها، وكاد أن يرفعها عن الأرض ـ إلى المكان الخالي عند نهاية المائدة. وهدأت فجأة وقد استولى عليها الرعب.

كان أوتو في غاية من الهدوء. وكان يبدو حائراً غبيًّا كحيوان ضخم اقتحم مكاناً محصوراً. قال متمهلاً: «فلورا، ماذا تقولين بالضبط؟».

فتمتمت فلورا: «لا شيء.. كنتُ.. أوه!».

ولا بدّ أن أوتو شدّد قبضته على ذراعها: «فلورا، أعيدي ما قلتيه الآن.. فوراً».

قلت: «أوتو، أرجوك...».

ـ «اسكت. فلورا...».

ـ «أوه، لا تفعل ذلك، لا تفعل ذلك! كنت أقول، يا إلهي ـ ألا تعرف.. أن أمي اتخذت عشيقاً. أوه، دعني أذهب!».

واطلق أوتو سراحها. «ولكن مَنْ...؟».

ـ «مَنْ تظن؟ ديفيد بالطبع».

ـ «وقلتِ.. إنك أيضاً؟».

ـ «أجل!» بهذا صاحت فلورا، وهي تتراجع الآن صوب النافذة،

وهي تدلك ذراعها. «أجل، أنا أيضاً! لقد كنتَ أعمى، تاركاً هذا كله يحدث تحت أنفك! أوه، أنت غبيّ!».

وأطرق أوتو ببصره إلى الأرض، وشاهدت وجهه يصطبغ بالحمرة، ويتغضّن ببطء من الكربِ الشديد وكأنه وجه طفل على وشك البكاء. كنت في أشدّ حالات الحزن من أجله، وإن كان خوفي أعظم. وأخذت أقترب رويداً رويداً. وفيما أنا أفعل ذلك، فُتِح الباب بهدوء، ودخل ديفيد ليفكين.

ولا بد أن ليفْكين أدرك ما حدث بمجرّد دخوله، أو من الأرجح أنه كان يسترق السمع في الخارج منذ فترة. ولا بد أن صراخ فلورا قد تردّد في المنزل كلّه. أغلق ليفكين الباب واستند إليه، لامساً إياه براحتيْ يديه. وكان وجهه يشعّ إشعاعاً مسالماً على نحوٍ غير مألوف، كوجه إنسان يتأمّل في هدوء حقيقةً رائعة.

قال أوتو: «أهذا حقّ، يا ديڤيد، عنك وعن.. إيزابيل... وفلورا...».

- «أجل، يا سيّدي».

وأزحت حافة المائدة جانباً عن طريقي، متأهّباً للتدخّل بين أوتو وديڤيد. وكانت فلورا قد ارتقت مقعد النافذة. غير أن أوتو كان قد تقدّم فعلاً. ومازال وجهه الضخم المتغضّن الحائر مطرقاً إلى الأرض، فاغراً فاه الرطب قليلاً. ورأيت ديڤيد يتصلّب، وراحتيْ يديه تستديران إلى الخارج في حركة إعطاء، ووجهه المشرق يخلو من كل تعبير. وهنا، أخذه أوتو بنوع من اللّطف الوحشّي من كتفيه، ونحّاه جانباً، ثم خرج متباطئاً من الباب.

وقفت في شلل غبيّ من الدهشة والخلاص. ثم قالت ماجي شيئاً

خلفي أتخذ صيغة الأمر. فتحرّكت مسرعاً في أثر أوتو. وتجاوزته في القاعة، وبدأت أصعد درجات السلم ركضاً. وما أن أحسّ بي منطلقاً متجاوزاً إيّاه حتى أخذ يجري هو الآخر، وأخذنا نقفز على درجات السلم معاً ونحن نهزّ المنزل هزًّا. وأدركت باب إيزابيل قبله، ولكن لم يكن ذلك للدخول ولإغلاقه دونه. فاندفعت إلى حجرة إيزابيل وأوتو في أعقابي قريباً مني.

ولا بد أن إيزابيل كانت قد علمت بما يحدث. وقد أنبأتني فيما بعد أنها حين سمعت الأصوات المرتفعة تصعد إليها من الطابق الأرضي، وطّنت نفسها على موت فوري. كانت تقف على مقربة من النافذة، وما برحت ترتدي عباءتها الليلية الزرقاء، وتضع يدها على رقبتها. وكانت تبدو عليها مهابة مذعورة مستسلمة. شاهدتها كذلك لحظة واحدة، وفي اللحظة التالية كنت أتعثّر ممسكاً بها في حضني، ثم دفعتها إلى ركن من أركان الحجرة. كنت أخشى حقاً أن يقتلها أوتو بضربة واحدة. وكان هناك صوت أثاث يتحطّم وصرخات. وهدرت الأقدام عبر الحجرة. فاستدرت حولي وأدركت في ثانية واحدة قبل أن تعشي بصري ومضة خاطفة وإحساس رهيب بالألم - أنني كنت الشخص الذي همّ أوتو بضربه.

١٥ ـ روح الفكاهة عند ليديا

ـ «إد، أيها الرجل العجوز، أأنت بخير؟».

كنا في اليوم التالي. وكان اللاشعور المظلم قد غشيني على أثر ضربة أوتو. انتشرت نجوم سود في ليل شامل. ثُبْت إلى رشدي، فوجدتني راقداً على السرير في حجرتي. لا بدّ أن أوتو جَرَّني أو حملني حتى هنا. كان أوتو وماجي يتجادلان حول ارتجاج في المخ وعظام مكسورة وأشعّة إكس، فاستنتجت أن الأمر يتعلّق بي. وكان الألم الذي أحسّ به في وجهي مفرطاً في الفظاعة.. إذ كنت أشعر وكأنّ جانباً منه دُفِع به مباشرة إلى داخل رأسي. وكانت محاولاتي لفتح عينيّ تجلب معها أضواءً ساطعة وآلاماً شهابية مروِّعة، لا أبصر شيئاً بعدها. وتأوّهت. ثم تبيّنت أن ماجي وأوتو كانا يوجِّهان إليّ أسئلة امتنعت عن الإجابة عليها. وفي مكان ما سمعت امرأة تبكي.

كانت عاقبة المسألة، كما اكتشفت بعدُ من ماجي ـ سعيدة للجميع، إلا أنا. ووقف أوتو يحملق فيّ حيث رقدت متمدّداً وسط حطام أثاث ايزابيل. ثم ركع على ركبتيه وكأنه تطهّر من غضبه. ثم حُمِلت إلى حجرتي، واعتكفت ايزابيل وراء باب موصد. ورحل ديفْيد ليفكين عن المنزل. وأنفق كل من ماجي وأوتو بعض الوقت في رعايتي وفي

الجدل حول استدعاء طبيب. وانتهى الأمر بإعطائي نوعاً من الشراب المخدِّر وتُركت لأنام.

استيقظت في الصباح مع مزيد من الألم، ولأجد وجه أوتو الضخم محوِّماً فوقي: «أأنت على ما يرام، يا إد؟».

قلت: «كلاً بالذات. ومن المحتمل أنك كسرت حوالى سبعة وخمسين من هذه العظام الدقيقة. ولن أعود أبداً كما كنتُ من قبل. أوه!» وكان قد وضع يده بلطف على خديّ.

- «تعتقد ماجي أن شيئاً لم يُكْسر. أرى أنك ما زلت تتمتّع بعظام متينة كعظام الثور في ذلك المكان. أتستطيع أن ترى بهذه العين على الإطلاق؟»

- «من الخير الاّ أحاول!».

- «هل غفرت لي؟»

- «بالطبع، أيها الأحمق. وعلى أي حال كان الوقت قد حان ليضربني أحد».

وكانت هذه الحادثة قد أقامت بيني وبين أوتو - على نحو غريب - نوعاً من العلاقة لم تقم بيني وبينه منذ الطفولة، كما أنها حرَّرت أيضاً في كل منا حيويةً غير مألوفة كادت تكون أشبه بالبهجة.

- «لا أستطيع أن أتصوّر كيف فعلتُ هذا!».

وكنت أستطيع أن أفكّر في أسباب عدة لهذه الفعلة، ولكن لما كنت لا أميل إلى الدخول في مناقشة تحليلية نفسية، فقد قلت: «ما هو الموقف هذا الصباح؟».

- «حسناً، لقد رحلا».

- «رحلا . . . ؟» .

- ديڤيد وإلسا . رَحَلا» .

- «تقصد أنهما قد أخليا المكان فجأة؟»

- «أنـا الـذي طردتهمـا . . فصلتهمـا همـا الاثنين ، أمرتهمـا بالانصراف . ووضعت نهاية للمسألة . قضيت الليل كلّه مستيقظاً ، دون أن ألجأ إلى الشراب أيضاً . . أو على الأقل ، ليس كثيراً» .

وخطرت على بالـي إيزابيل المسكينـة . ولـكن ، كان هذا أفضـل بالطبع . وأوتو المسكين . «لقد وضعت نهاية لكل شيء يا أوتو؟» .

- «أجل . أدركت أن الموقف كلّه كان مجرّد جنون . وعلى نحو ما بعد أن ضربتك ، لم أعد أشعر بالغضب بعدُ . وإنما أحسست إلى أي حدّ كان الأمر كلّه ورطة حيوانية ملعونة . كانت هناك إيزابيل تبـكي ؛ والأثاث كلُّه محطم ، وأنت راقد على الأرض كالميت . وفي لحظـة ، حسبتُ أنني قتلتك فعلاً . وهنا ضربتني ماجي ضرباً مبرّحاً ، والعجيب أنني أحسست بالتعقّل بعـد ذلك . وأدرك أن اللحظـة قد حانـت حقـاً لأتخذ قراراً حاسماً إلى أقصى حدّ . بعد هذه المسألة المتعلّقة بديڤيد أصبح الموقف مستحيلاً . كان ينبغي عليّ أن أتخلّص من هذين الاثنين معاً . وأن أفعل ذلك بأسرع ما يمكن . لم تكن هناك وسيلة أخرى . فقد كانـا مصـدراً لجنوننـا جميعـاً . إنهمـا جنيّان ، مَلَـكان ، شيطـانـان . وبالطبع ، كنت أعرف ذلك منذ البداية» .

- «ملكان ، شيطانان . . . نعم» . وأحسست بأسى عجيب .

- «وكتبت لهما رسالة أقول فيها إنه لا بد من رحيلهما على الفور ، وأرفقت بها شيكاً بأجر ديڤيد ، وحملت ماجي الرسالة ، وقالـت إنهمـا كانا يحزمان أمتعتهما على كل حال . ثم ذهبت بعد ذلك إلى الفراش ، وحلمت أن إبريقاً هائلاً أسود من أباريق الشاي يتعقّبني حول المنزل .

فحاولت أن أتصل بالهاتف طلباً للنجدة، غير أن قرص التليفون كان مصنوعاً من نسيج ورقي. . . ».

«ولكن، هل رحلوا؟» وجازفت بفتح عيني الأخرى، ولكنني أغلقتها في الحال ثانية.

وغطّى أوتو وجهه، وكان صوته متهدِّجاً. «أجل، أعتقد ذلك. لا أريد أن أراهما مرة أخرى، والمسألة بالضبط هي أنني لا أستطيع أن أثق في نفسي إذا رأيت أيّهما. لقد جعلاني شخصاً معتوهاً فيما بينهما. وعلى المرء أن يضع حداً للجنون بطريقة أو بأخرى».

- «وإيزابيل، هل رأيتَها؟».

- «كلا. . . لست متيقّناً إن كنت أستطيع أن أغفر لإيزابيل أم لا. فأنا مرتبط بها ارتباطاً مروِّعاً. . . ».

- «وماذا عن انحرافاتك الخاصّة؟».

- «أعرف ذلك. ولكن الأمر ليس على هذه البساطة. ربما كان على كل منا أن يغفر للآخر. غير أن الأمر ليس هيِّناً بهذه الدرجة. في هذه اللحظة، ان مجرّد التفكير بها، يجعلني أشعر بالغثيان».

- «من الخير على كل حال، أنك لم تضربها. كيف حال فلورا؟».

- «يا للصغيرة المسكينة. تبادلت معها حديثاً طويلاً ليلة أمس، وأنبأتني بكل شيء. يا إلّهي، كان من واجبي أن أرى ما يحدث، وكان ينبغي عليّ أن أرعاها! كنت مأخوذاً واقعاً تحت سلطان السحر».

- «حسناً، لقد تخلصت من سلطانه الآن. فلنرجع إلى الحياة الواقعية. أعتقد أنني سأعود إلى بيتي اليوم أو غدا، ما دامت كل الاضطرابات يبدو أنها انتهت».

أحسست أنني تخلصت أيضاً من ذلك السحر، وكأن لكمة أوتو قد أسقطت كل بقايا الادعاءات عني. لم يكن في مقدوري أن أصنع شيئاً لهؤلاء القوم، لم تكن بي رغبة لأن أكون شاهداً على جهود أوتو وإيزابيل المثيرة للشفقة ليعيدا بناء علاقتهما المحطمة. وحاولت النهوض، غير أن رأسي كان ثقيلاً بالألم وأية حركة كانت تسبِّب وخزات حادة من العذاب. وتخبّطت في وَهَن، على حين كان أوتو يربت على الوسائد بشيء من الارتباك.

قال: «كلا... لم تنته كل المثيرات تماماً. ما رأيك في هذه التي وجدتها منذ لحظة». ولوّح بوثيقة أمام وجهي.

حاولت أن أركز عيني الوحيدة عليها. وشرعت أقرأها على نحو مشوَّش. لقد مارست ليديا حقاً روح الفكاهة عندها: «أنا أوصي هنا بكل ما أملكه بعد وفاتي لصديقتي الحبيبة الوفيّة، ماريا ماچيسترتي».

١٦ ـ السا ترقص رقصة النار

انعقد مجلس العائلة الموقّر في حجرة إيزابيل. وكانت ألسنة النيران الضخمة التي تغمغم، وتتصاعد ثم تهبط بحياتها المستقلّة الخاصة تجعل من الحجرة ذهباً وهاجاً تارة، ومعتماً تارة أخرى بالتناوب، كما كانت ساخنة أيضاً على نحو لا يُشْعِر بالراحة. وكان المطر ما برح منهمراً في الخارج فوق الخضرة الباردة التي تتساقط قطراتها في أصيل يوم صيف إنجليزي. وكان حطاك الأمس متكوِّماً في أحد الأركان، فبدا المكان أقل اضطراباً. أما إيزابيل فكانت تجلس فوق مقعد وثير، ضئيلة، مرهقة، معنيّة بمظهرها، ترتدي سترة رمادية عادية، وقميصاً. وكانت قد استسلمت للبكاء، غير أنها كانت الآن رابطة الجأش، بل تكاد تكون أميل إلى البرود. واتخذت ملامحها سمة سكرتير الجلسة الذي يبدو متباعداً مُجْهداً. وأما أوتو فكان يرتدي منامة مكرمشة تحت سترة وسراويل رياضية، ويتكىء على إطار المدفأة. وغمرت الحجرة رائحة التويد(*) الرطبة المحترقة. وخطر لي أن أوتو كان يبكي هو أيضاً، فتحاشيت النظر إليه، وساءلت نفسي هل رحل الخائنان حقاً.

كان أوتو يقول: «بالطبع ليس هناك سبب لافتراض أنها ستريد أن

(*) نسيج صوفي خشن.

تدخل أية تغييرات على الإطلاق. فهي تعيش هنا، على كل حال، ولقد عاشت هنا دائماً. ولا مكان لها سواه إذا عنَّ لها الذهاب. وأعتقد تمام الاعتقاد بأنها ستخبرنا بأنها تريد أن يمضي كل شيء على حاله كما كان من قبل، فإذا كان الأمر كذلك، فعلينا بالطبع أن نحترم رغباتها».

وتقدّمتُ إلى النافذة، حاضناً عيني المصابة. كان مكانها ساخناً منتفخاً، وكانت عيني تكاد تكون مغمضة تماماً، وكل مجهود يُحْدِث فتحة ضيقة يسيل منها الماء. وانتشرت على جبيني كدمة زرقاء مسودّة امتدّت إلى خدّي ووصلت إلى فمي. وكنت أشعر بإجهاد شديد أقرب إلى المرض بعد ليلة مضطربة.

قالت إيزابيل: «أنت تخدع نفسك. فهذا هو ما يمكن أن يكون مريحاً. ولكنها لن تخبرنا بشيء من هذا القبيل. إن لها إرادتها الخاصة وإن احتفظت بها سراً. وسوف تنقض علينا الآن، وسترى. وستجعلنا نقفز من أماكننا».

وكان من الأمور الجديرة بالملاحظة تلك السرعة التي أعادت بها الأسرة تركيب نفسها لمواجهة التهديد الذي تتعرض له أملاكها.

قلت: «أنا أتفق مع إيزابيل في أن لها إرادة خاصة بها، ولكنها لن تفعل شيئاً غير لائق. وأعتقد أنه من الممكن أن تلحَّ على تجاهل الوصية».

قال أوتو: «وعلى كل حال، الموقف لا يخلو من شذوذ».

فقالت إيزابيل: «لا أرى شيئاً من الشذوذ فيه. أنا لا أعني أنها سوف تطردنا من المنزل في الحال. أوه، كلا، ستكون عاقلة جداً وطيّبة، ولكنها ستعاملنا كأغراب. ليس لديها أيّ شعور عائلي نحونا».

قلت: «لا بد أن يكون لديها. فهي التي قامت عملياً على تربيتنا:

أوتو وأنا».

- «لم تفعل شيئاً من ذلك. وأعلم أنَ أوتو أنها كانت تدفع عربته وهو طفل، ولكن هذا وهم، لم تكن تهتم إلا بليديا فحسب. وكانت ليديا بارعة في ضمّ الناس إلى أملاكها الشخصية».

أزعجني هذا القول كل الإزعاج، ذلك أنني أصبحت الآن بكل تأكيد - أرى ماجي - بنظرة حادّة جديدة - بوصفها كائناً منفصلاً، مستقلاً، لا سبيل إلى التنبؤ بتصرفاته. ومنحتها بتلك الحقوق الإنسانية: حقّ السرّية، وحقّ المفاجأة. ومع ذلك، كنت لا أستطيع في الوقت نفسه - أن أكف عن افتراض أن ماجي.. تحبّنا. هذا الافتراض يصدمني الآن بوصفه افتراضاً أكبر من اللازم ويعوزه الوضوح أيضاً. لعلي كنت أعاني وهماً مماثلاً لوهم أوتو. إذ أصبحت مربيتنا القديمة في عداد الأساطير. أما ماريا ماچيسترتي فمسألة أخرى مختلفة تمام الاختلاف.

قال أوتو: «لا أستطيع أن أتصوّر، لماذا لم نعثر على الوصية في وقت مبكر عن ذلك، فقد بحثنا في هذا المكان من قبل».

سألت: «هل تعتقد أن هناك أموالاً سائلة كثيرة؟».

قالت إيزابيل: «أوه، كثيرة جداً. كانت ليديا أشد النساء تقتيراً. ولكن كانت هناك مبالغ طائلة. وكانت تعلم كل شيء عن البورصة».

- «هل تسير الحال في الورشة على ما يرام يا أوتو؟».

قال وهو يتجنب النظر في عيني: «كلا.. بل كانت تعتمد على المعونة في تلك السنوات الثلاث الأخيرة».

قالت إيزابيل وهي تطلق ضحكة مستهزئة: «يبدو أنني سأخرج للعمل!».

- «كيف يمكن أن تكون ليديا مُتْعبة إلى هذا الحدّ البشع!».

قلت: «أما أنا فليست لدي شكوى معقولة... صه. ها هي ذي قادمة».

وتناهت إلى أسماعنا طرقة على الباب، فصحنا بصوت واحد: «ادخلي».

ودخلت إمرأة شابة، ترتدي ثوباً أحمر. والشعر القصير الأسود كان مُنَسَّقاً بيد خبيرة، والعينان الداكنتان الجادّتان تطلاّن من وجه نحيل ناعم تسري فيه نضارة الشباب. لقد اكتسبت ماجي شيئاً لم يكن لها من قبل أبداً - اكتسبت مظهراً خارجياً. لم تعد امرأة خفيّة. وفيما أنا أحملق إليها في دهشة من تحولّها، تذكّرت بغتة، وبحدَّة، في سن أصغر مما أنا فيه كثيراً، شكلاً رأيته في بهاء طفولتي، إلّهة حارسة سمراء اللون.

وغيَّرت أنا وأوتو من مواضع أقدامنا متظاهرين بالنهوض كما يفعل الرجال حين يشعرون أن من واجبهم أن يفعلوا لمقدم امرأة خطيرة، أما إيزابيل فدفعت بمقعدها الوثير إلى الوراء فصدر عن احتكاكه بالأرض صوت خشن. واصطدمتُ بأوتو وأنا أحاول وضع مقعد إلى جوار المدفأة من أجل ماجي.

وجلستْ وأخذت تنظر إلينا.

بدأ أوتو: «ماجي، أعتقد أنك تعرفين لماذا استدعيناك...» بدا هذا القول أشبه بالتهديد، فأضاف بسرعة: «أقصد أن كل شيء على خير ما يرام بالطبع..» غير أن هذه العبارة بدت أيضاً مسرفة في التساهل. فتلعثم قائلاً: «أقصد أننا شعرنا بأنك قد تريدين أن تخبرينا...».

- «بنوايايَ؟».

- «أجل، بالضبط». وكان أوتو الذي تخبّط وتعثّر أثناء إلقاء خطابه،

قد انسحب الآن انسحاباً كاملاً ظاهراً للعيان. وتراجع حتى بلغ النافذة تقريباً. وكانت يداه الكبيرتان تتحسّسان عنق منامته محاولاً تسوية زرّ لا وجود له. والواقع أنه لم يخطر على باله أن ماجي يمكن أن تكون لها نوايا. ولم يخطر لي ذلك أنا أيضاً إلا مؤخراً جداً.

- «أتوقع أن أعود إلى إيطاليا في أواخر هذا العام. ولكن ليس عندي خطط فورية».

فسألت إيزابيل: «هل ستعودين إلى إيطاليا بغير رجعة؟».

- «أوه، أجل» بهذا أجابت ماجي بنوع من الثقة المسلِّية التي جاءت عن غير قصد.

وساد بيننا صمت مُحْرج. كان أوتو يقضم أظافره، بينما انطوت إيزابيل على نفسها وانخفضت داخل مقعدها. أما أنا فاستدرت لأتأمل المطر.

قال أوتو أخيراً: «كانت وصيّة أمي - كما يمكن أن تتخيّلي - مفاجأة بالنسبة لنا».

- «حقاً؟».

قالت إيزابيل: «ماذا تنوين أن تفعلي بالمنزل ومحتوياته؟».

- «من الطبيعي أن أعطيكم حقّ الشفعة».

قالت إيزابيل: «قلت لكم ذلك». وقامت ثم انضمت إليّ عند النافذة.

قال أوتو متمهلاً: «تعنين أنك تعرضين علينا شراء المنزل؟».

- «سيكون هذا هو التصرّف الوحيد السليم، أليس كذلك؟».

وتروّى أوتو لحظة، ثم أضاف: «أجل، أظن ذلك. لست في وضع

يسمح لي بشرائه، لسوء الحظ». ثم قال: «يا إلّهي!» وانطلق يضحك بجنون.

جلست ماجي وابتسمت، ووضعت ساقاً على الأخرى، وتلفّعت بثوبها الأحمر في عناية. تبيّنت فجأة أنها تمثّل دوراً، وأنها تسلّي نفسها على حسابنا. ولم تكن تقصد شيئاً مما قالته.

قلت مندفعاً: «أنت تقصدين هذا، يا ماجي. ولا بدّ أن تنتهي إلى نوع من التسوية المتحضّرة مع أوتو. لقد كانت وصية ليديا مجنونة وجائرة، كما تعرفين».

- «ليست مجنونة.. ربما جائرة، ولكن الحياة هي أيضاً جائرة. أو على الأقل، لقد وجدتُها دائماً كذلك، يا إدموند».

أزعجتني كلماتها الباردة واستخدامها لإسمي. من المؤكد أنها، هي بالذات دون الناس جميعاً - لا يمكن أن تكون قاسية. كانت موجودة حيث عاش العطف كله. فصوّبت نظري إليها في شكٍّ مفتون، على حين أخذت تنظر إلينا في هدوء بنوع من المرح المنتشر في وجهها. كانت تبدو كقائد شابّ يواجه بعض ضباطه المتباطئين الذين يكبرونه سنّاً ويقلّون عنه رتبة.

قالت إيزابيل: «أوه، لا تجادلها!» وذهبت إلى دولاب مليء بالأدراج، وبدأت تلقي بأكوام من الثياب الداخلية البيضاء على الأرض.

قال أوتو: «ماذا تفعلين؟».

- «أحزم أمتعتي».

قلت: «بحق السماء، ما هذه الضوضاء؟».

كان صوت غريب يرتفع من مكان بعيد في المنزل حتى أدركته أسماعنا. تبادلنا النظرات، وأرهفنا السمع. كان هناك هزيم مكتوم تحوّل إلى صوت

أقدام تركض، وأصوات مختلطة. واعترتني هزَّة من الخوف وكأنها بداية ثورة مروِّعة. وتخيَّلت لحظة وكأنها لا بدّ أن تكون متصلة بماجي، ولا بد أن تكون نتيجة للصراع الغامض الذي اشتبكنا فيه، لا بد أنهم أتباعها، جاءوا للاستيلاء على المنزل. وأطلقت إيزابيل صرخة إنذار. واقتربت الأقدام الراكضة، ثم، انفتح الباب على مصراعيه، ودخلت فلورا مسرعة، وكانت تسحب بيدها شخصاً خلفها. كانت إلسا.

صاحب فلورا: «ها هم أولاء، ها هم أولاء جميعاً»، ودفعت إلسا إلى الأمام.

وثبت ماجي، واقتربت مني. وارتدّت إيزابيل فتعثّرت بكوم الملابس الداخلية. أما أوتو فقد انحنى، مغطّياً وجهه، منكمشاً فجأة، منطوياً على نفسه من الألم والصدمة. وتحركت إلسا إلى مركز الحجرة. كان شعرها المعدني يتهدّل في جدائل طويلة مستوية على كتفيها كأنه شعر تمثال، وقد ارتدت ثوباً طويلاً لا شكل له يبدو أنه ينتمي إلى حقبة أخرى. وبدت الآن كأنها مجنونة تماماً، وقد التوى وجهها الشاحب الواسع المنخرين، وكشَّر عن أنيابه. والتمع جبينها العريض وعظام وجنتيها البارزتين كأنها دُهنت زيتاً. كانت تبدو مُنْذرة ومثيرة للشفقة في آن معاً، كأنها شيء هش يحتضر هارباً من مصحّة.

ويبدو أنها لم تكن تبصر سوى أوتو. قالت في صوت واهن متهدّج: «لا، لا، لن تستطيع... تعال معي الآن. تعال معي... أرجوك، أرجوك...» وكان ذلك أشبه بشكاية حيوان.

زمجر أوتو، ثم سقط متثاقلاً إلى الأمام جاثياً على ركبتيه. وبسط يديه أمامه، مطرقاً برأسه، ثم انبطح على الأرض.

- «اذهبي، اذهبي بعيداً عن هنا...» وتعثّرت إيزابيل فوق أوتو، ثم

وجهت إليه ركلة وحشيّة في جانبه طرحته تماماً على الأرض. وتقدمت صوب إلسا وحاولت أن تسوقها خارج الحجرة، غير أن إلسا قاومتها.

وطفقت فلورا تردّد بنغمة هستيرية عالية ـ الشدّة: «أوه، أوه، أوه!». وإيزابيل لا تكفّ عن الثرثرة بكلام غير مفهوم، امتزج فيه الخوف بالغضب، وهي تأمر إلسا بالانصراف. ودفعتها إلسا بعنف، ثم تراجعت حتى كادت قدمها تدخل في النار. وشرعت تركل الجمرات الساخنة الحمراء من المدفأة إلى السجادة. وصرخت إيزابيل. كانت رائحة الاحتراق قد انتشرت وألسنة صغيرة من اللهب تلعق قدميْ إلسا الراقصتين. وكان أوتو يجلس على الأرض واضعاً يده على فمه، وقد بدا عاجزاً عن الحركة. وحاولت إلسا أن تسحب كتلة خشبية من النار. وخيِّل إليّ أن الحرارة في الحجرة قد تضاعفت، وكأننا داخل فرن، وشاع الضوء الذهبي في كل مكان. واصطدمت بإيزابيل التي كانت تتراجع، وهي ما برحت تصرخ، بينما أخذت كتلة محترقة تتدحرج على أرضية الحجرة. ودُست بشدة على السجادة الداخنة. وكانت فلورا تصيح: «أكرهكم، أكرهكم جميعاً». . . واستدارت لتجري خارجة من الباب. ونادتني ماجي قائلة: «اذهب معها، فلربما أقدمت. . .» وعدوت خارجاً من الحجرة على أثر الفتاة.

١٧ ـ ادموند في الغابة المسحورة

أخـذت فلـورا تعـدو مباشـرة هابطـة درجـات السلّـم، ثم خارج المنزل. فما أن بلغت الباب حتى رأيتها ترتدّ عبر المرجـة في الضـوء الأصفر الرطب. وكان ثمة مطر منتظم يتساقـط، وفلـورا تتّجـه صوب الجدول. ناديتها، غير أن الهواء الكثيف الخانق كتم صوتي. وطفقت أعدو.

كانت الغابة حالكة السواد وكأن المساء والليل قد خيّما عليها فعلاً، وجريت في موجة من الهواء الدافىء يبدو أنها ممتلئة باصطفاق أجنحة الطيور. كان المطر يسكن الغابة، يقـرع كالطبـل في أجزائهـا العليا ويزحف ويتقاطر في أجزائها السفلى. وخطوات فلورا الراكضة التـي تسبقني ثقيلة وإن تكن ناعمة. وكان السباق عبـر المرجـة قد أرهقنـي فعلاً، وفيما أنا أزحف وأتخبّط عبر الممرّ الذي تجولتُ فيه مؤخّراً مع من كانت تبدو بالقياس إلى الآن أصغر إلى ما لا نهـاية، أعنـي فلـورا، سألت نفسي ما هذا الذي تتعقبه؟ أكنت حقاً أتعقّب أم أهرب؟ وناديتها مرة أخرى، وأنا أشقّ طريقي خلال ستار من أعـواد البوص، وتواريت منقطع الأنفاس تحت أوّل قوس من شجيرات الكاميليا.

كنت أريد في هذه الاندفاعة الطائشة أن ألوذ بالفرار من الفوضـى

الوحشيّة التي أحاطت بالمشهد الذي تركته. ولم تكن هذه هي المرّة الأولى التي أهرب فيها من هذا المنزل رعباً مما شاهدته في داخله. ولكني ركضت أيضاً بدافع من حاجة بدائية إلى أن أمسك بفلورا واستخلص منها غفراناً هي وحدها التي تستطيع إعطاءه: وكأنها في إعطائه سوف تستكمل وتُصلح نفسها على نحو ما. أردت الإمساك بها واسترداد شيء من البراءة لنا نحن الإثنين، أن أجد فيها ثانية الطفلة التي عرفتها. وكنت خائفاً خوفاً له ما يبرره عقليًا هذه المرة ـ وهي في الحالة الهستيرية التي هي عليها الآن ـ من أن تلقي بنفسها في البحيرة السوداء.

ولطمني فرع من فروع الكاميليا لطمة حادّة على جبيني فوق عيني المصابة بالضبط، وكان الألم من العنف بحيث أجبرني لحظة على الركوع على الأرض. وتراجعت الخطوات، وقد تردّدت أصداؤها خافتة تحت قباب الغابة. فنهضت بعد هنيهة وواصلت سيري بمزيد من الحذر. وكانت الأرض قليلة الرطوبة، صلبة، جرداء، كأنما وطئتها أقدام عدد كبير من الراقصين. وكانت قطرات المطر تحدث صليلاً على ظُلّة الغابة، وهنا وهناك تلوح شبكة من الأوراق المدبّبة في الضوء البيضاوي المعتم. وخرجت إلى الفضاء الفسيح المجاور لمسقط المياه.

كان المطر الغزير يحجب الهواء، ويشكّل قبة خضراء مُصْفَرّة فوق البحيرة. وقد أزحت الماء الذي انهمر فوق عينيّ. وكان سطح البحيرة القاتم يتجعّد ويرتعد. وصوت الشلال الصغير يندمج في صوت انهمار المطر. لم أكن أتمكن من رؤية أحد. ثم استرعت بصري حركة خفيفة، فتبيّنت طيفاً في منتصف المسافة على الضفّة العليا من الجانب الآخر للبحيرة.

كانت فلورا قد ارتقت تلك الضفة التي كانت منحدرة وإن لم تكن شديدة الانحدار ـ متّجهة صوب الأخدود المرتفع الذي ينزل منه الجدول ليصبَّ في الشلاّل. ووقفت متوازنة على صخرة بأن أمسكت بيدها غصناً يتدلّى فوق رأسها ـ ونَظَرَتْ خلفها. وكان ثوبها الرقيق يلتصق بجسدها فبدت كأنها فتاة عارية يحجب ملامحها الهواء الذي لا يكفّ عن الحركة، متألّقة يتقاطر منها الماء كالصخور المحيطة بها، جِنّية صغيرة من نور وماء.

ناديتها، فأجابتني بشيء لم أستطع الاستماع إليه، وشرعت أتسلّق من جديد.

وشققت طريقي على قدر ما وسعني الجهد. وكانت الصخور على أحد الجانبين تنحدر انحداراً مباشراً إلى البحيرة، ولكي تصل فلورا إلى المكان الذي كانت فيه، كان لا بدّ لها من أن تسير تحت الشلال. وتذكرت سلسلة الصخور الزَّلِقة الممتدة وراء مسقط الشلال. واختفى طيف الفتاة المتسلّقة عن ناظري وسط الشجيرات الخطرة المنتشرة في أعلى المكان. وتحايلت على الدخول في الفجوة التي ينبعث منها صوت يصمّ الآذان خلف الشلاّل، وانزلقت بحذائي الخائض في الماء لأستقرَ في ظلمة الطحالب الإسفنجية ونبات السرخس. كان المكان بارداً، وسدَّدتْ إلى المياه المتساقطة لطمة عنيفة على أحد كتفيَّ فطرحتني على الجانب الآخر.

تمكنت من رؤية فلورا الآن فوقي مباشرة، وقد استندت إلى شجرة مباعدة ما بين ساقيها، وانتشرت تنّورتها البيضاء حولها وكانت إحدى ساقيها الطويلتين مدلاّة، ثم أخذت تتسلّق إلى أعلى. وألقى بصيص من الضوء نفذ خلال المطر ـ غمامة فوق الصخور بحيث بدت الفتاة وكأنها محتواه داخل أسطوانة ذهبية. جلست شاخصاً ببصري إلى

شكلها وهو يطفو، ودار رأسي فجأة من جنون المطاردة، وأصابني صوت الشلاّل بالصمم، فأحسست أنني متجمد من البرد، مرهق من الجهد الذي بذلته. ناديت مرة أخرى، ثم خطر لي أنها قد تكون صاعدة إلى الطريق الممتد فوقنا حيث ينتظرها شخص ما. ولعلها تمضي ساعية إلى لقاء أخير - لا سبيل إلى وصفه - مع ليڤكين، وشرعت في التسلّق.

وسقطت صخرة متطايرة بقوة ملحوظة، ولكنها أخطأت رأسي. وتبعتها أخرى. فانبطحت على الصخرة. وهنا أصابني شيء ما بحدّة وبألم فوق أذني. فهبطت خطوة أو خطوتين، فتلقيت قذيفة مباشرة في صدري. فلم أر مفراً من حماية وجهي والانزلاق عائداً إلى الرصيف بجوار الشلاّل. واستطعت أن أسمع بوضوح تام الآن صوت فلورا صائحاً فوق رأسي: «أيها الخرتيت! أيها الخرتيت!» تفاديت حجراً آخر. وحينئذ لمحتها من خلال الخضرة المتألّقة وقد بلغت بركلة نهائية الممرّ الممهّد عند قمة الأخدود. فأصبح من العبث أن أتعقّبها الآن، فقد هزمتني الأحجار. وبهذه الصيحة التي ردّدت «أيها الخرتيت» أدركت - على نحو ما - أنها آمنة متحرّرة، وبأنني صرتُ شخصاً لا تدعو إليه ضرورة. لم يعد ثمة ما أستطيع أن أفعله من أجلها، ولم تعد تستطيع أن تفعل شيئاً من أجلي.

وعندما تلفتّ حولي، لمحت عبر البحيرة، فوق الممرّ الذي تركته تواً، طيف فتاة أخرى. وكان المطر قد توقّف، والضوء الغائم المشمس آخذ في الازدياد. وخفّف المطر من حدّته أثناء مراقبتي، كستار ينسحب بانتظام إلى الخلف، وقامت البحيرة السوداء بتأليف صورة ماجي المنعكسة في صفحتها. وتوغلت في كهف الشلال، وتلقيت قوة المياه المتساقطة على كتفي الأخرى.

أحسست براحة صريحة مفاجئة عند رؤية ماجي، كما أصبحت على وعي في الوقت نفسه ـ بمدى الارهاق المفرط بحيث كدت أتهاوى على يديَ وركبتيَ. كنت في حالة من الإعياء الشديد، أرتعد بألم غاية في العنف استبدّ برأسي. وأحسست أنني مريض، مصاب بدوار. وكنت على وشك الجلوس على حافة البحيرة، غير أن ماجي كانت قد بدأت فعلاً في الرجوع، ودخلت في شجيرات الكاميليا. فسرت على آثارها مترنّحاً داخل الغابة.

كانت الأغصان تُساقط قطرات الماء بصوت أجوف. «لم أستطع اللحاق بها. هل تعتقد أنها ستكون على ما يرام؟».

ـ «أجل، أعتقد ذلك الآن. كنت أخشى من البحيرة».

ـ «وكذلك كنت أنا. ولكني أظن أنها لم تكن تقدر على الوقوف هناك. كيف تجري الأمور الآن؟».

ـ «لا أدري، ولم أكن استطيع الاحتمال.. فجئت وراءك في الحال».

وتحرّكت ماجي على بعد خطوات أمامي، وكأنها تطفو فوق الأرض السوداء الجرداء. وكنت أستطيع أن أرى حذاءها الأبيض الذي لم يكد يصيبه رشاش من الماء ـ يومض في غسق الغابة. لا بد أن المساء كان وشيكاً. والحق أنه كان يوماً طويلاً. وجاوزنا شجيرات الكاميليا وبلغنا الممرّ الكثيف الأعشاب بجانب الجدول. وكانت النباتات الطفيلية كالعليق والحشائش الغارقة في المياه تلتفّ حول ساقيّ بحيث تعوقني عن التقدم، حتى كدت أسقط إعياءً وحنقاً. وكان الألم في رأسي يكاد يعميني، وجعلت انتفض من البرد.

ـ «لقد فقدت حذائي». وكانت ماجي التي داست لتوِّها على كتلة

مخفية من الخشب، تقف بلا حول ولا قوة إلى جانب الممرّ، وقد اسود قدماها بجوربيهما بفعل الوحل.

كانت الظلمة حالكة في المنطقة التي تعلو الأرض مباشرة. فأخذنا نضرب على غير هدى، وبلا جدوى، ننخس ونشدّ الحشائش، وتمزّقنا بعنف شجيرات العليق والورود البرية. وكان يبدو أن الأضواء تومض في كل مرة أنحني على الأرض، فشاهدتُ يدي الباحثة الملطّخة بالدماء وكأنها تنتمي إلى شخص آخر. ولم نعثر على أثر لحذاء ماجي. لا بد أنه استقر في فجوة كثيفة العشب أو سقط في جحر كائن ما يعيش في شاطىء النهر. وبعد كثير من التفتيش والعراك مع الحشائش استقمنا ورفعنا رؤوسنا وواجه كل منا الآخر في تلك العتمة تحت أشجار البتولا الطويلة.

وكان من المحال أن أدعها تسير عارية القدمين في هذا الدغل الشائك. «أظنّ، إن لم يكن في ذلك ما يزعجك ـ أنه لا بدّ من أن أحملك». وكان قولي هذا خالياً من كل لباقة.

قالت بصوت مكتوم: «أجل، أظنّ ذلك». وواجه كل منا الآخر بنظرة يشيع فيها الحرج.

وفي اللحظة التي هممتُ بحملها، راودني شك حقيقيّ في قدرتي على احتمالها. وكنت في اللحظة السابقة على هذا الاقتراح، لا أكاد أستطيع جَرَّ نفسي. وبدا لي أنّ حملها خلال هذه الأجمة المعشوشبة التي تَقطر ماءً أمرٌ في غاية من المشقّة، محاولة حمقاء أخيرة، ونهاية غبيّة شائنة للجنون الذي شاهده يومنا هذا. وأحسست أنني سوف أترنّح إلى الأمام وأهوى معها داخل تلك الأجمة الكثيفة من الأغصان المتشابكة.

وانحنيت قليلاً نحوها ورفعتها بأكملها من الأرض. وضَغَطْتُ ضغطة

خفيفة على رقبتي، وبدا عليها أنها تطير إلى أعلى. وكانت تفوح منها رائحة المطر.

لم يكن من العسير حقاً أن أحملها، فقد كانت خفيفة على نحو أشبه بالمعجزة. ويبدو أن الألم زال عن رأسي، وأخذت ركبتاي تضغطان بقوة وثبات في تقدمهما خلال الخضرة الطيِّعة. وكان الأمر أخفَّ فوق رأسي. وتدفّق دفء عظيم من جسدها إلى جسدي. وبعد لحظة أو لحظتين لم أعد أعي. إلاّ ضغط جسمها الخفيف على صدري، وإحكام ذراعها التي طوّقت به عنقي، والمكان الدافىء الذي مرّت فيه يدي تحت ركبتيها. وخرجنا إلى الفضاء الرحب قبل أن نصل إلى المرجة مباشرة.

وأنزلتها على مهل. كان ثمة شيء أريد أن أقوله. وبدأت: «ماجي...».

فقاطعتني بكلمة لم أسمعها جيّداً. ولم أدرك تلك الكلمة التي تفوّهت بها إلا بعد ذلك بكثير. ذلك أننا في تلك اللحظة شاهدنا معاً لساناً هائلاً من اللهيب الأصفر صادراً عن نافذة حجرة إيزابيل. كان المنزل شعلةً من النار.

١٨ ـ خواتم السا

ـ «أما زال هناك؟» .

ـ «نعم» .

وفتح أوتو زجاجة شمبانيا أخرى . كنا قد مكثنا فترة طويلة من الوقت محبوسين في حجرة الانتظار في ذلك المستشفى الصغير الأبيض . واصطدمت السدادة بالسقف ، ولَحِقت بسدادات أخرى متناثرة على الأرض . وضرب أوتو حافة الكأس برقبة الزجاجة في إيقاع غير منتظم . فانساب الزبد الأبيض الشبيه بالدخان على يده المضمَّدة . وتجرع أوتو كأسه على عجل ، ثم جعل يذرع الغرفة مرة أخرى جيئة وذهاباً ، سائراً ثم منقلباً على عقبيه في هذا المكان الضيّق المرة تلو الأخرى . وكانت هناك علامة على الجدار يحتكّ بها في كل مرة يدور بكتفه . كانت إلسا قد ماتت .

قال أوتو: «احترق ثوبها بسرعة عجيبة ، وكنت قد ألقيتها على بطنها في الحال بالطبع ، وحاولت أن أطفئه . ولكنها كانت كشعلة محترقة» . وكان قد أعاد هذا القول على مسمعي عشر مرات ، عشرين مرة .

ـ «لو أنني لم أغادر المكان . . .» قلت هذا عشر مرات ، عشرين مرة .

ـ «كانت تدور مثل درويش (صوفي) في تلك الحجرة. ولكن ذلك ما كان يغيِّر شيئاً».

من يدري؟ لماذا أغرتني فلورا في تلك اللحظة دون اللحظات جميعاً ـ لتعقّبها إلى الخارج كأنها شيطانة؟ فلو أنني تصرّفت على نحو مختلف مع فلورا، فربما لم تمت إلسا. أحسست أنني قتلتها، أننا جميعاً قتلناها، وكنت أعرف أن أوتو يشعر بهذا الشعور نفسه.

ـ «لا أظن أنها تعذبت كثيراً، أليس كذلك؟ ليس بعد الحظة الأولى. بالتأكيد لم يكن في وسعها أن تتعذّب. فما كانت تدري». وهذا القول أيضاً ردّده مراراً وتكراراً.

ـ «لم تكن تدري. كانت في غيبوبة عندما رجعت. ولم تعد إلى وعيها مرة أخرى. وقد قال الطبيب. . . ».

كنا نردد الكلام نفسه مرة بعد أخرى.

قال أوتو: «ومع ذلك استغرقت المسألة وقتاً طويلاً». وكان يتحدث بصوت متهدج وديع يختلف تمام الاختلاف عن صوته المعتاد». ربما كانت تدري. وعندما ظنوا أنها في غيبوبة، لعلها كانت تفكر. لعلها كانت تفكِّر فيَّ، وفي الطريقة التي كنت أعاملها بها.

ـ «كفّ عن هذا يا أوتو. وتوقّف عن الشرب».

كان أوتو يعب الشمبانيا دون انقطاع. ويصرّ إصراراً اتخذ صورة نظرية فيها كثير من المغالطة المضحكة ـ أن الشمبانيا هي الشراب الوحيد الذي يمكن أن يستمر فيه المرء ويستمر دون إدمان. أما أنا، فلم أكن أطيق منظر الزجاجات.

قال: «لم يعد مما يقبل التصديق الآن أن أفعل ذلك. . أن أهجرها

على هذا النحو. كان من الممكن معالجة الأمر بطريقة ما. كان ينبغي أن أحبّها وأن أجد طريقة للاستمرار في حبّها». وكان موتها قد جعل حبّه كاملاً. ورأى الآن ذلك المطلب اللامتناهي الذي يمكن أن يطلبه شخص من شخص آخر. وأدرك الآن أنه كان يستطيع أن يحاول محاولة أكثر كمالاً لتلبية كل التزاماته. وبالقوة المخيفة التي زوّده بها موتها بدا له الآن أن نجاحه كان ممكناً.

جلست على المنضدة. كنا أشبه برجلين في سجن. وكان لدينا ذلك الإحساس باستحالة وجود مزيد من الامكانيات، وأنه لم يعد هناك سوى الـ «هنا» و «الآن» والـ «هذا». وكنا قد سَكَنَّا في هذه الغرفة الصغيرة أثناء ذلك الوقت الطويل الرهيب الذي استغرقته غيبوبتها. والآن، حان وقت الرحيل، ولكننا لم نكن نستطيع الرحيل. وكنت أستطيع أن أرى أن أوتو لم يعد مدركاً لنفسه.. ولهذا كنت أفزع من مهمة اصطحابه بعيداً.

ـ «أأنت على يقين من أنه مازال هناك؟».

ـ «أجل. رأيته من خلال الباب الزجاجي. أتريد التحدث إليه؟».

قال أوتو: «كلا». كان وجهه مازال متخذاً تلك الجهامة التي شاهدتها عليه عندما عُدْت من الغابة. كلّ ما في الأمر أن القناع قد أُرْخِي قليلاً. وجاوزني متثاقلاً صوب الجدار. «قابله أنت، يا إد. وانظر ماذا يريد أن نفعل... أوه، يا إلهي!».

كنا جميعاً قد نُقِلنا إلى مستوى آخر من الوجود. كان أوتو يعيش الآن في عذاب ما بدا له، أو لعله كان ـ حقيقة علاقته بإلسا. ثمة شيء له طابع النهاية القصوى، حقيقة ما. أبشع من أن تخضع للتأمل، ومع ذلك جلية على نحو آسر، ألْقت بنفسها خلال سطح حياتنا كأنها حوت

مفترس. ونتيجة لهذا أصبح كل منا منعزلاً عن الآخر، كأنما أُغْلقت علينا زنزانات منفصلة. ومنذ أن وقعت الكارثة كان كل من أوتو وديڤيد يعامل الآخر في لطف، بل أكاد أقول في حنان كان يبدو في وسط هذا الكرب الفادح الذي أَلَمَّ بكل منهما ـ معجزة من معجزات الرعاية. كان بينهما احترام يشبه الحب، ولكن دون اتصال.. كان لكل منا إلساه الخاصّة. وفي مراعاة متفانية اعترف أوتو بما لديڤيد من حقوق، حقوق تبدو ـ على نحو محزن رهيب ـ مثل حقوق الملكية، أنه كان أول من عاشر إلسا. فكانت هناك الترتيبات، والسهر، والآن...

قلت: «سأتحدث إليه إذن. هل أطلب منه أن يعود إلى.. المنزل؟». وبدا هذا القول غريباً.

قال أوتو: «أجل. ولكنه لن يأتي». ورفع رأسه، ولبرهة قصيرة انجاب قناع الألم على نحو عجيب، وظهر أوتو جديد، خالٍ من كل كدر، زاهد، متحرّر من كل سيطرة.

ـ «ينبغي أن نرعاه».

وهز أوتو رأسه: «لا نستطيع.. نحن لا نستطيع». وعادت التكشيرة القديمة. قال: «أمن الممكن أن نعود أبداً كما كنا، يا إد؟».

كنت أدرك ما يعنيه. فلم يكن الأمر مقصوراً على ما رأيناه وسمعناه في تلك اللحظات: الحجرة المشتعلة، والنسوة الصارخات، ومعالجة الجسد المحترق. لقد شاهدنا بغتة أموراً أكثر مما يلزم، أكثر مما يلزم عن الأخلاقيات والمصادفة، أكثر مما يلزم عن عواقب أعمالنا، أكثر مما يلزم عن طبيعة العالم الحقيقية. فأجبت: «بلى، لسوء الحظ».

وعبر شخص ما بسرعة خلف لوح الباب الزجاجي، فجفلت. «ستكون بخير يا أوتو، أليس كذلك؟ سأعود مباشرة».

ـ «أجل، اذهب، اذهب».

كان ديڤيد قد اختفى فعلاً. فعدوت في دهليز أبيض، ثم هبطت عدة درجات حجرية إلى جانب بيت المصعد. وتناهت إلى سمعي خطوات راكضة تسبقني. وشرعت أركض أنا أيضاً.

وخرجت إلى رواق طويل يؤدّي إلى قوس بعيد. كان الفتى يسبقني بمسافة طويلة، وهو يركض كالغزال. واستدار صوب المدخل الرئيسي، ثم اختفى. وعدوت بسرعة أكبر في القاعة الخالية، النظيفة، البيضاء، ومررت بين صفوف الأعمدة، ثم خرجت إلى شارع مزدحم، في مساءٍ صيفيّ ممطر. فشاهدته وهو يجتاز الشارع، ورأيت أنه يحمل حقيبة سفر.

بعد كل تلك العزلة، وكل تلك الحياة الحبيسة، أصابني ضرب من الارتباك من الوجوه المتزاحمة القريبة مني. وثمة مطر خفيف يتساقط، لمس جبيني وشعري لمسة لطيفة معبِّرة عن الشك. وأظهر ضوء الشمس الأصفر المباني مفعمة بالحيوية، قريبة تحت سماء رمادية. وتعقّبت ديڤيد عبر الشارع.

وعاود الركض مرة أخرى. ومع أنه لم يلتفت خلفه، فقد بدا مثل شخص مطارَد. وحجزني المرور في طريق جانبي، فارتدّ على عقبيه. وكنت أستطيع أن أرى رأسه بعيداً بين كثير من الرؤوس، وخطر لي أنه قد يختفي الآن، وحينئذ لن أسمع عنه شيئاً بعد ذلك، فملأتني هذه الفكرة بشجن مباغت. فانطلقت أمام سيارة نقل وشرعت أجري بطول حافة الطريق، متواثباً إلى الطريق حيناً بعد حين في وجه الحشد البطيء المتدافع العائد إلى المنزل.

ـ «ديڤيد!».

وكدت ألحق به عندما انعطف فجأة إلى فناء من الطوب الأحمر، فرأيت أننا في محطة السكك الحديدية. وهنا كان الناس أقل عدداً. فحثثت خطاي، وأمسكت بذراعه.

- «أوه، اهذا أنت. كنت أحسبك أوتو». وبدت عليه خيبة الأمل برهةِ من الزمن. ثم استدار، وسرنا معاً بخطوات أبطأ حتى دخلنا قاعة المحطة.

- «ما كان ينبغي أن تجري على هذا النحو. أتكون عازماً على الرحيل؟».

- «أجل». ولجأ إلى جدول للمواعيد معلق على الجدار. ثم ذهب إلى شباك التذاكر. بينما وقفت أنا خلفه بلا حول ولا قوة، بل أكاد أقول خجِلاً كان هو أيضاً يتخذ وجهاً جديداً.

استدار إليّ الآن في مزيد من اللطف، وبدا عليه أنه كان يتوقع مرافقتي له. «رصيف رقم ثلاثة، وانتظار عشرين دقيقة».

مشينا على الجسر صامتين. كان قد ذرف كثيراً من الدموع بحيث تغيرت صورته الجانبية تماماً، وكانت وجنتاه وأنفه منتفخين لامعين. وكان قناع تعبيره مختلفاً أيضاً، وخطوط وجهه تبدو في غير موضعها وغير متسقة وكأن الينبوع الداخلي الذي كان يمدّ عينيه الضيقتين بالغضون المشرقة قد نضب معينه. لم يكن يبدو أكبر سناً، ولكنه كان يبدو مثل طفل تَعِس. كان قلبي مقروحاً من أجله. ولكنني أحسست - كما أحس أوتو - بانفصاله المتميِّز.

- «ديڤيد، أنا لا أريد أن أزعجك الآن، ولكنني مرغم على ذلك. فأوتو يريد أن يعرف. . ماذا تريد أن يُفْعل. أم تُراك قد رتبت شيئاً بالفعل؟».

ـ «كلا. أرجوك دع أوتو يرتّب هذا. سامحني إن تركتُ ذلك لك. أنت تفهم، فأنا لا أستطيع...».

ـ «نعم، نعم. هذا صحيح، فليكن لك ما تريد. هل لديك رغبات خاصة؟ شعائر دفن يهودية..؟».

ـ «أجل». ويبدو أنه أجفل قليلاً. «بالطبع. ولا استطعت أن تجد زعيم الطائفة اليهودية، فسيقوم بترتيب كل شيء». وكان يبدو عليه الارتباك والشرود فعلاً. ورأيت أن الدموع على شفا الانسكاب مرة أخرى، فأطرقت برأسي، إذ لم أكن أطيق سرّ آلامه.

قلت: «هل ستكون على ما يرام؟ نحن نريدك أن تأتي إلى المنزل».

فأنزل حقيبته على الأرض، ووضع كفّيه على وجهه وكأنه يحاول تبريده. واحتضنت أصابعه وجنتيْه المنتفختين المشوهتين.

ـ «هذا عطف منكم. ولكن، لا بد من رحيلي. سأكون بخير».

قلت في شيء من البلاهة: «لا تحزن» وأحسست أنني على حافة الدموع أنا نفسي.

تنهد بعمق شديد: «كنت أعرف أنها طفلة قُدِّر عليها الهلاك. وكنت أعرف أنه ينبغي عليّ أن أتركها خلفي».

وجعلتني رزانة هذه الكلمات أفهمه على أنه طفل هو نفسه. «إلى أين أنت ذاهب يا ديفيد؟ هل ستعود إلى الجنوب حيث يقيم أهلك؟ لا تعشْ وحيداً».

ـ «الجنوب؟» وبدا عليه الاضطراب لحظة، ثم قال: «كلا، كلا. سأعود إلى وطني، إلى الشمال الحقيقي». وابتسم ابتسامة متكلّفة،

وفرك عينيه.

وحيّرتني كلماته: «أين. . . ؟».

- «سأعود إلى لينينجراد».

- «تعود. . ؟» وحملقت فيه. «ولكنني كنت أظن. . .».

- «كنت تظن أنني مولود في «جولودز جرين»، وأن أبي - نسيت ما كان - تاجر فراء؟ كلا. لم تكن هذه سوى أكاذيب. لقد أتينا من لينينجراد كما قالت، كما قالت بالضبط».

- «أنت تقصد كل شيء، القصة كلها؟».

- «الغابة أثناء الليل، والأنوار الكاشفة، ويد أبي. . كل هذا صحيح - كل كلمة كانت صحيحة كما قالتها بالضبط».

وتفرّست في وجهه الملتهب المضطرب. «ولكن لماذا. . ؟».

- «لماذا كذبت. فليكن. ولكن لماذا ينبغي أن أقول الحقيقة، مثل هذه الحقيقة، لكل من يسأل؟ لماذا ألبس مثل هذه القصة دائماً حول عنقي، وأكون مثل هثل هذا الشخص أمام العالم؟ أوه، كانت هناك أشياء أسوأ من ذلك، أسوأ من ذلك. لم أكن أريد أن أكون رجلاً مأساوياً، شخصاً معذَّباً، وإنما كنت أريد أن أكون خفيفاً، وجديداً، وحرًّا. . .» كان يتحدث نافد الصبر، ملوِّحاً بيديه وكأنه يمسك بالتخيّلات المظلمة التي تقاطرت عليه.

كان من المحال أن يراودني شك فيه الآن. ولما خطر لي أنه لم يهرب حقاً من مصيره في المعاناة، فقد أدركت الآن دلالة كلماته السابقة. «لينينجراد؟ ولكن، يا ديفيد، عليك أن تتروّى. . .».

قال: «أريد أن أرى نهر النيڤا مرة أخرى. اريد أن ألمس تلك

الكتل الجرانيتية القائمة على أرصفة الميناء، وأشاهد الأدميرالية ترتفع شامخة في الشمس. . . ».

- «ديفيد، لا تكن مأفونا إلى هذا الحد. إنك لا تستطيع أن تعود إلى هناك. فربما ألقوا بك في غيابة السجن. قد يحدث لك أي شيء».

وبسط يديه بطريقة جعلتني أرى أنه يهودي حقًا.

- «من يدري؟ أعتقد أنني سأكون بخير، واعتقد أنهم سيتركونني وشأني. ولماذا لا يتركونني وشأني؟ وأنا على أهبة الاستعداد للمجازفة إذا سارت الأمور على خلاف ما أتوقّع. وحتى لو كانت خلاف ذلك؟ إنه مكاني وعلى المرء أن يعاني في مكانه الخاص».

قلت -: «أنت أحمق مأفون صغير» وكنت أريد التأثير عليه، وأن أنفضه من لحظة الوهم هذه. «أنت في حالة كاملة من الجنون، حالة متطرفة من حالات العقل في هذه اللحظة. وتريد أن تموت أيضاً. وما ينبغي عليك ببساطة هو ألا تتخذ الآن قراراً لا رجعة فيه. . عليك أن تتريّث».

وهزّ رأسه قائلاً: «الآن هو الوقت، الوقت بالضبط لاتخاذ القرار. ألا تدرك أننا نعرف الآن حقيقة أنفسنا. حقيقة سوف يصيبها الذبول».

كان هذا هو ما قلته أنا نفسي بالضبط إجابة على سؤال أوتو. سوف يذبل هذا كله. ولكنني أجبته: «أرجوك ألاّ تذهب».

- «إنه المكان الوحيد الذي أكون فيه حقيقياً. وهناك يتحدّثون لغة قلبي».

- «ربما حطّموا قلبك. لا تكن رومانسياً بهذا الصدد».

- «أنا الآن في الحقيقة. وهذه هي اللحظة لاتباع الحقيقة إلى أية حماقة ساقتني».

- «ستكون حماقة طويلة الأجل جداً، يا ديڤيد».

- «فليكن، الأمر على هذا النحو. ولكنني غير مُجْدٍ هنا. قد لا تفهم، ولكن لا شيء يعني أيَّ شيء بالنسبة لي خارج روسيا. إن لغتكم جافة، جافة في فمي. أنا هنا لا - إنسان، وسأصبح هنا مهرّجاً، لاشيئاً، دمية شخصٍ ما، كما كان من الممكن أن أكون دمية أخيك لو أردت ذلك. وأنا أوثر الموت على أن أكون إنساناً خالياً من المعنى».

- «لا تكن مجنوناً. قد تشعر بهذا. ولكن فَكِّر في الحرية. قلت إنك تريد أن تكون حراً، خفيفاً، أن تكون جديداً. الحرية هي ذلك الشيء الضروريّ. وهناك، أياً كان ما تحصل عليه سواها، فلن تحصل على هذا». ونظرت في ساعتي. كان أمامي عشر دقائق لأثير فيها نظرية المسألة كلها، عشر دقائق لاقناعه.

ابتسم ابتسامة حانية، دافعاً بفمه كله ضد ما ارتسم على وجهه من تعاسة. «لا جدال مع ما استقرّ في قرارة قلب الإنسان. لا يستطيع كل إنسان أن يحصل على هذا الشيء، الحرية. وألاّ يتحطم بها. إنها طريق في اتجاه واحد للحياة...».

- «أحمق!.. أمعن الفكر، ماذا ستفعل في لينينجراد؟ تَخيّل، تخيل! ماذا عن رسمك؟ تحدثت إليّ عن هذا...».

- «لقد أحرقت هذه اللوحات.. ويسرّني أنك لم تشاهدها. أنا لا أملك أية موهبة. وهناك أشياء أهمّ».

- «قد يكون الأمر كذلك. ولكن بالنسبة لك..؟ ليست المسألة هي أية حياة أفضل، بل الحياة التي يمكنك أنت أن تحياها على أفضل

نحو. ينبغي أن تضع في اعتبارك احتياجاتك الخاصة، دون أن يكون ذلك من أجلك فحسب».

كيف يمكن أن أشرح له هذا كله في عشر دقائق؟

ـ «ليس لدي مثل هذه الاحتياجات. وإنما الاحتياجات التي تحدثت عنها فحسب. أن أعود إلى هناك. يقول الشاعر «روسيا تشرق في قلبي». أنا لا أريد الرحيل. إذ لا يستطيع المرء أن يفرّ من عذاب العالم».

ـ «كما لا يحتاج المرء أن يغازله. أتذكر ما قلته لي عن وجود صنفين من اليهود...».

ـ «لم أكن أومن بما قلت حقاً، على الأقل بالنسبة لي. وكنت أعرف أنني سأقع في النهاية، من خلالها...».

ـ «ألديك أية عائلة هناك؟».

ـ «أخت واحدة».

ـ «آه، أخت أخرى. ماذا تصنع؟».

وابتسم تلك الابتسامة الأليمة الجذابة مرة أخرى: «إنها إنسانة ناجحة، مهندسة».

ـ «لعلها أفلتت من قَدَرها اليهوديّ».

ـ «لعلني أنا قدرُها اليهوديّ».

ـ «أنت تلقي بنفسك في النار».

ـ «من تقاليد أسرتنا أن نفعل ذلك».

صدمتني صرامة بديهته بإحساس رهيب بجدّيته. أبصرته هناك مُتْرَعاً بيأس الشباب، بتلك النزعة المطلقة الجميلة التي يمكن أن تسوق المرء صوب ضياع يلازمه مدى الحياة. «لا ترحل يا ديفيد. أرجوك،

فكّر هنيهة على كل حال. انتظر شهراً أو شهرين دون أن تتخذ قراراً. دعني أراك مرة أخرى وأتحدث إليك. تعال، وامكث في منزلي، واسترح وامعن الفكر في هذه المسائل جميعاً. أرجوك، دعني اعتني بك».

فسدَّد إليّ نظرة ثاقبة من عينين واسعتين مفتوحتين محتقنتين بالدم. «وما تظنّ أن تكون نتيجة ذلك؟ كلا، كلا. من الأفضل أن تفعل الشيء الخطأ لأسباب صحيحة من أن تفعل الشيء الصحيح لأسباب خاطئة. آه، إنك لا تفهم...».

والواقع أنني كنت أفهم حقّ الفهم. وكنت أستطيع أن أقحم يديّ في تلك الورطة المتشابكة للمصير الإنساني: تلك الايحاءات نصف المُدركة عن الخطأ والصواب التي تدفعنا دفعاً إلى سُبُل غَسَقية لا رجعة منها.

قلت له بخشونة: «أنت لا تملك أجرة السفر».

فابتسم، بصورة أكثر انطلاقاً هذه المرة، فتذكرت نظرة أوتو عندما يسقط عنه القناع: «بلى، أنا أملكها».

وفتّش في جيبه، ثم أخرج قبضته مطبقة. وأدارها ثم فتح راحته. كانت فيها أربعة خواتم ماسية.

وفي صدمة اختلط فيها الفزع والجزع تعرفت عليها. «إذن فقد كان هذا الجزء من القصّة صادقاً أيضاً».

- «قلت لك إنها كانت كلها صادقة. كان أبي رجلاً موسراً. أما هي... فلم تكن تعباً...».

- «ربما كان والدك هو الذي يعبأ. وقد حصل على هذه الخواتم ليساعدكم على الخروج، لا على العودة».

هزَّ كتفيه. «لقد حصل عليها من أجل مستقبلنا».

ووصل القطار. فتناول ديفّيد حقيبته. وبفورة أخيرة من فورات الإرادة أخرجت من جيبي كتاباً، وسطرت عنواني على صفحة من صفحاته. ودسست الورقة المطوية في جيب سترته الملاصق لصدره. «هذا هو المكان الذي أعيش فيه. فكِّر مرة أخرى. ودعني أعرف».

واستدار ليفتح باب إحدى العربات.

- «ألا تريد أن تبعث بأية رسائل.. إليهم؟».

توقّف لحظة. «كلا. أفضل ما يمكن أن أرجوه هو أن أبدو لهم بسرعة شخصاً غير حقيقي، كما سيبدون لي».

- «ليس هذا هو أفضل شيء كما تعلم».

- «ليس في مقدور المرء دائماً أن يفعل الأفضل، كما تعلم أنت». وسقطت الورقة المطوية بيننا على الأرض.

وانطلقت صفّارة القطار. ووضع قدمه على السلّم. وعن قصد وتعمد ضَمّ كتفي وقبّلني على كلا الخدّين. «وداعاً، يا لورد إدموند».

١٩ ـ خشب البقس(*)

قال أوتو: «حلمت ليلة أمس أن طائراً هائلاً يحوم في المنزل. وحسبته في بادىء الأمر حداةً. . .».

قلت مكدوداً: «طائر جارح».

ـ «ماذا؟ على كل حال، كان هذا الطائر يطاردني خلال الحجرات ساحباً جناحيه وراءه كأنهما نوع من المقطورة، وكنت أستطيع أن أسمع صوت اصطفاق الأجنحة الثقيلة المسحوبة خلفي طيلة الوقت. وبلغتُ الهاتف طلباً للنجدة، غير أن القرص كان مصنوعاً من الحلوى الاسكتلندية(**)، ومن ثمّ لم أستطع أن أدير القرص، وحينئذ قام هذا الطائر. . .».

ـ «أوتو، يجب أن تتخذ قراراً فيما يتعلق بشاهد قبر ليديا».

كنا نحن الاثنين في الورشة. وكان أوتو يجلس على طاولة العمل، في مكان أخلاه من الأدوات، ليتناول غداءه. وكان قد حشا فمه فعلاً

(*) Boxwood هو نوع من الخشب الصلب الذي يستخدمه الفنانون في الحفر (المترجم).

(*) Butterscotch حلوى مصنوعة من سكر أسمر وزبدة (المورد).

بقطعة كبيرة من الجَزَر. ولما أردفها دون تمهّل بحفنة من البقدونس، تساقطت شرائح طويلة من الجزر الممضوغ على صدر أوتو العاري واستقرت على خصلات شعره المجعد. أما أنا، فكنت أجلس على كتلة من حجر الجير الايرلندي الأسود. وكان غبار الطَّلْع الأسود يغطي الأرض حولها، إذ كان أوتو قد عاد إلى العمل.

ومسح ذقنه الضخمة غير الحليقة بصوت يشبه الصنفرة. «أجل. كنت أفكر في هذا. فلنضع هذه الكلمات فحسب: «الزوجة المحبوبة لـ. . .» و «الأم الحبيبة لـ. .» العبارات المألوفة. ألا تعتقد ذلك. لقد كانت أمنا قبل كل شيء، وكانت زوجة أبينا. ولست أفهم لماذا لا تنتهي من هذه المسألة الآن».

- «أوافق. كنت أفكر في هذا أيضاً. ويا أوتو. . .».

- «ممم؟».

- «أتوافق حقاً على قبول اقتراح ماجي؟ لن تحدث ضجة بعد ذلك حول هذا الأمر؟».

- «أن أحتفظ بالمنزل، ونُقسِّم الباقي ثلاثة أنصبة؟ كلا، ليس لدي أي اعتراض على الإطلاق. إنه يبدو معقولاً، أليس كذلك؟ كان التأمين ملفقاً فيما يتعلّق بخسائر الحريق، حمداً لله. لقد قامت طفايات الحريق التي تركتها ليديا بعمل مجيد. وحجرة إيزابيل هي وحدها التي خفضت قيمة الموجودات».

وتفرّست في وجه أخي بشيء من الدهشة الخفيفة. إذ كنت أتوقّع أن يأتي بحركات احتجاج، أو يبدي شيئاً من الهرج والمرج: ولكن يبدو أن أوتو أخذ سخاء ماجي على أنه شيء مفروغ منه.

قال: «هناك أموال كثيرة، كما تعلم». وذلك بعد أن تركت دهشتي صمتاً موحياً.

- «أجل، أجل، أموال كثيرة. . وأعتقد يا أوتو. . .».

- «أجل، أعرف ذلك. أنك تعتزم الرحيل. آه، حسناً. ماجي تعتزم الرحيل هي أيضاً، كما تعلم. انتهت خدمتها. ولا أظن أننا سنراها مرة أخرى. تبدو المسألة كأنها نهاية حقبة من الزمن، أليس كذلك؟».

- «كيف ستدبِّر أمورك، يا أوتو. . . بلا أحد؟».

- «إذن فأنت تعلم أن إيزابيل سترحل أيضاً. كنت على حق حين لم أمنعها، ألست كذلك؟ ما كنت لأقترح هذا أبداً. غير أن كلاً منا كان يعاقب الآخر. وأشعر - على نحو غريب - أن كل ما حدث كان للأفضل، هذا الشطر منه. سأدبّر أمري ما دمت أستطيع أن أذهب إلى البقّال. وقد تعلمت كيف أطهو البطاطس. كل ما تفعله هو. . .».

- «أعرف ذلك يا أوتو، فقد طهوت كثيراً من البطاطس. سوف تدبّر أمورك».

- «وستدبر إيزابيل أمورها أيضاً. . إنها رائعة، كما تعرف».

- «أعرف ذلك».

- «أتعتقد أنه كان ينبغي أن أناضل، أن أحاول إقناعها بالبقاء؟».

- «كلا».

«أحسست بأنني كنت - على نحوٍ ما - غاية في الإرهاق - كنت أشبه بشخص يتخلّى عن شيء ثقيل جداً، يتركه يسقط منه، وقد تركتها تذهب بغير كراهية، أطلقت سراحها. ويبدو لي الآن أن ما فعلته كان جوهرياً، وصحيحاً صحة مطلقة، وأشعر بشعور أفضل نحوها. وأنت تعرف حين يتصرف المرء تصرفاً سليماً فإنه يشعر بغتة في نهاية الأمر أن المسألة هيِّنة جداً؟».

- «لا أعرف بالفعل».

- «ربما كان الأمر يرجع على نحو ما إلى كون المرء في حالة يأس.

تتذكر كيف قلت إنني أريد أن أجَرَّد من ملابسي، أن أُعَرَّى؟ وقد حدث ذلك. أصبحت نباتاً. ولم يعد هناك الآن أمل أو خوف من شيء، فأنا أعيش في الحاضر فحسب. بل لا أريد حتى أن أشرب. هل تظنّ أنني سأمضي على هذا النحو، أتظنّ أنني تغيّرت حقاً؟».

- «لست أدري، يا أوتو».

والحق أنه كان يبدو مختلفاً. الوجه العريض المترهّل يبدو مسترخياً، متداعياً، وكأن خيوط القلق قد قُطِعت. ومن خلفه - يشعُّ ضوءٌ، خالياً، رصيناً بصورة تدعو إلى الدهشة. وهذا شيء لم أكن أتوقعه: وإنما توقّعت دراما كاملة من الحزن العنيف والشعور بالذنب. توقّعت نوعاً من الانهيار. ولكن منذ أن عاد أوتو إلى المنزل، أخلد إلى الهدوء تماماً. وكان يعمل بانتظام، وقد أقلع تقريباً عن الخمر. لم يكن يتجنب الحديث عن إلسا؛ بل بدا أنه أقدر الآن على التفكير فيها أكثر مما كنتُ أظنّ. ولم يكن الأمر أنه يستهين بموتها أو أنه لا يستطيع أن يدرك نصيبه في هذا التحطيم. وإنما كان أن هذا التأملّ قد أفضى به - كما يقول - إلى نوع من التطرف ربما لم يكن اليأس هو اسمه الصحيح. كان بمنأى عن ضروب العزاء التي ينطوي عليها الشعور بالذنب. بل كان بمنأى حتى عن آلية التكفير المتّزنة. كان محطماً، وقد استحال إلى شخص بسيط بمعرفته معنى الفناء. أما أن يبقى على هذا النحو، فأمر لم يكن في استطاعتي التأكّد منه. ولكن الأمر الذي كان يمكن أن يدهشه أبلغ الدهشة هو أنني كنت أحسده.

- «إذهب» والتق بإيزابيل قبل رحيلك، يا إد. إنها تحبّك كثيراً. وقد تكون قادراً على مساعدتها، إنها الآن في الفندق».

- «أعرف ذلك. وسأذهب إليها هناك، ثم أعود لأحزم حقائبي».

- سيبدو لك من الغريب أن تذهب إلى منزلك، أليس كذلك؟ كلنا

قد أصابنا تغيير شامل، على حين بقيت أنت كما كنت. ولكن، كنتَ تسبقنا دائماً بأميال، متقدماً علينا. أنني أفكر أحياناً بأنّك مكلف بنوع من الرسالة الدينية، يا إد. لو أننا نشأنا نشأة مختلفة...».

- «كلا. إنك أنت صاحب الرسالة الدينية.. أما أنا فأحتاج ببساطة إلى وقت طويل لأبلغ المستوى الإنساني. أنت الذي ينظر...».

- «الذي ينظر؟».
- «لا عليك. ينبغي أن انصرف».

ونحّى أوتو البصل الذي كان يأكله جانباً، ومسح فمه بالشعر الأسود الحريري الطويل الذي يغطي ظهر يده. ونفض قطع الجزر المستقرة فوق صدره على سراويله القطنية الممزقة ذات الرائحة. ونهض كما تنهض الغوريللا، ونهضت أيضاً استعداداً للرحيل.

غير أن عينيّ انجذبتا إلى تغيير طرأ على اللون على يساري وسط الأحجار الطويلة. كانت فلورا تقف هناك بلا حراك بحيث بدت لحظة كأنها فتاة في صورة من صور المرحلة السابقة على رفاييل(*)، كلها صبر، وكلها نظر. وهنا أبصرت أنها أصبحت فلورا جديدة. كانت هي أيضاً قد تغيّرت. كانت أنيقة، مشدودة القوام، عصرية، متوتّرة ككلبة سلوقية من كلاب الصيد. وحين تَقَدَّمتْ، أجفلتُ أمامها.

ووضعت حقيبتها على الأرض، بينما جررت قدميّ جراً في تراب الحجر الجيري الأسود. فرمقتني بنظرة حادّة قصيرة، ثم استدارت بقسوة إلى أوتو. فتراجع قليلاً إلى الوراء، وهو ينظر إليها فاغراً فاه،

(*) رفاييل (١٤٨٣ - ١٥٢٠) هو أحد الرسامين الثلاثة العظام الذين أسسوا عصر النهضة وأصغرهم سنا (دافنشي ومايكل آنجلو هم الاثنان الآخران) (المترجم).

متلهّفاً وإن يكن ذلك في شيء من الشفقة. «فلورا...».

قالت بصوت مرتفع: «سأمكث هنا الآن.. وسأتولّى رعايتك».

كانت تبدو وتتحدث كما كانت ليديا تبدو وتتحدث. وانبعج أوتو كبالونة يتمّ تفريغها من الهواء، ورجع إلى مائدته. ثم ابتسم ابتسامة بلهاء معترفة بالجميل، وتحركتُ مبتعداً.

- «هل تزمع الرحيل، يا عمي إدموند؟».

- «أجل، يبدو ذلك. وأظن أنه سيكون هناك من يرافقني للتوديع!».

وابتسمت لكليهما. كنت في غاية السعادة لرجوعها إلى المنزل.

وحَوَّل أوتو إليَّ وجهاً مشعاً. وابتسم لي في حنان، وإرهاق، كابتسامة شخص في حضرة الموت. ولم أكن قد رأيت مثل هذه الابتسامة من قبل. أما فلورا فرمقتني بتلك النظرة الصارمة المتكلّفة التي ينظر بها الشباب الغض. وباركت كلا منهما بتحية سلام. «وداعاً.. إذن».

- «وداعاً، يا إد. وبالمناسبة، ماذا حدث لتلك الكتل من خشب البَقْس التي كان يملكها أبي وعثرت أنت عليها؟ أظن أنني أستطيع استعمالها على كل حال».

- «إنها في الطابق العلوي. وسأتركها في حجرتي. أنا سعيد لأنك تريدينها. لقد أصبحت كلها صالحة، سليمة، متماسكة مرة أخرى. وداعاً، يا فلورا. أرجو أن تكوني قد صفحت عني».

فعبست قائلة: «وداعاً» وهي تخلع سترتها في تؤدة. «هل تحسّنت عينُك؟».

ـ «أجل، كثيراً جداً. ولكنها ما زالت تبدو مضحكة، ومع ذلك أشعر بأنها على ما يرام». ومددتُ يدي، فتناولتها. لم نتصافح بالضبط، وإنما كان الأمر أشبه بعناق طاهر.

ـ «وداعاً، يا إد. شكراً على كل شيء. ما أنا إلا حطام».

ـ «الحيوات الإنسانية تنصلح أيضاً، على نحو خفيّ».

ـ «أما حياتي أنا فمن تلك الحيوات التي تكون أفضل حين تتصدَّع. وداعاً (تشاو)(*) يا إد».

ـ «وداعاً (تشاو)(*) يا أوتو».

وتركتُهما معاً، وأخذت أمسح الزبدة والبصل عن يدي بمنديل.

(*) قيلت في النص الانجليزي بالايطالية Ciao (تشاو). (المترجم).

٢٠ ـ إيزابيل في منظور بعيد المدى

«أَتَعْلم، أظن أن أوتو هو الشخص الذي كان ديڤيد يحبه حقاً». قلت: «ربّما».

ـ «كان ـ بكل تأكيد ـ يحب أن يخاف أوتو. وهذا نوع من الحب، أليس كذلك؟».

ـ «بلى. هناك أنواع كثيرة من الحب، يا إيزابيل».

كانت تقوم تدريجياً بتعرية المشهد. كانت حجرة الفندق الرخيصة البنيّة العارية من الأثاث تبرز من تحت تلال من الملابس ذات الريش الأملس بعد أن طوتها إيزابيل سريعاً في مجموعة من اللفائف التي كوَّنت مربَّعاً صغيراً خرافياً، ورتَّبت بعضها الآخر في حقائب. وكان المنظر أشبه بطيور ممسوخة.

ـ «أظن أنه كان يريد من أوتو أن يضربه».

سألتها: «إذن، فهو لم يخبرك بالمكان الذي رحل إليه؟».

ـ «كلا. لم يذكر في خطابه سوى أنه مسافر إلى الخارج. وأظن أنه يقصد أمريكا. أوه، لا أتوقَّع أن أراه مرة أخرى، يا إدموند. أنا لا أتوقع حقاً».

وتنهدتْ.

وتنهدتُ أنا أيضاً. كنت قد اعتزمت ألا أخبر إيزابيل بحديثي الأخير معه. كان من الأفضل أن التزم الصمت. وأن أترك المنطق العميق للموقف متوارياً تماماً. وكانت البساطة أفضل من الحيرة. جلست على السرير الذي رفعت عنه الأغطية فعلاً. وبدأت أصواتنا يتردّد صداها في الحجرة الخاوية. كيف غرّرنا جميعاً: أوتو، وإيزابيل، وديڤيد.. وأنا نفسي؟

ـ «أمريكا. أجل. هل ستتدبَرين أمرك يا إيزابيل؟ أعني، إذا كنت في حاجة إلى نقود، بالطبع، أوتو...».

ـ «أوه، عندي بعض المال الخاص بي، لا تقلق هل صدمتك تصرفاتي، يا إدموند؟».

ـ «صدمتني؟ بالطبع لا يا عزيزتي إيزابيل! كل ما في الأمر أنني قلق...».

ـ «نعم، أعرف ذلك. ولكن، ظننت أنك مصدوم، فأنت شخص زاهد أشد الزهد، مستقيم. وأعرف أنك كنت تبغض أن تراني أنا وأوتو متعاركين. إنك لا تعتقد أن هذا يجعل الموقف أسوأ؟».

ـ «إيزابيل، أنت تفقدينني القدرة على الكلام. كيف أستطيع الحكم؟ كل ما أريده هو أن يكون كلٌ منكما سعيداً. ومن الجلي أنكما لم تكونا كذلك من قبل. وأظن أن هذا... شيء محتوم، هذا الفراق؟».

والتفتت نحوي، فرأيت كم تبدو الآن مختلفة. وجهها الصغير المستدير الحازم يبدو أكثر امتلاء، وشباباً، متلاحماً منسجماً، خالياً من القلق. ومن خلاله تشع شفافية دافئة كأنها نور يصدر عن مرمر، وفي

عينيها ذلك الأمان الغريب الذي يكاد يكون ابتهاجاً، والذي شاهدته من قبل عند أوتو. غير أن إيزابيل الجديدة لم تكن تبدو منهارة، بل أكثر تمركزاً، أكثر إنسانية، أكثر اكتمالاً. فلم يكن من طبيعتها أن تستسلم للتشتّت وللجنون.

قالت: «نعم، أظن أنني كنت أعلم منذ زمن طويل أن حياتي مع أوتو قد انهارت. وانقطعت علاقتي به منذ أن بدأ يضربني. فللعنف تأثير رهيب، وفي النهاية لا يسع المرء إلا أن يهرب منه. ولكنني لم أكن أريد أن أرى ذلك. فظللت آسفة من أجله على نحو سيء».

- «على نحو سيء؟».

- «أجل. لم تكن شفقة حقيقية، وإنما كان إحساساً مستبداً بالارتباط به، بحيث كان أسفي من أجله هو في الوقت نفسه أسف من أجل نفسي».

- «وهل أنت آسفة عليه الآن؟».

- «لست أدري. ولا أستطيع التفكير فيه الآن. وإنما سأفكر فيما بعد، وسيكون ذلك أفضل. أنا مسرورة لأن فلورا عادت إلى المنزل. سيكون على ما يرام مع فلورا. وقد كان على ما يرام مع ليديا قبل مجيئي. فلورا ستحافظ على إتزانه».

- «ألا تريدين أن نلتقي بها قبل رحيلك؟».

- «كلا. هناك لحظات يجمل بالمرء أن يترك الأشياء فيها تسقط من تلقاء نفسها. لن نفعل سوى أن يؤذي أحدنا الآخر إذا رأيتُها الآن. تناول تفاحة يا إدموند. أحضرت بعض برتقال كوكس خصيصاً من أجلك».

- «كلا، شكراً». وعدت للاستقرار مرة أخرى على السرير، ونظرت

إليها وقد استولت عليّ الحيرة. كانت ممتلئة بنفسها على نحو غامض طاغ. وأدركت أنها لم تكن في الماضي إلا نصف حاضرة، أما الآن فإنها امتلأت إلى حافتها فصارت إيزابيل بأكملها. وأرسلت الشمس، التي أشرقت في سماء زرقاء صافية ـ شعاعاً طويلاً عبر النافذة، فأضاءت وجهها المشرق وشعرها وهي تنحني فوق الحقيبة. وتحركت حولها ملايين من النقاط الذهبية في الضباب المشمس.

قلت لها بلهجة تشبه الاتهام: «يبدو أنك سعيدة».

ـ «كلا... مجرّد أنني شخص حقيقي. أستطيع أن أرى. ولهذا تستطيع أن تراني».

ـ «ألم يكن في إمكانك أن تنظري من قبل؟».

ـ «كلا. كنت أحيا بحجاب أسود مربوط حول رأسي. انظر هنا. انظر من النافذة».

تقدمت إليها وأطللنا على فناء أرضه سوداء كالفحم تناثرت فيها بقع قلائل من الأعشاب الزاهية الخضرة. وكانت هناك عربتان تنتظران. وظهرت قطة عَتَابِيّة(*) من تحت إحدى العربتين، وتسكعت لتلعق نفسها في ركن مشيَّد بالطوب الأحمر.

ـ «أتستطيع أن ترى هذه القطة؟».
ـ «أجل، بالطبع».

ـ «حسناً، حتى وقت قريب لم أكن أستطيع أن أراها على الاطلاق. والآن، ها هي موجودة، إنها هناك، وبينما هي هناك، لا أكون أنا،

(*) القطة العَتَابِيَّة tabby هي قطة رمادية الوبر مخططة ومنقطة بالسواد (راجع المورد) ـ المترجم.

وإنما أراها فحسب، وأتركها هناك. أَتَذْكر تلك الفقرة في كتاب (الملاّح القديم) حيث يرى ثعابين الماء؟ «أيتها المخلوقات الحية السعيدة التي لا يستطيع لسان أن يصف جمالها!» هذا هو ما يشبه حالي، أن أتمكن فجأة من رؤية العالم وعشقه، والخروج من الذات...».

وفهمتُ ما تعنيه. «أجل. أنا سعيد بتلك القطة. ولكن أين تذهبين الآن، يا إيزابيل؟».

ـ «أعود إلى وطني في اسكتلندا، إلى أبي. إنه شخص مفعم بالحياة، وكان يزدري أوتو دائماً، وهكذا هناك منْ تسرُّه عودتي. وأظن أنني سوف أتسمّى باسمي قبل الزواج».

ـ «وما اسمك قبل الزواج؟».

ـ «ليرمونت».

ـ «هذا اسم بديع. أتعرفين أنه كان اسم العائلة للشاعر الروسي «لرمنتوف»(*)؟ فقد كان أسلافه اسكتلنديين...».

ـ «أعرف ذلك، وقد قتل في مبارزة عندما كان في سن الثامنة والعشرين. قلت لي هذا كله يا إدموند. بهذه الكلمات نفسها بالضبط حين التقينا أول مرة، قبل أن أتزوّج أوتو. ألا تستطيع أن تتذكّر؟».

لم أكن أستطيع التذكّر. لم أكن أستطيع أن استحضر من جحر الزمان ذكرى الحديث المتبادل بيني وبين إيزابيل الفتاة الشابة التي بعدت بيني وبينها الشقّة. نظرت إليها، محزوناً حائراً. «كلا. من

(*) ميخائيل يوريفيتش لرمنتوف (١٨١٤ ـ ١٨٤١) شاعر روسي وروائي من زعماء الحركة الرومانسية في الأدب الروسي، وينحدر من أسرة اسكتلندية تمارس التجارة وهاجرت إلى روسيا في أوائل القرن السابع عشر (المترجم).

الغريب أن أكون قد تفوّهت بهذه الكلمات من قبل ونسيتها الآن. هذا يجعل المرء يشعر بأن الكائنات البشرية مجرد آلات قبل كل شيء».

- «لم أشعر قط بأنني أبعد عن أن أكون آلة مني الآن. وأتذكر المناسبة جيّداً. وقد فكرت فيها مؤخراً وقتاً طويلاً. ساعدني في حمل الحقيبة؟».

وضغطت بيديَ على الحقيبة، فلامس كميَ ذراعها العارية. كان يفوح منها دفء حيوانيَ متجمِّل معطّر. وأغلقت الحقيبة. وأصبحت الغرفة البنيّة الضيقة، جرداء الآن، لاشخصية، تنتظر رحيلنا.

- «ماذا ستفعلين هناك، في اسكتلندا؟ هل تلتحقين بعمل؟».

- «حسناً، إجلس يا إدموند، من فضلك، فأنت تحجب عني الضوء كله عندما تقف. ما أشدّ سخونة المكان هنا - مناخ البحر الأبيض المتوسط بالضبط. واسحب ساقيك الطويلتين من الطريق. ثمة شيء أريد أن أخبرك به، شيء رائع نوعاً ما».

- «ماذا؟».

- «أنا حامل».

وتحرّكت في أشعة الشمس، فبدا الغبار الذهبي وكأنه استقرَ على وجهها وشعرها. وابتسمت إليَ من خلال غمامة مذهّبة. وحملقتُ في دهشة مرتبكة، دون أن أتأكد بعد من شعوري. «ديڤيد؟».

- «أجل، بالطبع. أليس هذا شيئاً رائعاً؟».

وأطلقت ضحكة تنم عن الفرح الغامر.

- «أوه، يا إيزابيل. . . إن كنت مسرورة، فأنا أيضاً مسرور، مسرور جداً. أيعرف ديڤيد. . أو أوتو؟».

- «كلا. لن أخبر أحداً سواك. . هذا من شأني حقًّا».

- «هل أنت على يقين. . . .».

- «نعم. والآن، أصبح لي مستقبل، إنني أملك مستقبلاً، إنه هنا.

أنا لم أملك حياتي أبدا من قبل. سأكون مستقلة، نحن سنكون مستقلين. الآن».

قلت: «طفل، ما أعجب الحياة. إن هذا يجعل كل شيء يبدو مختلفاً. طفل نصف - يهوديّ».

- «طفل نصف - اسكتلندي».

- «طفل نصف - روسي. من سلالة لرمُنْتوف. أوه، يا إيزابيل.. ما أشدَّ سروري».

- «إنه طفلي. كما لم تكن فلورا أبداً. سيكون لي، لي تماماً».

وهنا أقلقني شيء. «سيحتاج - كما تعلمين، وبخاصة إذا كان ولداً...».

- «رجلاً معنا؟ أجل، أعرف ذلك. إدموند، إنك لا تفكر في الزواج مني، أليس كذلك؟ كنت أميل إليك دائماً. منذ محادثتنا عن ليرمونت».

- «متأسّف.. لا أستطيع.. والحق أنني متأثّر أبلغ التأثر، ومعترف أشد الاعتراف بالجميل.. ولكن.. حسناً، أنت كما ترين، هناك شخص آخر».

- «شخص آخر؟ أنت شخص غريب الأطوار، غامض، يا إدموند. حسْبك، حسبك، لا تخجل على هذا النحو، وإن كان لا بدّ من أقول إن هذا الخجل يجعلك تبدو أشد جاذبية بآثار تلك العين السوداء، ولكن، لا تقلق من أجلي، وبحق السماء، لا تبدأ في الاعتذار!».

- «أنا شديد الأسف، يا إيزابيل، ولكنني سأكون دائماً حيث تحتاجين إليّ، أنت والصغير لرمنتوف».

- «أعرف ذلك، يا عم إدموند.. أنت في مقام الوالدين. وكل ذلك».

- «وكل ذلك. وداعاً، يا عزيزتي إيزابيل».

٢١ ـ روما

كان المطبخ خاوياً . خواءً من ذلك النوع النهائي المضطرب. وكانت ساعة الحائط قد توقّفت، والنار خمدت. وخزانة الأطباق وأدوات الطهي عارية. كل شيء نُقل من مكانه، والدواليب مغلقة وموصدة. وكانت الشمس الحارة تتألق من خلال الستائر التي كانت نصف مسدلة بحيث جعلتها الشمس تتوهج كالزجاج الملوّن. وكان المكان مغسولاً، قاحلاً، مهجوراً، كحجرة تنتظر ساكناً جديداً. هذا الخواء أفزعني، فدلفت بخفّة وسرعة عبر درجات السلم. ولم تكن أشعة الشمس قد اقتحمت هذا المكان، ومنور المنزل يرتفع، مظلماً، متجهماً، وما برحت رائحة النار تفوح منه. وأرهفت سمعي للسكون المخيِّم على المكان.

وارتقيت درجات السلم ركضاً. وكانت بَسْطة الطابق العلوي مغطاة ببقايا محترقة من أثاث حجرة إيزابيل. وتردّدت. كنت إنساناً مطارداً بمكان وحيد لا محيد عن ذهابي إليه. وواصلت ركضي على المجموعة الثانية من درجات السلم المؤدية إلى القبو حيث كانت الفتاة الايطالية تعيش دائماً. وطرقت الباب، ثم دخلت في الشمس الباهرة.

وكان شعوري بالراحة حين وجدت أنها ما زالت هناك من الشدة

بحيث كان أشبه بقطع عرق في جسدي، وكدت أتعثر فعلاً، إذ اعترضت طريقي حقيبة مغلقة ترقد على قمة صندوق كبير ملفوف بالحبال لفاً محكماً. وكانت الحجرة الصغيرة البيضاء بأوراق جدرانها المنقَّطة بالورود قد جرِّدت تماماً، ورتِّبت، فلم يبق على الحائط سوى الخريطة الضخمة المألوفة لايطاليا، وهي خريطة كانت كارلوتا قد ثبتتها بالدبابيس منذ سنوات طويلة خلت. ودخلت متئداً.

كانت تقف إلى جوار النافذة، شاردة في أشعة الشمس. ««آسف لاندفاعي داخلاً على هذا النحو. فقد ظننت لحظة أنك قد رحلت».

فلم تقل شيئاً، ولكنها تحركت قليلاً، وكانت أشعة الضوء المغبَّرة الشفافة قد أقامت حائلاً بيننا. بدأت مرة أخرى متلعثماً.

- «أنا آسف...».

- «أجئت لتقول وداعاً؟ هذا لطف منك». كان صوتها جافاً، صدئاً مبحوحاً بحة خفيفة، لا نبرة فيه، صوت محيِّر لا انتماء فيه.

وأردت أن أراها على الوجه الصحيح، فابتعدت إلى طرف الحجرة متجنباً للشمس، وسقطت أشعة الشمس عبر صدرها، فأبصرت فوقه ذلك الوجه الشاحب المعظَّم بعينيه الواسعتين، وذلك الغطاء من الشعر الأسود الأملس الجاف. كان وجها عجوزاً، وجهاً جديداً، صبياً في لوحة لتيسيان(*)، مربِّية طفولتي.

- «حسناً، نعم، أنا...» وأحسست أنني مثل رجل صدر عليه

(*) تيسيان (١٨٨٧/ ٩٠ - ١٥٧٦) أعظم رسام إيطالي عاش في فينيسيا ويعد من وجوه كثيرة مؤسس الفن الحديث (المترجم).

حكم رهيب في بلاد أجنبية. فلم يكن في وسعي إلا أن أحملق وأتوسّل.

- «كما ترى، أنا راحلة أيضاً، وإن لم أفعل بعد. هل ستلحق بقطار بعد الظهر؟ لم يبق كثير من الوقت». كان صوتها مسطحاً، بل يكاد أن يكون قاسياً، غير أن العينين كانتا تزدادان إتساعاً.

- «كلا، أقصد لست أدري... هل يمكنني؟» وتلفَّتُ حولي يائساً. كان هناك طبق من التفاح على رف النافذة. «هل يمكنني أن آخذ واحدة من هذا؟».

وناولتني الطبق صامتة. فأخذت التفاحة، ولكني لم أستطع أكلها. كان من الممكن أن تقف في حلقي. فمسحتها مرتبكاً في صدريتي.

- «أذاهبة أنت إلى... الوطن؟».
- «سأعود إلى ايطاليا، نعم. وهل تعود أنت أيضاً إلى بيتك؟».
- «أجل».

- «أرجو لك رحلة طيبة».

كنت صامتاً، فلم أكن أستطيع أن أنظر إليها الآن، كان الإحساس بالقسوة غاية في الشدة. وفي لحظة أخرى أحسست أنه ينبغي أن أقول: «حسناً، وداعاً، ثم أتركها وحدها إلى الأبد في ضوء الشمس. كنت أحس أنني كالآلة التعسة التي اتهمت نفسي منذ لحظة بأنني على شاكلتها. غير أن نموذجاً أقوى مني كثيراً كان يجرّني بعيداً، منعطفاً إلى الأماكن الموحشة القديمة. ودسست التفاحة في جيبي.

كان رداؤها القطني أزرق اللون يُزيِّنه نوع من الكلفة البيضاء، مجرد ثوب بسيط لا تكلف فيه. ونظرت إلى الصدر، ونظرت إلى حافة الثوب، ونظرت إلى الكُلفة مشدوهاً: «حسناً، كنت أريد...»

وصعَّدت بصري إلى وجهها. كان خالياً من كل تعبير ومن كل رحمة كأنه وجه جلاد. «حسناً، كنت أريد أن أرى إن كان هناك أي شيء..»

- «أي شيء تستطيع أن تفعله من أجلي؟ كلا، شكراً لك».
- «أوه، كُفّي عن هذا يا ماجي!».
- «أكفَّ عن ماذا؟».

وأصابني ترديدها للكلمات في الصميم بنوع من القلق الجاف، بإحساس بتفاهتي. أحسست أنني عاجز، لا وزن لي، مشلول كرجل في حلم.

قلت متمتماً: «أنا آسف، أنا غبي جداً. لا بد أنني متعب. سأتركك لتحزمي حقائبك. أظنَّ أنه ينبغي عليَّ اللحاق بذلك القطار».

واستولى النموذج القديم عليّ، وساقني سَوْق الأنعام، وشرعت أجر قدميَّ متثاقلاً في تعاسة صوب الباب.

وطئت في ارتباكي شيئاً كان موضوعاً في منتصف الحجرة. كان زوجاً أبيض من الأحذية. فأخذت أجمجم معتذراً، بينما انحنيت لأضعهما مرة أخرى في وضعهما الصحيح، ثم اعتدلت متمهلاً ممسكاً بفردة منهما في يدي. وكرجل في حكاية خرافية أُعطيت له علامةً غامضة، ظللت قابضاً على الحذاء في انتباه أعمى مفاجىء، دون أن أتأكد بعد عن هذا الذي أُخْبرت به.

قلت في بطء: «ولكن. هذا هو الحذاء الذي فقدته في الغابة، أليس كذلك؟ إذن، فقد عثرت عليه على كل حال؟».

فاندفعت نحوي، واختطفت الحذاء من يدي، وطوّحت به على السرير. كانت الحركة أشبه بهجوم. «لم أعثر عليه، لأنني لم أفقده قط».

وكانت الصدمة التي أحدثتها حركتها، وقربها المباغت، قد انتزعا معنى كلماتها، لحظة من الزمن. «ماذا تعنين بقولك إنك لم تفقديه قط؟».

ـ «لم أفقده قط، كان في جيبي. والآن، وداعاً، يا إدموند. حان وقت قطارك. وداعاً، وداعاً. . .».

التقطت فردة الحذاء مرة أخرى. وجلست متثاقلاً على السرير. قلت: «لن أرحل».

وساد صمت طويل، ولكنه كان مختلفاً تمام الاختلاف هذه المرة. وتحركت الحجرة كما يتحرك (المِشْكال)(*) ثم استقرت ثانية، وقد ازدادت إتساعاً، وانعزالاً، وأمناً. قلت: «ماريا».

كانت هذه هي الكلمة التي نطقتها الفتاة الايطالية أثناء خروجنا معاً من الغابة في ذلك اليوم الذي بدا الآن في زمان غابر. كان أشبه بتعويذة سحرية مُنحت لي حتى استخدمها في وقت لاحق، وأصبح لساني منطلقاً ليستخدمها الآن.

تقدمت وجلست على الطرف الآخر من السرير، وطفق كلٌّ منا يحدِّق في الآخر. وأستطيع أن أتذكر بأنني لم أنظر إلى أحد على هذا النحو من قبل: عندما يكون المرء رؤيةً كله والوجه الآخر يلج في وجهه. وكنت على وعي أيضاً بإحساس جسديّ لم يكن شهوة بالضبط، ولكنه شيء يمت بصلة إلى الزمان، إحساس بأن الحاضر أصبح لامتناهياً في الاتساع.

(*) Kaleidoscope ـ أداة تحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون ما إن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان (المورد).

لم تبتسم، غير أن القناع القاسي كان قد تغيّر، وتراخى إلى نوع من الإرهاق الأسيان الذي آن له أن يرتاح. وبدت فجأة أنها مسترخية، مُجْهدة كشخص سافر طويلاً ثم بلغ مقصده.

قالت: «لم أكن شديدة الذكاء معك، أليس كذلك؟».

حركت كلماتها أشجاني وأثَّرت في نفسي تأثيراً حاداً إلى درجة النواح. ولكنني قلت هادئاً: «كنت بالتأكيد شديدة الخشونة الآن ومنذ لحظة. أكنت ستركينني حقاً أرحل من هذا المكان؟».

فنظرت إليّ بإمعان لحظة، ثم هزَّت رأسها.

وأخفيت وجهي في الحذاء. أتاني عرفان الجميل كالألم الجسديّ، ثم أحسست أنا أيضاً بتعبٍ مُسْتَرخ كان فَرَحاً خالصاً.

وواصلت حديثها: «وجدت أنني لم أكن أستطيع أن أكلمك، ومع ذلك كنت أعرف أنني لو بدأت مرة، فسيكون الأمر يسيراً. غير أنني لم أستطع التغلب على سماجتي وعدائي وأن أجعلك أيضاً على شاكلتي». قالت هذا بلهجة من يقدِّم تفسيراً بسيطاً.

قلتُ بالنبرة نفسها: «أعرف ذلك، وأظن أنني كنت في غاية الغباء ولكنني ما كنت رحلت».

- «كان من الممكن أن ترحل.. وما زال ممكناً بعد. كل ما أردته هو أن يكون كل منا حاضراً للآخر ولو برهة من الزمن».

- «نحن بالتأكيد حاضران». وانتابني إحساس سعيد هادىء بالقوة كان في الوقت نفسه فورة من فورات التواضع. كنت متحرراً مسلَّحاً في آن معاً. والآن أستطيع أن أسلك سلوكاً إنسانياً، أفكر، وأرغب، وأتأمل، وأتكلم. وقبضت على فردة الحذاء بيدي. وراودتني رغبة

للركوع على الأرض، ولكنني قلت ببرود: «لماذا قرَّرتِ أن تسمحي لنا بالاطلاع على الوصيّة؟».

ـ «كان لا بد لي من أن أجعلكم تشعرون بي إلى حد ما!».

فأطرقت برأسي: «يا لي من شخص غشيم!» كان ذلك حقاً. فليس من شك أن النقود هي التي استرعت انتباهي. ولكن بالطبع كنت أعلم ذلك طيلة الوقت. أو تُراني كنت أدري؟

ـ «ثم استسلمت تقريباً بسببها».

ـ «ليديا؟».

ـ «إلسا».

كان الاسمان يؤلفان حاضراً ظليلاً، وكأننا تطلّعنا بأبصارنا فألفينا أنفسنا على مقربة من برج عظيم. قلت: «تقصدين أنه عندما ماتت إلسا أخذ هذا معه الأغراض جميعاً؟».

ـ «أجل. ولكن لعلّه غيّرنا فأصبحنا أنفسنا في نهاية المطاف. لقد متنا جميعاً لحظه من الزمن، ولكن ما جاء بعدئذ كان أعظم يقيناً».

بدا لي غريباً أن تتحدث عن موتها مع إلسا. كنا جميعاً ـ بلا شك ـ كغيرنا من البشر كافة ـ حَزَانى لفترة قصيرة. ولكن، ماذا عن ليديا؟ كنت على وشك الحديث عنها، ولكني كبحت نفسي. سيأتي هذا فيما بعد، فيما بعد بزمن طويل. كيف كنتُ على مثل هذا اليقين بأن المستقبل سيكون طويلاً على هذا النحو؟ قلت: «أظن أن أوتو قد مات أكثر من لحظة».

وتذكرت وجه أوتو الذاهل المحطم. وهنا أدركت نفسي بغتة عند مفترق الطرق. لم يكن الأوان قد فات تماماً. لقد وصفت فلورا حياتي بأنها كسيحة. هل كانت هذه حقيقتها؟ ألا ينبغي أن أقفز الآن وأجري

من الحجرة قبل أن يختلط أمري بصورة حاسمة فاجعة فلا أعرف لي رأساً من ذيل؟ ثمت قوة عظيمة قد توازنت، ولكنها لم تُطْلق بعد. وهذه المحادثة الغامضة اللمّاحة يمكن أن تنتهي على حين غرة كما بدأت. وما زال من الممكن أن أهبط درجات السلم وأن أغادر المنزل. ألا ينبغي أن أعود إلى عزلتي وأموري البسيطة وأن أدرس مرة أخرى لأكتسب بالصبر ما ـ لعله ـ حاق بأوتو في لحظة اشتعال؟ فلقد تبادلنا ـ أنا وأوتو ـ الأماكن بمعنى ما، متجاوزاً كلٌّ منا الآخر في طريقه، وكنت أنا الآن الذي قام بدور الأحمق. ما قيمة، وما كانت قيمة، تأمّلي الطويل؟ ليست لي القدرة هنا على شفاء أمراض الآخرين، كل ما في الأمر أنني اكتشفت أمراضي الخاصة. وكنت أحسبني عَبَرْت إلى ما وراء الحياة، ولكن يبدو لي الآن أنني تجنبتها فحسب. فلم أعبر إلى «ما وراء» أي شيء؛ كنت شخصاً مذعوراً زائف التديّن.

لم أَرها إلا لحظةً واحدة بوصفها مُغْوية. وفي اللحظة التالية كان وجهها هو وجه السعادة، شيء نادر ما رأيته قط من قبل، وتوقفت منذ أمد بعيد عن البحث عنه. وحتى حين فهمتها على أنها سعادتي، فهمتها في الوقت نفسه على أنها شقائي. وتذكرت كلمات ديڤيد وهي أن على المرء أن يتعذبَ في مكانه الخاص. وسواء أقبل عليّ الفرح أو نزل بي الحزن من هذا فإنه سيكون حقيقياً، ومنتمياً إليّ، إذ أكون في هذه الحالة عائشاً في مستواي الخاص، ومُعَذَّباً في مكاني الخاص. وليس في العالم كله سوى إنسانة واحدة يمكن أن أكون كاملاً من أجلها، وقد وجدتها. ومع هذا أيضاً فكّرت بالطبع في ليديا وفي سر ليديا الذي أرثه الآن بمعنى ما، وعرفت أنه في وقت ما من المستقبل سوف تفضي إليّ الفتاة الإيطالية بالكلمة الصادقة التي ينبغي أن تُنْقش على ضريح ليديا.

فركت عينيّ، فلم أكن أريد بعد، أن تنثال كل هذه الخواطر على

فكري. وإنما أردت أن أكون ـ برهة من الزمن، وربما كان ذلك لأول مرة ـ متصاغراً وبسيطاً، وأن أتعامل ببساطة مع شخص آخر أياً كانت العواقب: سيئة أو حسنة. أبصرت بها الآن، فتاة، غريبة، ومع ذلك كانت أكثر الناس أُلْفة في العالم: كانت فتاتي الايطالية، وكذلك أول امرأة أيضاً، غريبة كما كانت حواء لآدم المبهور المستيقظ الذي ينفض عنه سباته. كانت هناك، منفصلة، موثوقة الوجود هناك، كالقطة التي أرتني إيزابيل إياها من النافذة. والمرأة الهاربة لم تمض في هربها، وإنما التفتت وراءها.

قلت: «من الغريب، أنني لم أعرفك حق المعرفة، ومع ذلك أشعر الآن أن ماضيّ متَّصل حقاً بمستقبلي. أكنت هناك حقاً حينئذ. أكنت أنت حقاً؟».

وابتسمت أخيراً، وأزاحت إلى الوراء شعرها القصير الذي لم تتعوّد عليه بعد. «كنت وسيماً جداً يا إدموند، عندما كنت في السابعة عشرة».

وأطلقت ما يشبه الزمجرة: «ولكن الآن، ماذا أصبحت الآن؟» ولم أعد أدري كيف أبدو الآن، إذ لم تكن لدي أية صور فوتوغرافية عن نفسي. وهذا أيضاً شيء ينبغي أن أتعلّمه.

- «سنرى، لا تخف شيئاً»(*).

وكانت الكلمات الايطالية أشبه بجرس يؤذن بالتحويل، إذ أحسست فجأة بحرارة الحجرة، وبالحضور العذب للشمس: أن يحيا المرء في الشمس، وأن يحب في الهواء الطلق. قلت: «أنت ذاهبة إلى إيطاليا؟».

(*) قالتها ماجي بالايطالية Si Vedrà. Non aver paura.

ـ «أجل . . . إلى روما» .

فتنفّست نَفَساً عميقاً. واستولت علّي فجأة رعشة عنيفة . «أيمكنني أن أقوم بتوصيلك إلى هناك بسيارتي؟» .

وكان جوابها إيماءة، وتنهيدة. وفي الوقت نفسه وضعت إصبعها على شفتيها.

فهمت. وتأملت يديها. لا تزالان بعيدتين بُعد النجوم. وتراجعت. ما زال في الوقت متّسع .

تناولت التفاحة من جيبي، وشرعت في أكلها. قلت: «سأذهب لأحزم حقيبتي . . وبعدئذ نستطيع أن نفكّر في الأزمنة والأمكنة. لماذا، إنه الطقس الإيطالي فعلاً» .

وحين اتجهت إلى الباب توقفت أمام خريطة إيطاليا . . الطريق، أجل، هذا أيضاً ينبغي أن نناقشه. وتابعت بإصبعي طريق أوريليا. ثم جينوڤا، بيزا، ليڤورنو، جروسيتّو، شيفيتافتشيا، روما.

انتهت

هرب ادموند من عائلته إلى حياة متوحّدة. وحين عاد للمشاركة في جنازة أمّه، وجد نفسه داخل مشاكل قديمة ومريعة، كما وجد مشاكل جديدة أخرى.

واكتشف من جديد خادمة العائلة الأزلية، الفتاة الايطالية الدائمة التغيّر والتي كانت أبداً الأمّ الأخرى. وهذه العودة الخاصة إلى الأمّ تخفي عدة مفاجآت لادموند...

وقد علقت جريدة الدايلي تلغراف على الرواية بأن مؤلفتها هي أفضل روائية انكليزية معاصرة.

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص. ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف نجاح طاهر